

أريانة مع الزمان

تأليف :

علي حمريت

أستاذ مبرّز

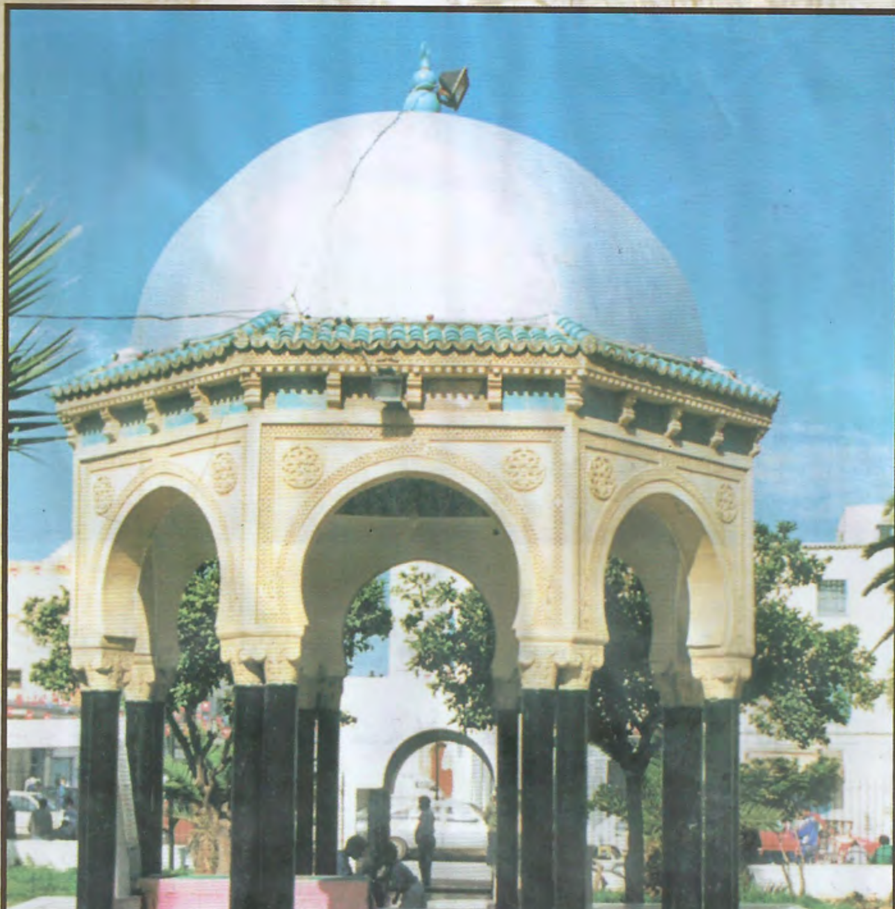

أريا



تَأْلِيفُ :

علي حمريت

أُسْتَاذ مبرّز



مقام الولي المجاهد سيدي عمّار قبل تهيئته الجديدة

تقديم الكتاب

أريانة المجاورة من جهة الشّمال لعاصمة الجمهوريّة التّونسيّة، هي مدينة عريقة، وحافلة بالأحداث التّاريخيّة. لقد احتلّت صدارة العديد من الوقائع التي عاشتها بلادنا التّونسيّة في ماضيها التّليد. ومن هذا الماضي المجيد لمدينتنا ـ وقد تجاوزت الألف سنة منذ تأسيسها إلى اليوم ـ مازال جمالها المحتشم يبهر الزّائرين فيثير إعجابهم ويتمكّن من نفوسهم، وهو يتمثّل، إلى الآن، في معالمها الأثيلة ومواقعها القديمة وكذلك في منشآتها الحديثة.

وما فتئت هذه الذّخائر والعلائق المعماريّة تحظى، من حين إلى حين، بعناية الباحثين في دراسات مقتضبة، تصدرهنا وهناك في بعض المنشورات أو المقالات الصّحفيّة. واليوم نرى مدينة أريانة تظفر بدراسة مركّزة ضافية يقدّمها الأستاذ علي حمريت فتشمل تاريخها ومعمارها وساكنيها وإنجازات بلديّتها بالنّظر والتّحليل والتّمحيص، وتميط اللّثام عن أمجاد مدينة أريانة وأصولها التّاريخيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة، وعن ماضيها الحافل الّذي غفلت عنه الذّاكرة وغطّاه توالي الأيّام. وهذا العمل الجدّيّ المتميّز قد جمع شتات المكوّنات الجمّة والمعطيات الفائقة في قيمتها والعريقة في أصالتها، فبعث أريانة من الغفلة وأخرجها من النّسيان، وربط بين ماضيها التّليد وحاضرها المشرق.

وبدا لنا هذا التّأليف مرجعا ثابتا ودقيقا، على غاية من الأهميّة والقيمة فيما يقدّمه من المعلومات المؤكّدة بالشّاهد والدّعم التّاريخيّ الّذي لا يقبل الدّحض والشّكّ. وقد تمثّل كلّ ذلك في وثائق ثابتة المرجع وخرائط بيانيّة وإحصائيّات وصور ومراجع مكتوبة ورسوم توضيحيّة، تبرز جميعها وبكثير من الدّقة، الإطار التّاريخيّ الّذي تندرج فيه الوقائع والأحداث فيما عاشته مدينة أريانة وما طرأ عليها وطرق أهلها وقاصديها «مع الزّمان». فكانت مواكبة للتّحوّلات العمرانيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، وهذه سنّة كلّ حيّ، وخاصّة إذا كانت مدينة في مثل هذا التّطوّر العجيب سرعة وإنجازا، وفي حجم مدينة أريانة بين ماضيها الثّريّ الّذي أظهره تأليف الأستاذ علي حمريت وضّاحا وبهذا الجلاء وبين مستقبلها الكبير الواعد الّذي نتلمّسه ونتحسّسه في المخطّطات الإنمائيّة الّتي لم يغفل عنها صاحب الكتاب وسجّلها بعناية، تعميما للفائدة في قسمه الثّاني، وتعريفا أشمل بمدينة هي في مسيرة الحداثة الّتي تعيشها في واقعها الحاضر.

فإنّ كتاب «أريانة مع الزّمان» للأستاذ علي حمريت قد أبرز بحقّ مجد مدينتنا وأوفاها ما تستحقّ من التّعريف بماض تناسته الذّاكرة الجماعيّة وها هو ذا يطفو وضّاء من جديد في هذا التّأليف القيّم الّذي يقدّم لنا الأحداث الجسام عبر مختلف أدوار تاريخ تونس وفيها احتلّت هذه الضّاحية القريبة من العاصمة الرّيادة والمسؤوليّة الكبرى دفاعا عن الوطن وأهله وحماية لأعراقه وأصوله ودينه وذودا عن «الهمّة والعرض وحبّ الوطن والأرض». من ذلك تصدّي متساكنيها مع من ناصرهم من جميع البلاد للحملة الصّليبيّة الثّامنة التي قادها ملك فرنسا لويس التّاسع بنفسه سنة 1270م قصد تنصير البلاد وجعلها قاعدة لزحفة

ثانية على مصر وبيت المقدس. فكان حتفه ثمنا لهذا الغرور، وكانت أريانة الدّرع الواقية لردّ ضلالة المعتدين وخضد شوكة الباغين. وضريح المجاهد الصّالح سيدي عمّار المعروفي القائم بها هو شاهد على ذلك في وقفتها في وجه الطّغاة الغاصبين وفي ذودها عن حوزة الوطن.



الملك لويس التّاسع (القدّيس لويس)
يركب البحر في حملة صليبيّة عام 1249 – منمنمة من المكتبة الوطنية بباريس

وليس غريبا أن تكون أريانة قبل ذلك، وفي عهد الدّولة الزّيريّة،موطنا للسّلطان الرّوحيّ لمدينة تونس الحاضرة محرز بن خلف بن رزين الصّدّيقيّ، ما بين القرن العاشر والقرن الحادي عشر للميلاد. فهذا المربّي الورع الصّالح الّذي عرفته أريانة صبيّا، ومؤدّبا لأبنائها، فيها أنشأ حركة فكريّة وثقافيّة كان لها المدّ والانتشار في كامل البلاد.

إنّ الحديث وإن طال لا يفي ـ على كلّ حال ـ بما تضمّنه هذا التّأليف من المعلومات المتنوّعة والمعارف المفيدة الّتي تبرز من خلالها مدينة أريانة رافلة في حلّة قشيبة كالعروس على الدّوام بين حقول الورد والياسمين والنّسرين تتضوّع عطورا «مع الزّمان».

وفي خلاصة القول، يشرّف بلديّة أريانة وجمعيّتها الثّقافيّة التّشجيع على طبع هذا الكتاب والحرص على نشر ما تضمّنه من مادّة تاريخيّة وحضاريّة ووصف معماريّ لمعالم مدينة أريانة بين متساكنيها. فبقدر معرفتهم لها يزيد تعلّقهم بها والانكباب على العناية بمكتسباتها والعمل على تطويرها والنّهوض السّريع بمنجزاتها.

وفي هذا المضمار لا يفوتنا أن نتقدّم بالشّكر الجزيل **لسيادة رئيس الجمهوريّة زين العابدين بن علي**

الّذي ما فتئ يولي مدينة أريانة وبلديّتها بالدّعم المادّيّ والأدبّي، ويكلأهما بعين الرّعاية والسند. والمشاريع الرّئاسيّة الكثيرة أكبر شاهد على ذلك فيما تراه اليوم متمثّلا في شبكات الطّرقات والمحوّلات الدّاخليّة والحزاميّة للمنطقة البلديّة، وفي شبكات التّطهير وفي المناطق الخضراء المتطوّرة التي شملت كلّ حيّ من أحياء المدينة وفي المنتزهات العديدة أيضًا. وكلّ هذا داخل في سياسته الرّشيدة التي عمّت كلّ البلاد، ونراها اليوم تنهض بمدينة أريانة فتصبح من بين المدن الرّئيسيّة في البلاد. وما تزال المخطّطات في إنجازها وتحقيق ما جاء فيها من برامج رئاسيّة متواصلة أصبحت بها مدينة أريانة درّة الإقليم وكعبة القصّاد من كلّ صوب وحدب يجد فيها المقيمون من سكّانها كما يجد فيها كلّ الزّائرين الرّاحة والمتعة والرّفه في منتزهاتها ومرابعها.

وفي مسار الجدوى للعمل البلديّ وفي إطار النّظرة الاستشرافيّة لمستقبل الجمهوريّة التّونسيّة وازدهار الحياة الاجتماعيّة في المدن والارتقاء بنوعيّة الحياة فيها لدى المتساكنين ولرفاهة جميع التّونسيّين وتيسير التّعامل بينهم والسّموّ بسير الخدمات في الإدارة البلديّة بصفة عامّة وفي جميع مصالحها بصفة خاصّة ماديّا وأدبيّا، أمر سيادة رئيس الجمهوريّة في نطاق العمل البلدي بإجراءات جديدة ضمن البرنامج الإنمائيّ في شتّى الميادين. ففاق حينئذ حجم الاستثمارات البلديّة بولاية أريانة منذ الإصلاح الشّامل **53,5** مليون دينار. ومكّن كلّ هذا من الاستجابة لتطلّعات المواطنين وقد ظهرت نتائج هذا الإصلاح جليّة في إنجازات كان لها عميم الفوائد وأفضل النّتائج على حياة المواطنين وعلى سير أعمالهم في مختلف الميادين.

وإنّ الزّيارة التّي قام بها سيادته وإشرافه على الجلسة الممتازة للمجلس الجهوي لولاية أريانة في الثّاني من نوفمبر 2002 وما أعلن عنه أثناءها من قرارات قد أدخلت دفعا جديدا على المسار الإنمائي للجهة فأتمّت إنجازات المخطّط السّابع بنسق حثيث ثمّ فتحت المجال لإنجازات جديدة أذن سيادته بتحقيقها في المخطّط الثّامن.

وشهدت مدينة أريانة ـ كمركز للولاية ـ نماءً متزايدا وتحوّلات اقتصاديّة واجتماعيّة ظهرت جليّة في المخطّطات الاستثماريّة للبلديّة متناغمة مع البرامج المستقبليّة التي أقرّها سيادته لتونس في عهدها الجديد. وهي استثمارات تعزّز ما أنجز في ولاية أريانة في مجال البنية الأساسيّة وتحسين ظروف العيش وتطوير الخدمات والعناية بالقطاع الثقافي والرّياضي.

والله نسأل أن يوفّقنا جميعا في كلّ ما نقوم به من عمل لتعميم الفائدة والنّفع وأداء الواجب وخدمة تونس.

د . صلاح البلطي
رئيس بلدية أريانة

تمهيد

إنّ ما نرمي إلى القيام به في هذا الكتاب عن مدينة أريانة يدخل ضمن مشاغلنا في كتابة ما يمكن أن نسمّيه «تاريخ المدن التّونسيّة». وقد لاحظنا أن مدينة أريانة لم تنل حظّها في جميع ما كتب عن مدينة تونس المحاذية لها، وقد كانت أريانة تعتبر ضاحية من ضواحي العاصمة. ولم نعثر فيما قرأنا عن تونس عبر التاريخ منذ نشأتها إلى اليوم شيئا ذا بال يذكر عن مدينة أريانة،و بصفة مستفيضة.

وقد تعود غفلة المؤرّخين عن ذكر أريانة ـ عدا لمع أوإشارات عابرة بمناسبة الحديث عمن سكنوها من أعلام الرجال أو ممّن آستطابوا الإقامة فيها بصفة مستمرّة أو في فترات من السنة ـ إلى أسباب سنحرص على تقصّيها في غضون هذا التّأليف الذي نعتبره البادرة الأولى، نقدّم فيها بعض المعلومات عن أريانة. وهذه الضّاحية كان لها منذ نشأتها وفي عهود ازدهارها دور هامّ في حياة سكّان تونس العاصمة، في فترات السّعة أو فترات الضّيق أو في الأفراح أو الأتراح. فأريانة هي مربعهم ومصيفهم، وهي أيضًا درعهم الواقية في أزمات الحرب والحصار وفي الأحداث العصيبة من تاريخ تونس. ذلك لأنّها شاركت في أحداث جسام،واضطلعت بمسؤوليّة الدّفاع عن حوزة الوطن كلّما داهمته المخاطر. وسنحلّل ذلك مفصّلا في إبّانه. فكان لها الفضل من هذا الجانب في حماية العاصمة من جليل المخاطر خاصّة في العصر الوسيط.وقد يرجع التّقصير في الحديث عن دور مدينة أريانة في كتب التّاريخ إلى أنّ مصيرها كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بتونس العاصمة فقد مثّلت السّويداء في قلبها النّابض والفلذة في أحشائها، إذ كانت متنفّس سكّانها في العديد من المواسم والأعياد في السّنة وخاصّة في فصل الرّبيع، فمن من أهل تونس العاصمة لا يتوجّه إلى أريانة طلبا للنّزهة وللهواء النّقي في حقول الزّياتين الشّاسعة، في مرح لا ينتهي بين السّواقي الممتدّة والآبار ذوات النّواعير يحدوه الشّوق إلى التّقلّب في مرابعها وبساتينها الخضر وحياتها البهيجة في فصل الزّهور وكذلك في صيفها على شاطئها الجميل بروّاد؟ وقد تغافل بعض المتقوّلين عليها ـ والعهدة عليه ـ في التّغاضي عن بحرها حين يقول: «لو كان أريانة فيها بحر، ما يعرف أحد غمّة القبر». ويعزى ذلك في ما مضى لبعد شاطئ روّاد عنها وقد أضحى اليوم لصيقا بها، بسبب تواصل بناء الأحياء والمجمّعات السّكنيّة منها إليه.

وأريانة هي درع تونس العاصمة في أدوار متعدّدة من تاريخها، سواء في الحملة الصّليبيّة الثّامنة بقيادة ملك فرنسا نفسه ـ «لويس التّاسع» الملقّب بالقدّيس لويس، أو في زحفة الإسبان بقيادة الملك شارل الخامس المعروف «بشارل كان».

ولسائل أن يسأل ـ في بادئ الأمر ـ عن معنى هذه التّسمية «أريانة»؟، ومتى أسّست هذه القرية ثمّ أصبحت مدينة مترامية الأطراف؟، وكيف ازدهرت عبر التّاريخ؟، ومن هم ساكنوها؟، ثم كيف كانت تتوزّع الملكيّة السّكنيّة والفلاحيّة فيها؟

فإن بحثا شموليّا ومتقصّيا يجيب عن هذه الاستفسارات الهامّة والمشروعة يحتّم الرّجوع إلى كتب

التّاريخ وجمع المعلومات المتفرّقة والإشارات العابرة،كما يستدعي تصفّح سجلاّت الملكيّة العقاريّة، ودفاتر الولادات - وهي حديثة مهما كان قدمها - ونحن لا نملك كتبا للأنساب ولأسماء الأسر ولا لسير الرّجالات، كما يتعذّر علينا اَستقراء المدينة العتيقة نفسها في كل مكوّناتها المعماريّة قديمها وحديثها، إذ قد عملت فيها يد التّجديد والتّعديل والتّغيير عملها عبر الأيّام.

وإنّ ما يذكر في أريانة من قصور الطبقة الأرستقراطيّة التي كانت تسكنها في فترات من السنة لا تتجاوز أواخر القرن الثّامن عشر وبداية القرن التّاسع عشر.

وإنّ الإحاطة بهذه المرجعيّة الثّرية الواسعة - وقد لا تتوفّر بسهولة - تستدعي مجهودا ووقتا ويعسرالعثور عليها حتّى يقع استثمارها. ولا يفوتنا أن نبادر القارئ الكريم بالقول إنّ البحث عن تاريخ مدينة أريانة طلب منّا - رغم كلّ هذا - جهدا كبيرا، كان يحفزنا أثناء القيام به حبّنا العميق لأريانة ولأهلها الطيّبين، نعزّهم ونحملهم في سويداء العين منّا ونريد أن ننير سبيلهم في معرفة مدينتهم في أعماقها وأصالتها وتجذّر عراقتها في مطاوي تاريخ وطننا التّونسي العزيز حتّى يتعلّقوا بها كما تعلّقنا بها كلّما تقدّمنا في البحث عن مكنوناتها وفي الكشف عن أسرارها وإماطة اللّثام عن محاسنها.

فهي الجميلة التي بخلت بحسنها على طالبيها والبوح بسرّها الدفين. ولا يدركه إلاّ من وطّد النّفس على الصّبر والأناة في إمعان النّظر. وفي ذلك لذّة الاكتشاف وعذوبة الفوز. وإنّما يعرف الصّبابة من يعانيها فيستبشر بالخصب بعد المحل، ولا بدّ دون الشّهد من إبر النّحل.

وقد تجمّعت لدينا - بعون اللّه - رغم صعوبة المأتى مادّة متنوّعة الجوانب غزيرة الفوائد تأكّد بها لدينا أنّ أريانة مدينة عريقة ضاربة الجذور في التّاريخ، شأنها شأن المدن التّونسيّة ذات الصّيت المجيد عبر الأزمان. وإنّ هذا التّأليف الذي نقدّمه عنها هو فاتحة أبحاث وأعمال قد يبادر ذوو العزائم من محبّي هذه المدينة القيام بها في مستقبل الأيّام لزيادة التّعريف بخصائص مدينة أريانة قديما وحديثا. وإنّ ما تقدّم عنها في هذا العمل يمكن أن ننعته «بباكورة السّعد» ويمثّل، ككلّ بداية لعمل معمّق ستثبت أسسه مع الأيّام، باقة من ورد أريانة الفوّاح تتضوّع بأريج مدينة أنتشر نفحها زكيّا يسري في لطف بين السّنين كأعمال رجالاتها منذ القديم إلى اليوم، فجعل من ذلك «البلد الأمين» الحالم في الأمس الغابر، في بساتين الفلّ والياسمين والورود، مدينة مترامية الأطراف تعجّ بالسّكان وتحيى كخليّة نحل، في عمل متنوّع دؤوب في حاضرها الزّاهر تحدوها المطامح الكبيرة والآمال العريضة.

ومن مظاهر الرّسوخ الحضريّة لمدينة أريانة أنّها كانت ولاية منذ عهد الدّولة الصّنهاجيّة وقد كان يدير شؤونها وال من قبل دولة بني زيري بالقيروان - كما سنبيّن ذلك - ثمّ حدث ثان يؤكّد تقدّمها العمراني وهو بعث أوّل مجلس بلدي بها في الفاتح مـن جويلية سنة .1908لذلك ينطبق على أريانة قول النّواسي: «فهي ترب الدّهر في القدم». ولعلّ من يراها اليوم يردّد قوله كذلك: «ثمّت أنصات الشّباب لها بعد ما جازت مدى الهرم»

ويحقّ لسائل أن يسأل: هل وجدت أريانة، فعلا، في العهد الوسيط؟ وهل هي مدينة فينيقيّة؟ أم

رومانيّة؟، أم قوطيّة؟، أم هي في نهاية الأمرمدينة عربيّة؟.

إنّنا نجيب عن هذه الأسئلة بتقصّي العديد من المصادر والمراجع التي نراها حرّية بالتّحليل والمقابلة والمراجعة والنّقد أيضا، وبالتّصديق أو التّجريح إن لزم الأمر غايتنا في ذلك كشف الحقيقة والاهتداء إلى الإجابة التي تقنع ولا تتعارض مع منطق الأحداث وترابط الأمور وتماسك الرّأي المركّز السّليم. «والله وليّ التّوفيق».

أريانة، في السّبت 4 شوّال 1421 الموافق لـ30 ديسمبر 2000

أريانة

في ماضيها التّاريخي المجيد

أو أريانة في مطاوي كتب التّاريخ



منظر عام لمدينة أريانة قبل التوسع العمراني

المكونات الجغرافيّة لمدينة أريانة

1 ـ المحيـط الطّبيـعي:

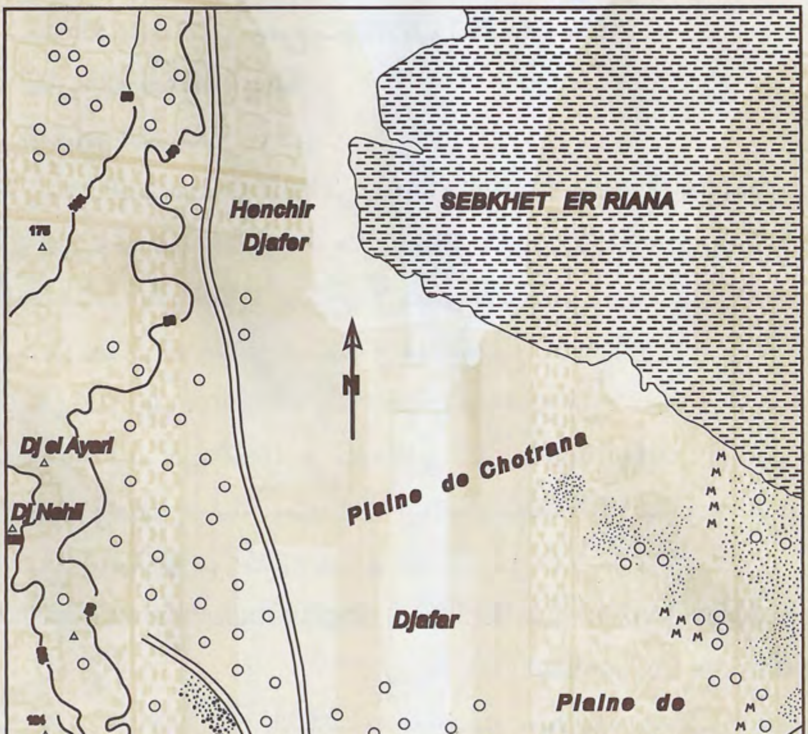
تقع مدينة أريانة في شمال العاصمة تونس في منبسط من الأرض يبلغ اثني عشر كيلومترا طولا وستّة كيلومترات عرضا. ويحدّها من الجهة الشّماليّة جبل النّحلي الذي يصل ارتفاعه مائتي متر على مستوى البحر. وتمسح هذه الضّاحية الشّماليّة للعاصمة ما بين أحد عشر ألفا وإثني عشر ألف هكتار. وتمثّل هذه الأرض في جلّها مساحة فلاحيّة سرعان ما تبدّلت بحكم الضّغط السّكّاني في العاصمة إلى أحياء سكنيّة أحلّت بلدية أريانة المرتبة الثّالثة من بين بلديّات الجمهوريّة من حيث التّوسّع العمراني والكثافة السّكّانيّة.وينتهي هذا المنبسط من جهته الشّماليّة بسبخة أريانة الّتي كان يغمرها طمي وادي مجردة وتفصلها عن البحر الكثبان الرمليّة لشاطئ روّاد كما يلتصق هذا المنبسط من جهة الجنوب ببحيرة تونس على مستوى منطقة الشّرقيّة والعوينة.ويبدأ هذا المنبسط في انحداره من مرتفعات البلفيدير ورأس الطّابية ليلتصق بجبل قمّرت المحاذي ـ هو الآخر ـ لسبخة أريانة الشّاسعة من جهتها الشّرقيّة كما يرتبط بهضبة جبل المنار ومدينة قرطاج العتيقة.

إنّ التّربة المكوّنة لهذه المساحات الفلاحيّة هي من النّوع الطينيّ الغليظ وتضمّ من 20٪ إلى 30٪ من المكوّنات الكلسيّة أو الجيريّة مّما يخفّف في بعض الأماكن تركيبتها، هذا مع إضافة جانب التّنوّع والاختلاف من جهة أخرى باعتبار بعض الفوارق في الطّبقات وإنّ ما يلاحظه بعض المحلّلين المختصّين في مختلف أنواع هذه التّربة كثافة الصّوديوم (أو المركّبات الملحيّة) في المنطقة الجنوبيّة من مدينة أريانة على مستوى المعهد الأعلى للفلاحة. وهذا يلاحظ للعين الباصرة من لون الأشجار والمزروعات التي تفقد يخضورها (La chlorophylle) بصفة تدريجيّة، ثمّ تنقلب شيئا فشيئا إلى الصّفرة.أمّا في جهة جعفر فإنّ هذه الأملاح تأخذ في التّناقص إلى الاضمحلال تماما. لذلك تصبح التّربة في هذه الجهة صالحة لزراعة الأشجار المثمرة وللزّيتون. أمّا على حدود بحيرة تونس وسبخة أريانة فانّ الأرض تصبح غير صالحة.

وإنّ ما توصّل اليه البحث فيما يتعلّق بالرّي يجعلنا على بيّنة من كمّيات الماء المتسرّبة من المنحدرات المحيطة بمنبسط أريانة من الغرب إلى الشّرق، فيزوّد المائدة المائيّة ـ وهي الموجودة بين 5 و8 أمتار عمقا ـ بمايقدّر بـ0,5 إلى حدود المتر في السّنة. وهذه المياه هي دون 3 غرامات من الملح في اللّتر الواحد ممّا يجعلها صالحة للفلاحة. وما يلاحظ أنّ الأمطار رغم قلّة ثبات أوقات نزولها في الموسم الملائم للزّراعة ـ بحسب السّنوات ـ فانها تتساقط بمقدار 425 ملّمترا في المعدّل سنويّا.وهذا يساعد المزارعين على إنتاج فلاحيّ مقبول ومتنوّع سواء في توالي إنتاج الغلال أو في تواصل محصول الخضر على كامل السّنة.

2 ـ الإطـار الإداري

تدخل مدينة أريانة في عداد البلديّات المكوّنة لإقليم تونس الكبرى الذي يضمّ على التّوالي والتّرتيب حسب عدد السّكّان، بدءا من استقلال البلاد سنة 1956 ودون اعتبار التّطوّر العمراني الذي انتهت اليه في مستهلّ الألفيّة الثّالثة:



Relief du sol et cultures

1. Jardins 2. Oliviers 3.Vignes 4.Sebkha

مثال تضريس الأرض و المزروعات

تونس المدينة (410.000 ساكن)، حلق الوادي (26.323 ساكنا)، حمّام الأنف (22.060 ساكنا)، أريانة (16.341ساكنا)، باردو (15.779 ساكنا) منّوبة، (14.780 ساكنا)، المرسى (22.514 ساكنا)، رادس(13.184 ساكنا)، قرطاج (8.232ساكنا)، بن عروس (7 2.48 ساكنا) مقرين(5.383 ساكنا)، الزّهراء (3.926ساكنا)، وسيدي أبو سعيد (3.438 ساكنا) ومجموع سكان الاقليم (94.776 ساكنا).

المكونات التاريخيّة لمدينة أريانة

اريانة في المصادر القديمة:

إنّ من يحاول استقراء المعالم الباقية من مدينة أريانة القديمة لا يهتدي إلى أدلّة ماديّة ملموسة كالنّقوش والآثار الباقية التي تؤكّد بصفة قطعيّة نشأة هذه المدينة في العهود الغابرة أو حتى في القرون الوسطى. وإنّ الشائع في أذهان النّاس أنّ أريانة مدينة حديثة قد لا يتعدّى قدمها بعض القرون. ولكنّ التّعمق في هذا الجانب تسعفه العديد من المصادر القديمة التي تبسّطت في هذا الموضوع، ومنها الأجنبيّة ومنها العربيّة.

يذكر «ليون الإفريقي» Léon L'africain ـ وهو الحسن الوزّان، جغرافيّ من مواليد غرناطة سنّة 1483، ودفين مدينة تونس سنة 1552ـ في كتابه الذي ألّفه سنة 1550 وقد نشر في باريس باللّغة اللاّتينيّة سنة 1632 بعنوان «وصف إفريقيا» ـ وصفا لمدينة أريانة،(في صفحة569) فيقول: «تحيط بها حدائق باسمة تنتج ثمارا كثيرة. ويحيط بها سور متين ويسكنها عدد كبير من الفلاّحين».

Hortis amoenissimis maximeque fructiferis, cingitur murumhabet munitissimum, agricularum maxime frequentiam,(1)

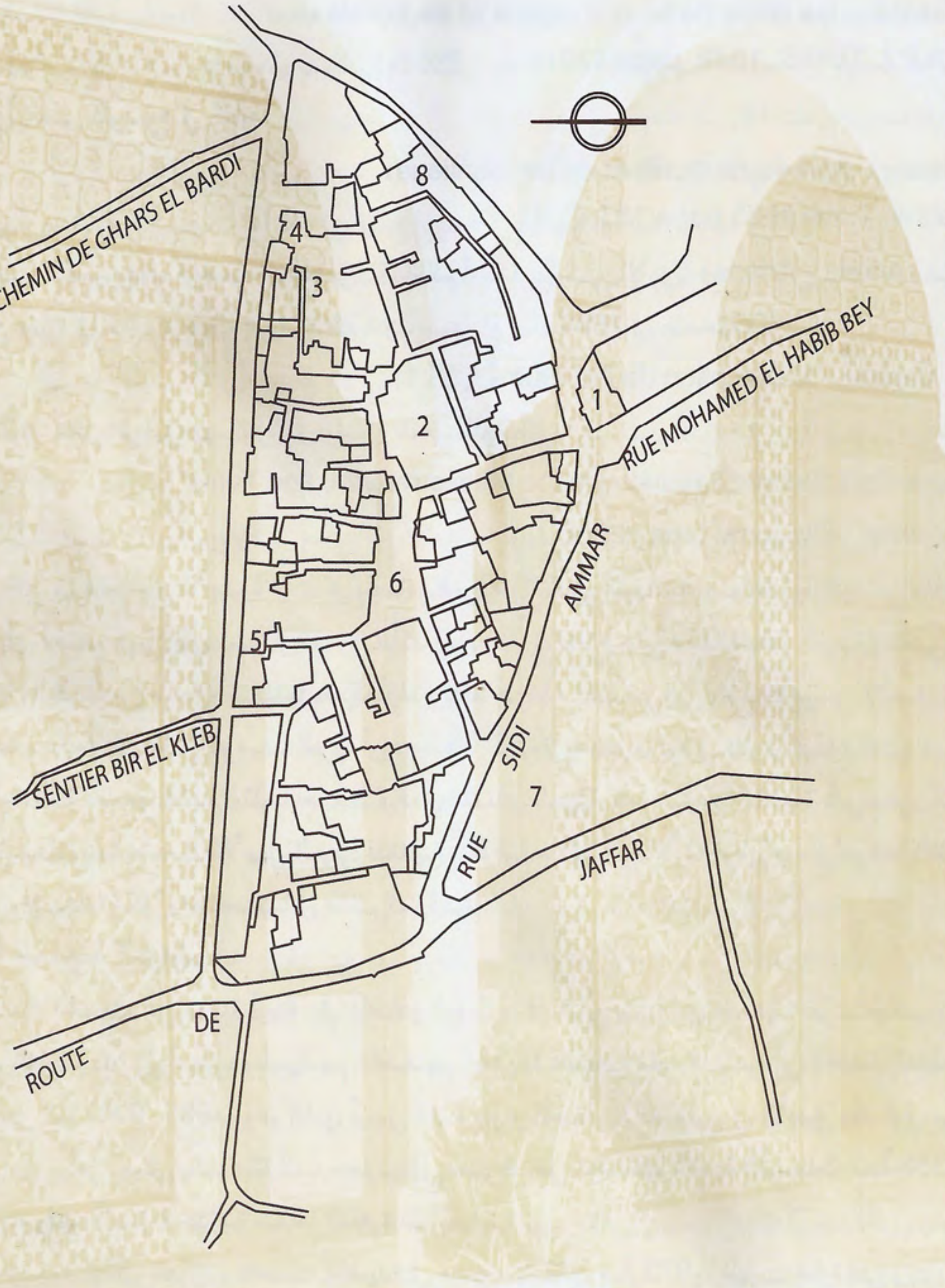
ونستنتج من هذا القول أنّ أريانة كانت مدينة حصينة يحيط بها سور متين وهي ذات نشاط فلاحي متميّز بمقتضى العدد الكبير من الفلاّحين الذين يسكنونها والإنتاج الوافر في حدائقها وخاصّة من الثّمار. وهذه شهادة مباشرة لجغرافيّ في القرن السّادس عشر.

ويؤكد «ليون الإفريقي» من جانب آخر في كتابه «وصف إفريقيا» أنّ القوط (Goths) الوندال هم الذين أسّسوا مدينة أريانة. ولسنا ندري ما هي مرجعيّته في الجزم بذلك حين يرجع تأسيس أريانة في القرن الخامس الميلادي؟ والوندال قد حكموا إفريقيّة بعد الرّومان من سنة 439 للميلاد، وهي السّنة التي امتلك فيها قائدهم «جنسريق» قاعدة البلاد قرطاجنّة، إلى انتصار القائد البيزنطي بليشار (Bélisaire) سنة 534 على آخر ملوك الوندال جليمار. فيكون قد مرّ على تأسيس أريانة حسب قوله 15 قرنا.

ونجد ذكر أريانة عند مؤرّخ آخر هو «مرمول» Marmol في كتابه «إفريقيا» وقد نقله إلى الفرنسيّة بيرو دبلنكور(Perrot d'Ablancourt) في باريس سنة 1667.فيقول في جزئه الثاني صفحة 496«أنّ نشأة أريانة هي أقدم من ذلك إذ تعود إلى العهد الرّوماني وهو أسبق من العهد الوندالي». ولكنّ المؤرّخ مرمول الذي يجعل أريانة رومانيّة النّشأة لا يقدّم دليلا على ما يقول، على غرار سابقه ليون الإفريقي.

(ترجم الكتاب إلى الفرنسية بباريس سنة 1830 تنبورال J. Temporal)

ومن الباحثين المعاصرين من ينفي الأصول العربيّة لمدينة أريانة، ويميل إلى اعتبار الإسم «أريانة» مشتقّا من الجنس الآري أي الجرماني إذ القوط أو الفندال هم شعب من ألمانيا غزوا إسبانيا، ثم شمال



Plan de l'ancien village d'El-Ariana

1._ Zaouïa de sidi Ammar
2._ Mosquée
3._ Ghariba
4._ Vestige de l'ancien aqueduc
5._ Khaloua de Sidi Mahrez
6._ Souk
7._Palais Hamadi ben Ayed
8._ Palais Ben Achour

مثال قرية أريانة القديمة

إفريقيا. ويذهب إلى هذا التّفسير «بلّقران» Pellegrin في بحثه عن أسماء الأمكنة بالجزائر وتونس:
«Essai sur les noms de lieux d'algérie et de tunisie »,
S.A.P.I. TUNIS, 1949, page 139

ويعود إلى نفس الموضوع في كتابه:
«Histoire illustrée de Tunis et de sa banlieue»
Saliba, Tunis 1955 page 163

ونجد نفس التّفسير دون مرجعيّة مدعّمة بإلحاق إسم أريانة بالجنس الأري: (Ariens - Ariana) عند كل من «دبّر» في كتابه «وصف إفريقيا» الصّادر بأمستردام سنة 1686 في صفحة 195
O. dapper :" Description de l'Afrique "

وكذلك في كتاب قرنفيل ت. تمبل: «جولة في البحر المتوسّط»
Grenville T.Temple"Excursion in the Mediterranean, and Tunis"
Londres, 1835 tome I, page 208

كلّ هذه المراجع الأجنبيّة لا تذكر المصادر العربيّة ولا تحيل عليها، بل منها ما ورد فيها نفي قطعيّ لوجود أيّ مصدر عربيّ يورد اسم أريانة. وقد تأكّد لدينا بعد الاطّلاع على هذه المصادر العربية وتقصّي ما ورد فيها والتّثبّت من صحة مضامينها بعد المقابلة والنقد أن هذه المصادر في واقع الأمر هي الأصل وما دونها عالة عليها فلا يخرج الوصف الذي أورده «ليون الإفريقي» و«مرمول» في القرن السّابع عشر لمدينة أريانة، وخاصّة لجامعها القديم وللحمّام، عمّا ورد في المصادر العربيّة كما سيتبيّن لنا فيما يأتي.وهي أقدم من كتابيهما، وإنّما يطمسان الأصل العربيّ للمدينة ويعوّضانه: فهو عند الأوّل قوطيّ ونداليّ، وعند الثّاني رومانيّ ولا دعامة لكلّ واحد منهما في ذلك كما ذكرنا.

أريانة المدينة العربيّـــة:

ورد الحديث عن مدينة أريانة، في المصادر العربيّة، منذ تولّى بنو زيري الصّنهاجيّون الحكم، بعد انتقال الفاطميّـين إلى مصر، وتأسيسهم عاصمتهم الجديدة «القاهرة المعزيّة» نسبة إلى الخليفة الفاطميّ المعزّ لدين اللّه (931 ـ 985م) وهو الذي أرسل قائده جوهر الصقلّي (الصقليي في الأصل وقد توفي سنة 992م)على رأس جيش يضمّ مائة ألف محارب إلى مصر فدخل عاصمتها القديمة الفسطاط، سنة 358 هـ / 969 م واختطّ مدينة جديدة سمّاها القاهرة المعزّيّة.

وبمجرد انتقال المعزّ إلى عاصمته الجديدة في مصر سنة 362 هـ/ 973م، ظهرت إمارة بني زيري في إفريقيّة وهم من قبيلة صنهاجة البربريّة.و عهد لأحد مخلصيه من بني زيري، وهو «بلكّين» بن زيري حكم إفريقيّة، وكنّاه بأبي الفتوح يوسف، وكان قائدا ذا رأي ثاقب وعزم ثابت. وهو الذي اختط مدينة الجزائر وكذلك مدينة مليانة وغيرها من المدن. وذكرت عديد المصادر العربيّة مدينة أريانة في سياق الحديث عن تاريخ دولة بني زيري الصّنهاجيّة، وأكّدت وجودها في جوار قرطاجنة الفينيقيّة، ووصفت بساتينها الخلاّبة الفيحاء التي تتّصل بسهول قمّرت وببحرها اللاّزوردي السّاحر.

وتحدّثت هذه المصادر القديمة عن تعيين وال صنهاجيّ على أريانة من قبل دولة بني زيري الصّنهاجيّين (بعد انتقال الفاطميّين من إفريقيّة إلى مصر)وذلك عندما كان يقيم في أريانة الشّيخ الورع الصّالح «محرز بن خلف» المتوفّى سنة (413 هـ / 1022م) وكانت وقعت له مع هذا الوالي الصّنهاجي حادثة سنوردها عند الحديث عنه.

ما معنى أريانة في هذه التسمية العربيّة؟

ورد في مرجعين هامّين، هما «مناقب أبي الحسن الجبنياني» وهو من تأليف أبي القاسم اللّبيدي، و«مناقب محرز بن خلف» وهو من تأليف أبي الطّاهر الفارسي ـ وقد اعتمدهما هادي روجي إدريس في أطروحته التّكميليّة لدكتورا الدّولة وقد طبعت في تونس سنة 1959 ـ، كما ورد في كتاب «السّير» لأبي العبّاس أحمد الشّمّاخي (المتوفّى سنة 928 هـ/ 1522م) أنّ مدينة أريانة تستمدّ اسمها من قبيلة «أريان»الإباضيّة التي كانت تسكنها. وهذه الفرقة تميميّة من أصول يمنيّة أعطت اسمها لهذا المكان ولهذه المجموعة السّكانيّة التي كانت تقطن بها.

ولعل هذا يعود إلى القرن الثّالث للهجرة، أي القرن التّاسع الميلادي، أي في بداية نشأة الدّولة الأغلبيّة أو قبلها في عهد الولاة المهلّبيّين والأغالبة وهم أيضًا من تميم أي من عرب الجنوب. والإباضيّة ينتسبون إلى عبد اللّه أباض المقاعسي المرّي التّميمي المتوفّى سنة 86 هـ/ 705م) وهو رأسهم وإليه نسبتهم وقد عاصر معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأمّوي الأوّل وعبد الملك بن مروان. وأخبار الإباضيّين كثيرة في القديم والحديث. ولايزال مذهبهم منتشرا في جزيرة جربة بتونس وفي الجزائر بوادي ميزاب وفي جنوب اليمن وخاصة في سلطنة عمان ولهم فيها الإمامة والسّيادة. وهم يعيشون على وتيرة منظّمة وتقاليد عريقة. ولا تحكم بينهم محاكم الدّولة. وإذا ماطل مدين دائنه دخل الدّائن المسجد وأعلن ذلك. وحينئذ يقاطع النّاس المدين ولايسلّمون عليه ولا يعاملونه حتى يوفي ماعليه. وفي جنوب الجزائر لهم في كل بلد مجلس يسمّى «مجلس العزابة» وهو جمع عازب. ويعنون به من انقطع للعلم والدّين عزوبا عن الدّنيا. ويتألّف المجلس من نحو عشرة أشخاص يجتمعون في مجلس البلد ويفصلون بين المتقاضين ابتعادا عن الرّجوع إلى المحاكم غير الإسلاميّة (وهي فرنسيّة زمن الحماية). ومن أبى حكمهم أعلنوا البراءة منه فيقاطع حتّى يردّ الحقّ ويتوب.

ونحن نعلم أنّ إسم أريان مازال موجودا في اليمن، بل توجد مدينة في جنوب عاصمة الجمهورية اليمنيّة صنعاء تسمّى إريان وإليها تنسب العديد من الشّخصيّات العلميّة والسّياسيّة قديما وحديثا. فيقال «فلان الإرياني، نسبة إليها». ورجعنا إلى كتاب «الموسوعة اليمنية «من تأليف مجموعة من الباحثين يعرّفون فيه بمدن اليمن ومواقعها وأصول سكّانها. وجاء فيه «إريان» (بكسر الهمزة وسكون الرّاء آخرها نون) قرية في رأس جبل بني سيف الذي يرتفع عن سطح البحر نحو ألفي متر في فضاء يزيد على مسافة 155 كلمترا جنوبا من صنعاء. وهي من أجمل القرى اليمنيّة وأعدلها هواء. وتسمّى كشك اليمن (وهوشبه رواق بارز عن بقيّة البيت) لإشرافها على بلاد اليمن وغيره. وتحيط بها الأودية كشيعان وهبران وعبدان وغيرها.

وفيها القضاة الأعلام النّبلاء الفضلاء الأدباء آل الإرياني. وبيتهم من البيوت المعمورة بالعلماء والأدباء منذ قرون. ولعلّ جدّهم الصدّيق بن محمد خرج من العراق وسكنها في نحو القرن الثّامن للهجرة. وفي أهل هذا البيت من العلماء الكملاء الأدباء في هذا القرن العدد الكثير».

واستنتاجا بما ذكرنا فان السكّان المؤسسين قد جاؤوا من إريان اليمنيّة وأنشؤوا مدينة أريانة التّونسيّة وأعطوها اسم قبيلتهم. وبذلك تكون تسمية أريانة تسمية عربيّة أصيلة. وتتأكّد لنا التّسمية العربيّة لمدينة أريانة بعدّة قرائن تاريخيّة وباثبات كثير من المصادر القديمة. ونحلّلها فيما يلي: لقد قلنا إنّ النّسب القديم للسّكّان العرب المؤسّسين لأريانة يرجع إلى جدّهم الصدّيق بن محمد كما ورد ذلك في كتاب الموسوعة اليمنيّة. وسكّان إريان باليمن مازالوا ينعتون إلى اليوم بسلالة الصدّيق ونجد هذه النّسبة للجدّ الأوّل في إسم الشّيخ محرز بن خلف سلطان مدينة تونس كما يلقبّه عامّة النّاس تبرّكا به وإجلالا لفضائله، وهو من أبناء مدينة أريانة، وكان ميلاده فيها حوالي سنة 348 للهجرة الموافق لـ975 للميلاد، فيقول كلّ من ترجم له أنه محرز بن خلف الصدّيقي. ولعلّ هذه النّسبة هي قرينة أخرى تؤكّد أنّ الشّيخ محرز، وهو ابن مدينة أريانة التّونسيّة مولدا ونشأة كما ذكرنا، هو بحقّ سليل هذا الجدّ اليمني الصدّيق بن محمّد لذلك يكنّى ككلّ علماء مدينة إريان اليمنيّة بالصدّيقي. وإن صحّت هذه النّسبة اليمنيّة للشّيخ محرز بن خلف، ولا نرى الأمر إلاّ كذلك، فانّ بها تبطل نسبة هذا الوليّ الصّالح إلى أبي بكر الصدّيق حسب ما ذهب إلى ذلك من ترجم له من التّونسيّين ومن بينهم حسن حسني عبد الوهّاب في كتاب «مجمل الأدب التّونسي» وتبعه في ذلك الشّيخ الشّاذلي النّيفر في محاضرته التي ألقاها في النّدوة التي نظّمتها وزارة الشؤون الدّينيّة في جانفي 1994 بعنوان: «الإمام محرز بن خلف رائد التّسامح ومقاومة التّطرّف» وقد جمعت كلّ محاضراتها في الكتاب السّادس من سلسلة آفاق إسلاميّة. هذا وإنّنا لا نعرف في كتب التّراجم من ينتسب إلى أبي بكر الصدّيق وكان قد دخل إفريقيّة أو بلاد المغرب مع الفاتحين أو الولاة الذين تداولوا الحكم في هذه البلاد.

والمذهب الإباضي لقبيلة إريان المؤسّسة لمدينة أريانة التّونسيّة هو مذهب واسع الانتشار في اليمن وفي سلطنة عمان،وهو المذهب الرّسميّ للدّولة ولعامّة السّكّان اليوم في هذه الرّبوع.

وإن كلّ القرائن التّاريخيّة التي تعرّضنا لبعضها تؤكّد أنّ مدينة أريانة التّونسيّة نشأت من حيث اسمها وعمرانها نشأة عربيّة. ويثبت ذلك أيضًا ابن ناجي في الجزء الرّابع من كتابه «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان»(طبعة تونس 1330 هـ في الصفحات21-27)

وزيادة منا في التّثبتّ من الأصل العربيّ لكلمة أريان وفي اشتقاقها اللّغويّ رجعنا إلى«لسان العرب» لابن منظور وتأكّدنا أنّها كلمة عربيّة فصيحة. فمن جملة ما جاء في هذا المعجم اللّغويّ وهو مرجع ثابت في جزئه الثّالث عشر من طبع دار صادر ببيروت في الصّفحة السّادسة عشرة:

«وذكر ابن الأثير في حديث عبد الرّحمان النّخعي: «لو كان رأي النّاس مثل رأيك ما أدّي الأريان - وهو الخراج والإتاوة» قال الخطّابي: الأشبه بكلام العرب أن يكون الأربان (بضمّ الهمزة والباء المعجمة بواحدة)، وهو الزّيادة على الحقّ يقال فيه أربان فان كانت معجمة باثنتين الأريان فهو من التّأرية لأنّه شيء قرّر على النّاس.

والمعنى الغالب لكلمة الأريان في كلّ ما تقدّم إنّما هو الفضل والزّيادة وهو المعنى التّوفيقي لجميع المفاهيم التي عرضها ابن منظور في معجم «لسان العرب». أمّا إذا توسّعنا في مدلول الفضل في الحيّز الأخلاقي فهو كلّ شيء موصوف بالحمد والاستحسان. وإذا مدّدنا هذا المفهوم على السّلوك الخلقيّ لمؤسّسي مدينة أريانة كما وصفته المراجع القديمة، وإذا اعتبرنا أنّ إسم مدينة أريانة مشتقّ من الأريان،فيكون سكّان أريانة هم أصحاب الفضل، وهي مدينة الفضل أو «المدينة الفاضلة» حسب عبارة الفيلسوف العربيّ أبي النّصر الفارابـي (378 ـ 950م) لما لها من اكتمال الصّفات ـ طبيعة وهواء ورغد عيش ـ فيلقى فيها ساكنوها ما يلقاه أهل الجنّة في فردوس النّعيم من السّعادة وهدوء نفس ولذّة حياة وصحّة أبدان وراحة بال. هذا فيما يتعلّق بالجوانب المادّيّة.

أمّا فيما يخصّ النّقاوة الرّوحيّة التي تحدّثت عنها المصادر القديمة التي تتعرّض لتاريخ الإباضيّة أمثال «كتاب السير» للشمّاخي أو «كتاب الطّبقات» لمحمّد بن زكريّا الباروني أو كتاب «الكشف والبيان» لمحمّد بن سعيد القلهاتي فانها تظهر فيما وصلنا من الأخبار عن سلوكهم وتعاملهم في حياتهم الاجتماعيّة ومقاومتهم للفساد في كلّ مظاهره، وبثّهم للكلمة الطيّبة والتّسامح مع الأقلّيات وردّ الظّلم والدّعوة إلى التّضامن بين النّاس وإعانة المنكوبين والضّعفاء منهم، وهي خلال وصفات حميدة توارثوها جيلا بعد جيل ويتوقون بها إلى توحيد طبقات المجتمع وتمتين التّضامن بين أفرادها.

لذلك كان سلوكهم ينزع إلى الأخلاق التّوفيقيّة ونبذ التّصدّع والانقسام قصد إنشاء الأمّة المثاليّة في «المدينة الفاضلة». ومن هنا جاءت تسمية أريانة المشتقّة من اسمهم لأنّهم يبحثون عن تأسيس هذه المثاليّة الخلقيّة بارساء أسس سلوك أمثل في التّعامل وطريقة العيش ونمط الحياة.

إنّ هذه الاستنتاجات قد أوصلتنا إلى تحديد اسم أريانة العربيّة باستقراء المصادرالعربيّة القديمة وبجمع شتات القرائن التّاريخيّة التي لا يمكن بأيّة حال أنّ تتسنّى للباحثين الأجانب أن يهتدوا إليها كما أسلفنا ذكر نظرتهم وعرض تحليلهم. وإنّ ما جعلنا نتعمّق في بحث هذا الموضوع والبت فيه إنّما التّعليل الضّعيف والسّطحيّ فيما وجدناه معروضا عند من بسطه من المؤلّفين الأجانب قديما وحديثا.ورجاؤنا أن نكون قد وفّقنا في تقديم بحث منطقيّ ومتماسك العناصر اعتمدنا فيه مصادر ووثائق اعتبرناها جديرة بالعناية والاعتبار، ووجدنا فيها الدّعامة الفضلى لإعطاء هذا الموضوع حقّه من التّدقيق والشّمول. وما هذا العمل إلاّ مقاربة علميّة حسب منهجيّة دقيقة المراحل نرجو أن تكون لبنة أولى لبحث يكون أكثر تعمّقا يتولّى القيام به ذوو العزائم الصّادقة مـمّن يتوقون للأفضل بنزاهة ونقاوة طويّة.

من هم سكّان أريانة من الأصول إلى اليوم:

إنّ العديد من المصادر التّاريخيّة التي عدنا إليها قصد تحديد نوع السّكّان الذين عمّروا مدينة أريانة لا تقدّم توضيحا دقيقا في هذا المضمار عدا التّعرّض إلى سيرة المدينة في نشأتها وتقديم بعض الإشارات التّاريخيّة عن النّابهين من رجالاتها ممّا ساعدنا على توضيح بعض الجوانب المتعلّقة بضبط مفهوم التّسمية والأدوار التي قامت بها أريانة في مواعيد محدّدة من تاريخها المديد. وقد عرضنا لبعض ذلك فيما سبق وسنقدّم تفصيلا أكثر تركيزا وتوسّعا بمرجعيّاته المحدّدة فيما سياتي من فصول الكتاب في القسم التّاريخيّ منه.

أمّا فيما يتعلّق بأصول سكّان أريانة ومأتاهم ونوعيّتهم من حيث الأسر والوظائف والأعمال التي قاموا بها فيما توضّح لنا من تاريخ مدينة أريانة فقد أفدنا إفادة كبيرة من مرجع حديث تمثّل في بحث جامعيّ تقدّم به السيّد جاك طيّب لنيل شهادة الدّراسات العليا في الجغرافيا بإشراف الأستاذ جاندي بوا من جامعة السّربون بباريس، ونوقش في تونس في شهر جوان سنة 1960 تحت عنوان «أريانة إحدى ضواحي تونس». وتبيّن لنا من هذا المرجع الهامّ المتمثّل في دراسة جادّة ومركّزة رغم اختصار مضامينها وإيجاز محتواها أنّ تحديد أصول سكّان مدينة أريانة لا يمكن أن يتعدّى القرن السّابع عشر رغم أنّ نشأة المدينة ضاربة الجذور في قدمها في أعماق التّاريخ. وقد يكون قد مضى على تأسيسها أكثر من ألف سنة، أي في حدود القرن الثّالث الهجري الموافق للقرن التّاسع الميلادي. يقول جاك طيّب في تحليله لأصول سكّان أريانة: «تضاف إلى سكّان أريانة القروييّن الضّاربة أصولهم في أعماق القرون الوسطى جالية أندلسيّة انضمّت إليهم في أوائل القرن السّابع عشر». ويتطرق بعد ذلك إلى ذكر أسماء بعض الأسر التي لا تزال تعرف إلى الآن



بعض شيوخ أريانة في مقهى السوق

بانتمائها الأندلسيّ. ونذكر من بين هذه الأسر مرياح وبلغيث، كما نذكر من أسماء الأسر القديمة الأخرى: العبّاسي، عبداللّه، عبد النّبي، موسى عبد الرّحيم، عريوشي، عيّاد، بركات، ابن جابر، بلّيل، الشّريف، فليس، حمدانة، حميّد، جمعة، المدّب، محيسن، سنان، سلامة، زواغي. ويثبت صاحب البحث أنّه يعسر التّأكيد من بين هذه العائلات من هي أندلسيّة الأصل في حقيقة أمرها أم من هي دون ذلك. ويقف الأصل في حدود الادّعاء دون مبرّر صحيح. وتوجد بعض الافتراضات،من ذلك أنّ في عائلة عيّاد على سبيل المثال من يكنّى صنديد ولعلّه من أصل كلمة صنديدو ذات الإيقاع الإسباني الأندلسي. أمّا عائلة سلامة فلعلّها من أصل يهوديّ قد اعتنق أجدادها الإسلام في زمن قديم غير محدّد.

وتنقل لنا الحافظة الشّعبيّة أسماء بعض الأسر التي انضمّت إلى سكّان أريانة في مراحل قريبة

وحديثة. ففي نهاية القرن الثّامن عشر وبداية القرن التّاسع عشر وهو التّاريخ الذي بدأت فيه أريانة وظيفتها المستحدثة كمدينة للنّزهة وفد إليها سكّان جدد استطابوا الإقامة فيها. وقد جاؤوا إليها من جهات مختلفة نذكرمن سكّان جربة عائلات اللّمسي والجربي وحجيّج، ومن الأندلسيّين ممّن نزحوا من بنزرت كعائلة البنزرتي وبعض الجزائريّين من مدينة خنشلة عائلات قنونة وعبيد وعبّود، ومن المغرب الأقصى نذكر عائلات الغربي والمرابط ومسكي، ومن القطر اللّيبي عائلة ابن ميلاد.

ونزح إلى أريانة بعد هذه العائلات الجديدة التي انضمّت إلى الرّصيد القديم من سكّان القرية الفلاحيّة كنواة سكّانيّة أولى جموع قرويّة أخرى تنتمي إلى قبائل ريفيّة شبه مستقرة منها اللّيبيّة ومنها الجزائريّة من منطقة الأوراس وكان مستقرهم على هضاب تشرف على أريانة وتحيط بها كتلك التي توجد بجهة برج تركي.

وفي أواخر القرن التّاسع عشر بدأت بعض الأسر الأرستقراطيّة من العاصمة تستقرّ بصفة دائمة في اريانة بعدما كانت تؤمّها في مرابعها أو اصطيافها، ونذكر بعضها: عائلات بوسن وحدّاد وعبّاس والزّواري وشعيّب والسّنوسي وجمال والمستيري. ويضاف إلى هؤلاء السكّان الجدد في بداية القرن العشرين عدد هامّ من العمّال الفلاّحين من أولاد عيّار وكان النّشاط الفلاحي في غابة الزيتون يحتاج إلى سواعدهم.وباعتبار هذا التنوّع السكّاني وأفواجه القادمة إلى أريانة من كل الجهات فان الإحصائيات تقدّر عدد المتساكنين فيها بألف نسمة أو أكثر بقليل، وذلك قبيل الحرب العالميّة الأولى (1914 ـ 1918)

يؤكّد جاك طيّب في المرجع السّابق أنّ بعض العائلات اليهوديّة قد استقرّت في أريانة منذ منتصف القرن الثّامن عشر. فمنهم من يلقّبون بجورنو وقد نزحوا من الجزائر وكانوا يشتغلون بصناعة الأحذية، ومنهم باعة متنقّلون يحملون بضاعتهم البسيطة على ظهور الأحمرة ويتجوّلون بها في البوادي بجهة وادي مجردة.

وتتضخّم هذه المجموعة اليهوديّة الأولى بقدوم أسر من العاصمة في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر. ومن الأسماء نذكر شطبون وبجاوي وكسكاس وبشموط. وحوالي سنة 1900 تنضمّ إليها عائلات بونان وفيورنتينو وبنعطّار وبورجل وكسراوي وشيالوم. وتعدادهم جميعا قبيل الحرب العاليمة الأولى يتراوح من 250 إلى 300 نسمة.

وتفيدنا الإحصائيّات السّكّانية لتحديد عدد الأوروبيّين بما يلي: 173 نسمة سنة 1906، و135 سنة 1911. وفي هذه السنة يوزّعون على سبيل المثال كما يلي: 84 فرنسيّا و37 إيطاليّا و13 بريطانيّا وواحد من غير هذه الجنسيّات. وضمّ هذا التّعداد اليهود الإيطاليّين كأسرة فيورنتينو أو البريطانيّين أمثال ابن عطّار أو الكسراوي الذين قدموا من جبل طارق،وهي مقاطعة تخضع للهيمنة البريطانيّة. ومهما يكن من أمر فان عدد سكّان أريانة قبيل الحرب العالميّة الأولى لا يتجاوز 1500 نسمة.

ويمكن الرّجوع إلى الجدول الخاصّ بضبط التّنوّع السّكّاني حسب الجنسيّات والانتماءات الاجتماعيّة من مسلمين ويهود وغيرهم. وهو يمثل ملخّص الاستنتاجات للتّعداد السكّاني في سنوات 1926 و1931 و1936 و1946 وفي 1956 وهي سنة استقلال البلاد التّونسيّة وفيها وقع تحوّل جذريّ في التّركيبة السّكّانية لجميع المدن وخاصّة مدينة أريانة كضاحية مفضّلة لمدينة تونس العاصمة. وقد تغيّرت

صبغتها كمنتزه لسكّان تونس في فترتي الرّبيع والصّيف إلى موطن سكنيّ قارّ طيلة السّنة.

ومن سنة 1956 تاريخ الاستقلال تعدّدت الأحياء السّكّانيّة وامتدّت رقعتها على حساب المناطق الفلاحيّة والبساتين خاصّة في الجهة الشّماليّة والغربيّة.

وبالاعتماد على دراسة جاك طيّب نذكر أن سكّان أريانة من اليهود يصل إلى 1169 نسمة في سنة 1926. ومن اليهود من تجنّس بالجنسيّة الفرنسيّة أو البريطانيّة. وبهذه الصّفة يصل عدد اليهود الأريانيّين إلى 1250 أو 1300 نسمة، أي بين أربع أو خمس مرّات عددهم قبيل الحرب العالميّة الأولى. وتعود هذه الزّيادة لا إلى الولادات وتزايد المجموعة بصفة طبيعيّة وإنّما يرجع ذلك إلى نزوح عائلات بأكملها قبل الحرب العالميّة الثّانية بقليل من حيّ الحارة بتونس العاصمة. وقد استطابوا الإقامة في أريانة مع مواصلة أعمالهم وأشغالهم فيما كانوا يقومون به في العاصمة. ونشأت بذلك حركيّة مضاعفة في التّنقّل بين أريانة


بيعة الغريبة بأريانة (بالقرن الثامن عشر)

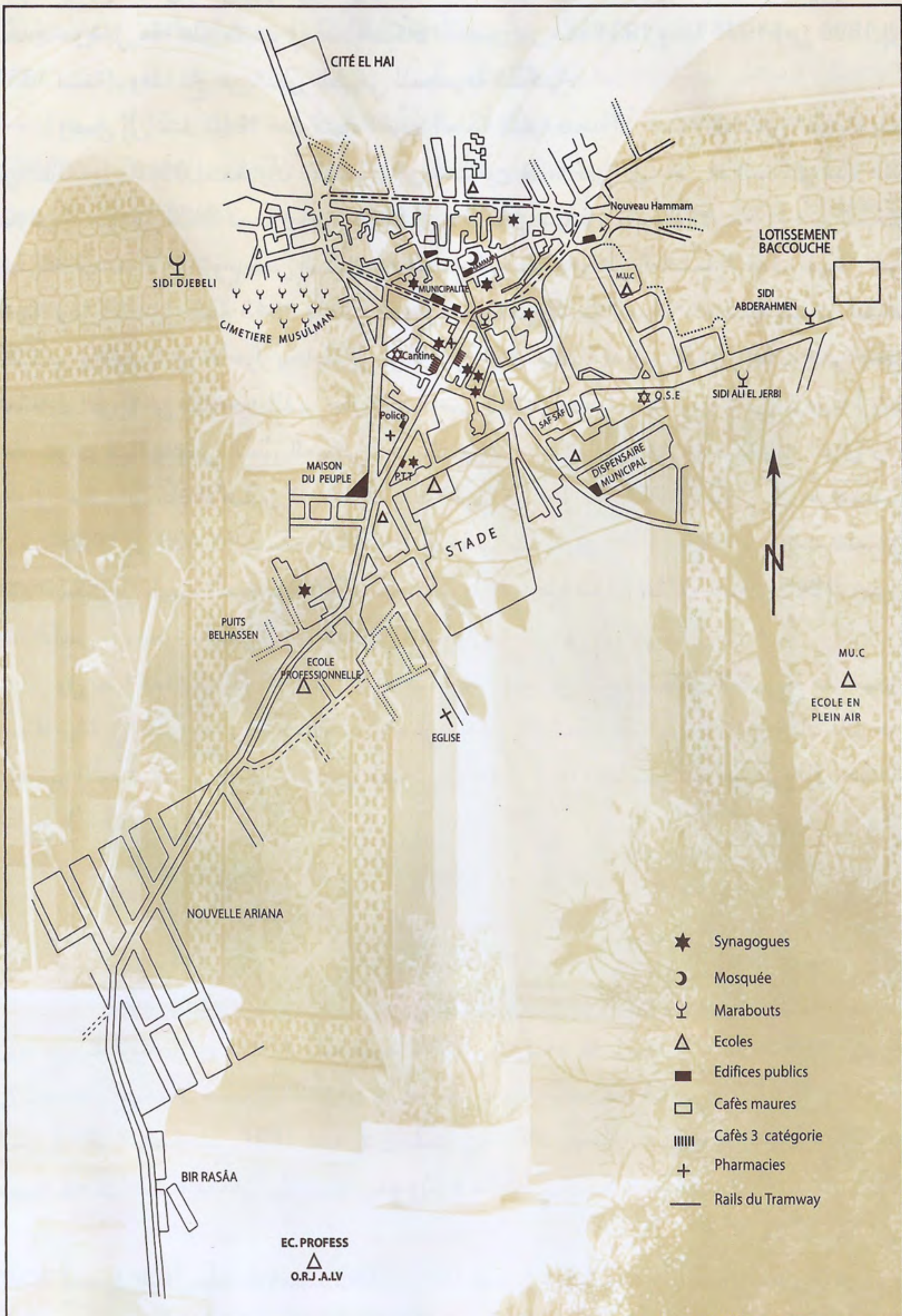
وتونس. ونلاحظ أن عدد اليهود قد وصل إلى 2637 نسمة سنة 1931. وإذا اعتبرنا اليهود ذوي الجنسيّات الفرنسيّة والإيطاليّة والبريطانيّة فان عددهم يصبح قرابة 3000 نسمة، وهوضعف عددهم في سنة 1926 أو أكثر. ويقابل هذا العدد 1800 من المسلمين في سنة 1931 بعدما كان 1927 في سنة 1926. ونستنتج من هذا التّعداد السّكّاني أنّ ظاهرة النّزوح من تونس إلى أريانة قد استفحلت عند اليهود بين سنتي 1926 و1931.

وممّا يجلب الانتباه أنّ عدد اليهود في سنة 1931 (2637 نسمة) قد تقلّص قليلا في سنة 1936 إذ بلغ 2619. ويفسّر هذا التّدنّي بين إحصاء وآخر للسّكّان بما يلي: إنّ عدد الفرنسيّين ارتقى من 336 إلى 584 نسمة على حساب تدنّي عدد اليهود، وذلك أنّ عدد الفرنسيّين قد تضاعف في مدّة خمس

سنوات بسبب تجنّس بعض يهود أريانة. وتحدث عندئذ المعادلة بين الجنسيّتين دون دخول نازحين جدد للمدينة. ويقابل هذا تطوّر طفيف في عدد السكّان المسلمين بين سنة 1931 وسنة 1936 (من 1800 إلى 1832 نسمة). وهذا ناتج عن التّطوّر الطّبيعي للمجموعة السّكنيّة.

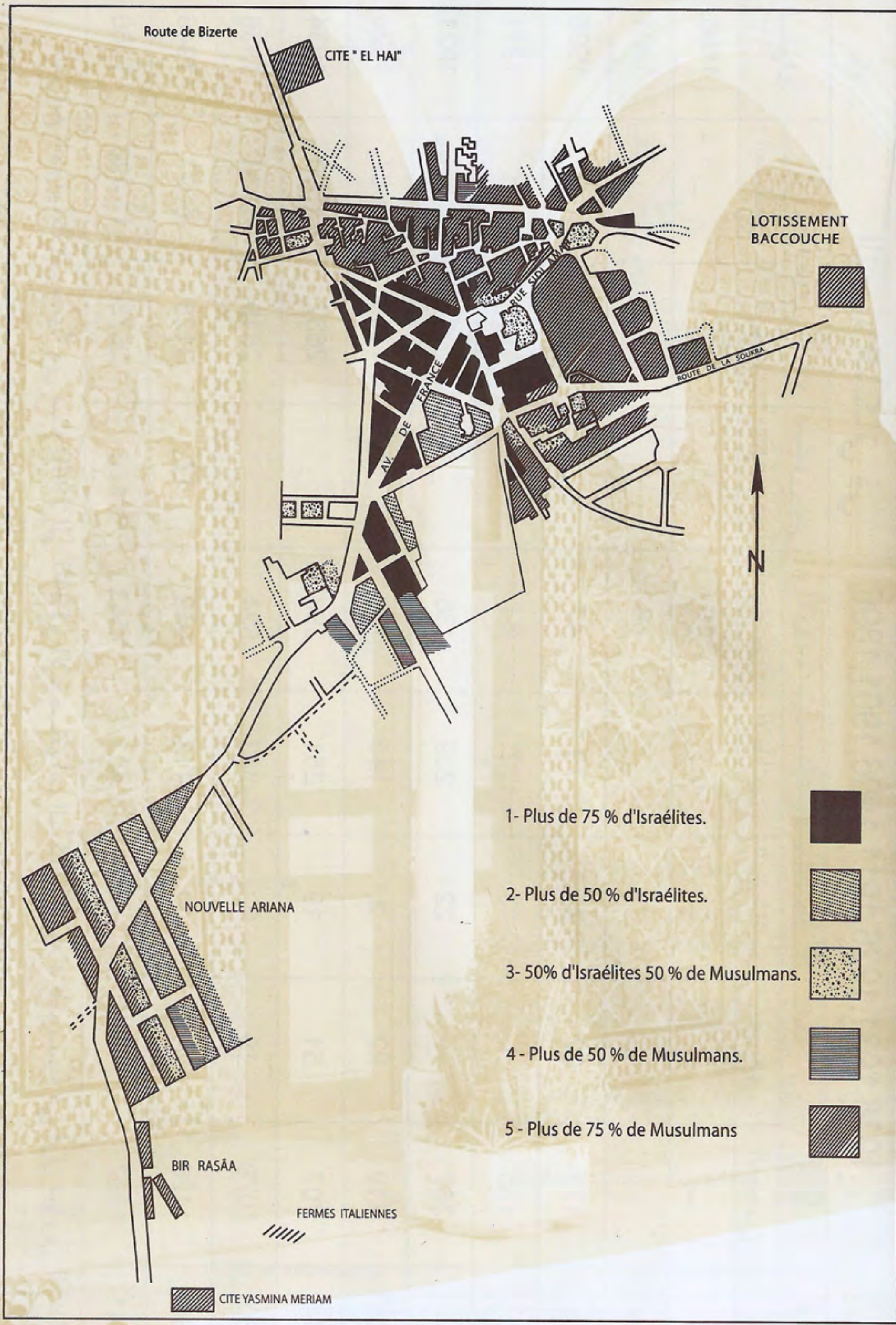
ونصل إلى سنة 1946 عند انتهاء الحرب العالميّة الثّانية فنجد أنّ المجموع السكّاني للمدينة يقفز من 5530 إلى 9668 نسمة، وأنّ للتّونسيّين من المسلمين ضلعا كبيرا في مضاعفة العدد في مدّة عشر سنوات إذ مرّوا من 1832 نسمة في سنة 1936 إلى 5091 في سنة 1946. وإنّ الارتفاع في عدد السّكّان تفسّره ظاهرتان: الأولى نزوح بعض السّكّان من الطبقة المتوسّطة جاؤوا من العاصمة إثر قذف جيوش المحور مدينة تونس بالقنابل سنة 1943 والثانية خروج سكان من المدينة العتيقة بالعاصمة بسبب الضّغط السّكّاني والالتجاء إلى الأحواز وخاصّة إلى أريانة التي كانت مفضّلة لديهم. هذا إلى جانب هجرة بعض العائلات القرويّة من الفلاّحين الذين جاؤوا من أقاصي البلاد وأحاطوا مدينة أريانة بأحياء قزديريّة أزيلت منذ سنوات قليلة بمقتضى التّطوّر العمراني الحديث. ويقدّر عدد القادمين من العاصمة ومن القرى بحوالي نصف السّكّان الأصليّين لمدينة أريانة بعيد الحرب.وتواصل هذا التّطوّر السّكّاني في اطّراد ليصل في سنة 1956 إلى 11.490 نسمة. وممّا يلاحظ أنّ هذه العشريّة بين 1946 و1956 قد عرفت تقلّصا في عدد السّكّان من اليهود فأصبحوا 2678 نسمة مقابل ما كانوا عليه سابقا: 3128 نسمة في 1946. ويعزى هذا النّقص إلى هجرة الخمس من عددهم إلى فرنسا وأربعة أخماس إلى إسرائيل.

وفي نهاية هذه العشريّة التي كانت خاتمة لمدّة أربعين سنة من النّموّ السّكّاني الكبير بلغ عدد سكّان مدينة أريانة في تطوّره عشر مرّات العدد الأصلي، ومثّل التّونسيّون المسلمون الثّلثين وكان للنازحين النّصيب الأوفر منهم إلى جانب الفلاّحين القدامى في حقول أريانة وبساتينها التي لم يغيّرها إلى حدّ هذا التّاريخ الزّحف العمراني.



Répatition de l'équipement urbain

توزيع التجهيز الحضري



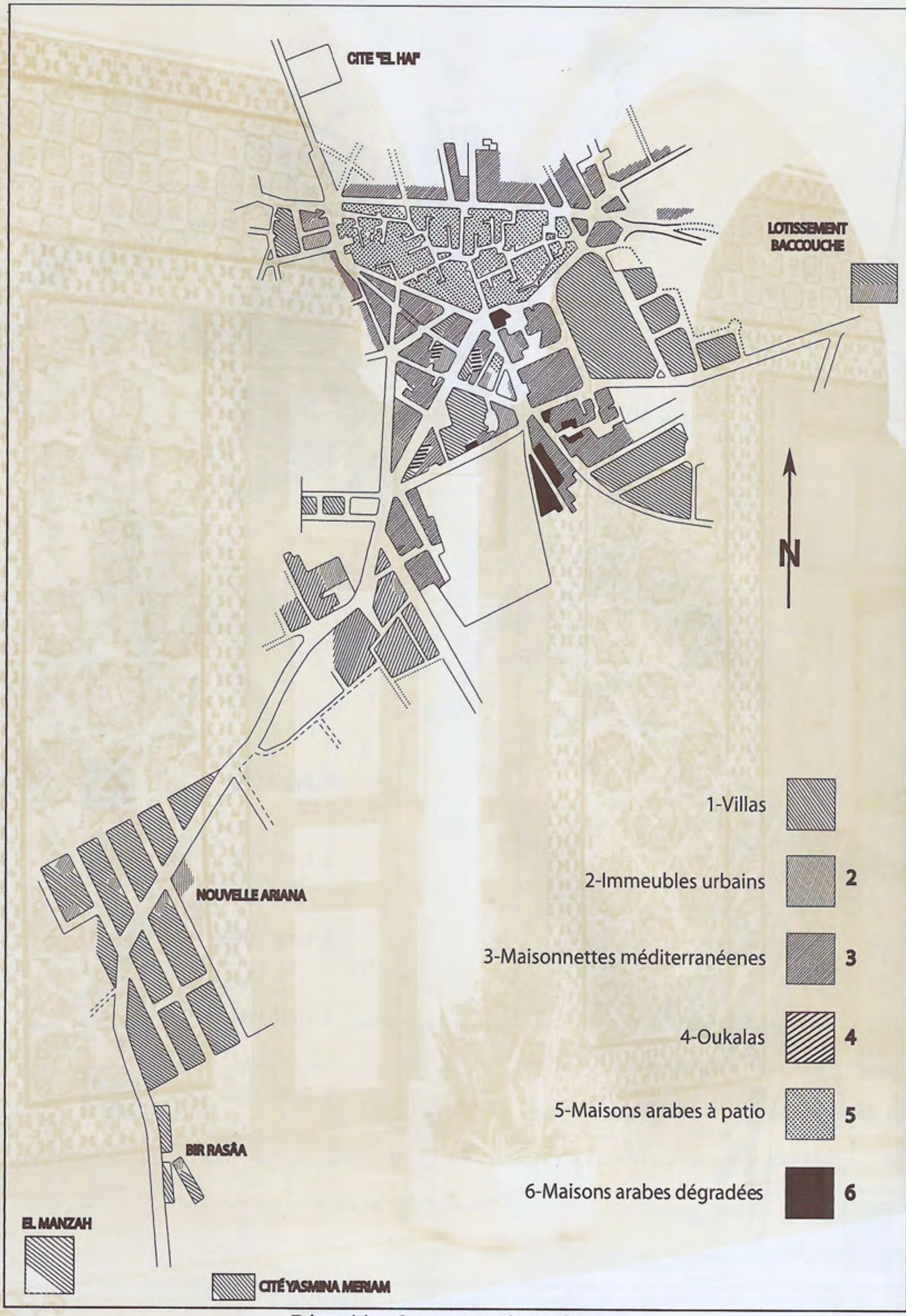
Répartition territoriale des éléments de la population

توزيع ميداني للعناصر السّكانية

التعداد السّكّاني في 1936,1931,1926,1911,1906,1901,1896.

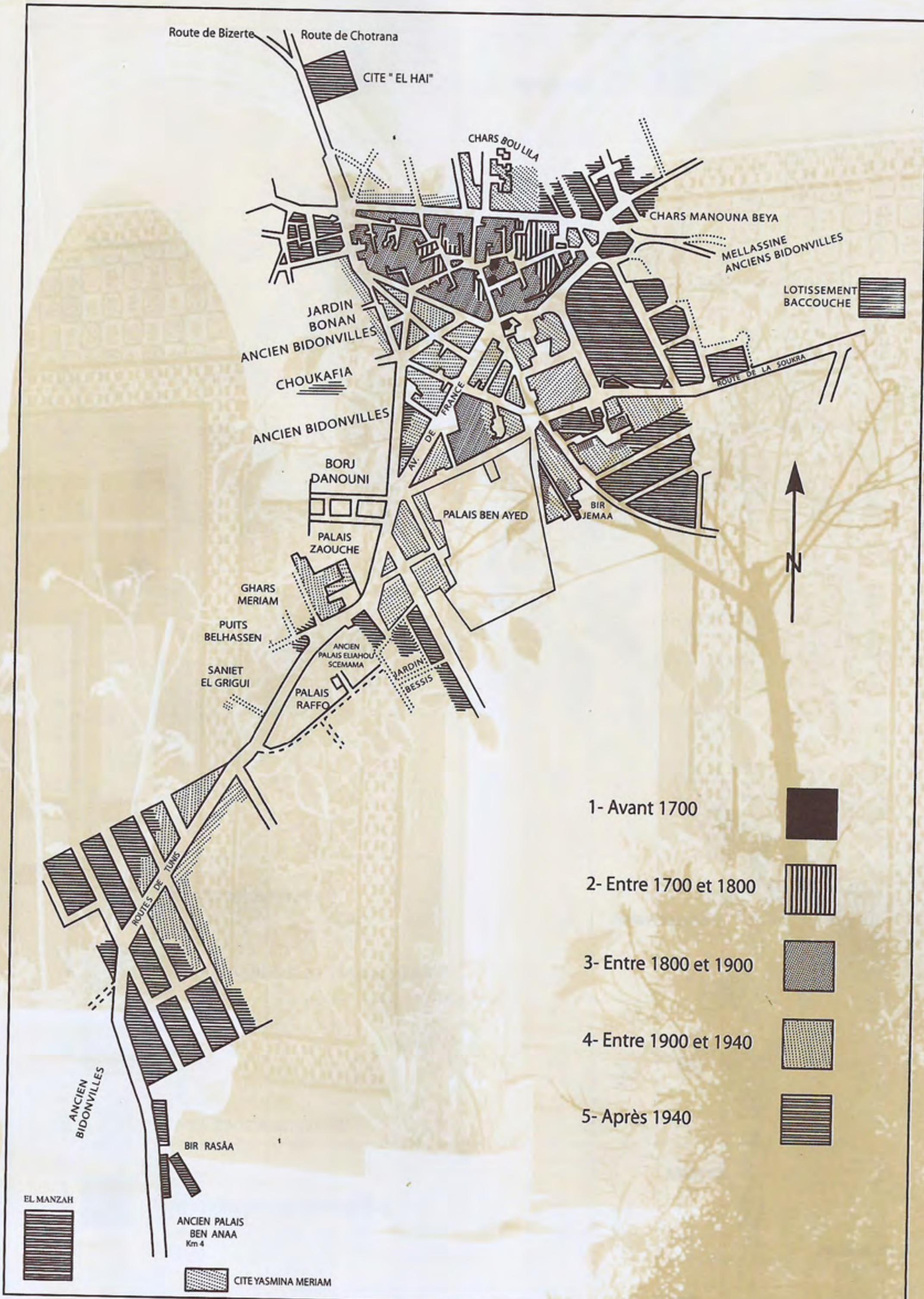
السنوات	تونسيّون		مسلمون غير تونسيّين	الأوروبيّون					المجموع العام
	المسلمون	اليهود		الفرنسيّون	الإطاليّون	البريطانيّون	غيرهم	المجموع	
1896	_	_	_	19	_	_	_	_	_
1901	_	_	_	68	_	_	_	_	_
1906	_	_	_	47	79	25	22	173	_
1911	_	_	_	84	37	13	1	135	_
1921	_	_	_	136	209	22	_	367	_
1926	1627	1169	_	150	145	2	22	319	3.115
1934	1800	2637	_	386	251	19	51	707	5.144
1936	1832	2619	_	524	383	93	19	1079	5.530
1946	5097	3128	17	949	418	40	19	1426	9.668
1956	11.490	2678	186	1543	401	_	43	1987	16.341

المرجع الحوليات التّونسيّة من سنة 1940 إلى 1946و الإحصائيّات السّكانية للبلاد التّونسيّة في أول فيفري 1956



Répartition des constructions selon le type

توزيع المباني حسب الأنماط



Répartition des constructions selon l'âge

توزيع المباني حسب الأعمار



اريـانة ونشأتـها العربيّـة

(في نضالها تحت راية السّنة السّمحة)

أريانة، اسم ترتاح لذكره الأسماع، وتستلذّه الألسن عند النطق به، ولكنّ معناه بقي سرّا في مطاوي التّاريخ. ولم تبح المصادر القديمة بهذا الاسم إلاّ نغما رقيقا، لطيفا، متموّجا عبر العصور،مختالا اختيال شذى ورد أريانة بين بساتينها البهيجة في أزهى أيّام الرّبيع.

ونظفر ببعض هذا العبير يسري خلسة بين طيّات كتاب «مناقب أبي الحسن الجبنياني» المتوفى سنة (369 هـ/ 979م)، و«كتـاب مناقب محـرز بن خلف» المتوفّـى سنـة (413 هـ / 1022م)، وكذلك «كتاب السّير» لـ«أبي العبّاس أحمد الشّمّاخي» المتوفّى سنة(928 هـ / 1522م).

فجميع هذه المصادر تؤكّد أنّ أريانة هو إسم له معناه وهو مشتقّ من اسم فرقة أريان الإباضيّة اليمنيّة الأصل. وهي التي أنشأت هذه المدينة وحصّنت مساكنها فيها وأعطت إسمها لها. ويتأكّد من هذا التّأليف أنّ اسم «أريانة» يعود إلى الفترة الإسلاميّة من تاريخ إفريقيّة. وقد بينّا وجه هذه التّسمية في الفصل الذي خصّصناه للمكوّنات التّاريخيّة لمدينة أريانة في هذا التّأليف.

ولنا أن نسأل عن أطوار نشأة مدينة أريانة. فما هي البواعث التي دعت لبناء هذه القرية في أوّل عهدها وكيف تطوّرت عبر العصور لتصبح مدينة يحكمها وال من قبل بني زيري لمّا ازدهرت دولتهم بالقيروان؟ وماهي الأدوار التي قامت بها في فترات عصيبة وأزمات حرجة عاشتها تونس العاصمة بجوارها؟

أريانة وحضورها التاريخي بجوار العاصمة تونس:

إنّ من يتصفّح كتب التّاريخ سواء المطبوعة أو المخطوطة وكذلك كتب السّير والتّراجم ويمعن في الدّرس والبحث يأخذه العجب مما يطالع. ذلك أنّ أغلب المؤرّخين لا يهتمّون بحياة الكادحين والفلاّحين والعامّة من النّاس في عاداتهم وتقاليدهم، وكذلك بنمط المجتمعات التي يكوّنونها فلا ينقلون وصفا ضافيا عن طرق عيشهم وأساليب تعاملهم، وعن السّلبيّات والإيجابيّات في كلّ ذلك بما يتأثّرون به أو يؤثّرون فيه. ولا تعتني هذه المصادر القديمة مهما تنوّعت إلاّ بالخاصّة من رجال الدّولة والحكّام. ويبقى الوجه الآخر من المجتمع غائبا. وقد يتوفّق الباحث لجمع معطيات متفرّقة تحصل بها صور قد تقترب وقد تبتعد عن الواقع الذي عليه الطّبقة الاجتماعيّة في حياتها ونمط عيشها، وخاصّة الطّبقة الكادحة منها. ومن المراجع التّي يقع الرّجوع إليها ـ وهي قليلة وضنينة في واقع الأمر ـ الأقوال المنثورة والأخبار المنقولة من مصادر متنوّعة، كذلك إن لزمت الحاجة ينظر في الأدب شعرا أو قصصا. وانطلاقا من هذه الملاحظة، فان المؤرّخين لم يعيروا كبير أهميّة فيما سجّلوا لما يمكــن أن نسمّيــه «بسيرة المدن». وضمن هذا يقع تتبّع أطوار حياة مدينة وعيش سكّانها في مختلف طبقاتهم ونوع نشاطهم عبر الأزمنة المتعاقبة.

وفي هذا السيّاق يبقى تاريخ أيّ مدينة موكولا لجهود مضن يبذله الباحث متقصّيا أخبار هذه المدينة أو تلك في مطاوي الكتب والسجلاّت والدّفاتر أو بمناسبة سير رجالات نشؤوا فيها أو تقلّبوا في مناصب دفعتهم الصّدف أوالأحداث إلى الاضطلاع بها، أو في نهاية الأمر بمناسبة أحداث كانوا سببا فيها أو ضمن من شاركوا فيها.

وسيرة مدينة أريانة ـ رغم شهرتها ودورها الكبير في تاريخ عاصمة تونس وفي حمايتها والذّود عنها في كثير من المناسبات وفي أدوار هامّة من تاريخ البلاد ـ تبقى، كسيرة سائر المدن التّونسيّة وهي ضاربة القدم في التّاريخ، مبثوثة هنا وهناك، قلّما ضمّها كتاب موحّد إلى الآن وهو عمل لابدّ من القيام به. وبهذه الصّفة لم يعرف تاريخها في أطواره المتعدّدة وبالدقّة المرجوّة كي يسهل الاطلاع على المقوّمات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّياسيّة وهي جميعاتساعد على تحليل التّراكمات الحضاريّة بخصوصيّاتها الدّقيقة لبلادنا التّونسيّة عبر الزّمن.

ومهما يكن من أمر، فانّ الوثائق المتوفّرة والمصادر التي عدنا إليها تثبت أنّ مدينة أريانة بلغت مستوى من الازدهار كبيرا، فقطعت شأوا من الرقيّ والتّقدّم منذ بروزها في سجلّ التّاريخ على عهد بني زيري الصّنـهـاجـيّين في الـنّـصـف الـثّـاني مـن الـقـرن الـرّابـع لـلـهـجرة أي الـنّـصـف الـثّـاني من القرن العاشرالميلادي. وقد امتدّ حكم بني زيزي الصّنهاجيين قبل قدوم الموحّدين في القيروان والمهديّة من

سنة(363 هـ إلى السنة 543 هـ / 973 م ـ 1148م).

مدينة أريانة في نشأتها الأولى:

إنّ نشأة مدينة أريانة على عهد بني زيري الصنهاجيين لم يكن محدّدا بتاريخ دقيق أو بحادثة مضبوطة. وإنّما نعلم أنّ مدينة أريانة ارتبطت ـ قديما ـ بالشّيخ المتزهّد الصّالح «محرز بن خلف» الذي توفيّ بمدينة تونس،وقد تجاوز السّبعين من عمره (413 هـ / 1022م). ويؤكّد بعض المؤرّخين أنّ محرز بن خلف ولد بأريانة قبيل نهاية النّصف الأوّل من القرن الرّابع أي حوالي (348 هـ / 975م). واعتمادا على ميلاد هذه الشّخصيّة الأريانيّة الشّهيرة يمكن أن نجزم بأنّه قد مرّ من عمر مدينة أريانة أكثر من ألف سنة إلى حدود يومنا هذا.

وممّا هو متأكّد في كتب السّير والمناقب أنّ المؤدّب محرز بن خلف، كما كان يلقّب، قد قضى سنيّ شبابه في مدينة أريانة. وفيها يعرف البيت العتيق الذي سكنه ومازال إلى اليوم مقصد الزّوّار المتزوّدين من بركات هذا الوليّ الصّالح دفين حيّ السّقّائين في تونس العاصمة (حي باب سويقة اليوم) حتى ابتنى بيتا جديدا في الأرض التي اشتراها قبيل وفاته وبجانبها



مقام المؤدّب محرز إبن خلف في القرن السّابع عشر بحي السّقّائين قديما (باب سويقة حاليا بتونس)

كتّابه الذي درّس فيه لطلبته أصول الفقه المالكي بالاعتماد على تأليف خصّه به ابن خالته ابن أبي زيد القيرواني وهو الكتاب المعروف «برسالة ابن أبي زيد» وعنوانها الأصليّ هو «باكورة السّعد». واستمر الزّوار يؤمّون بيته القديم في مدينة أريانة العتيقة آخذين من بركات هذا الولي الصالح مستنيرين بأنوار تقواه، ومتحسّسين لمنهجه القويم في التّسامح وروح المحبّة ودحض شبهات الضّلالة والإفك وترسيخ القيم الدّينيّة السّمحة وذلك بمقاومة المتطرّفين من أهل البدع..ويذكّرنا المتطرّفون الباطنيّة الذين قضى على ضلالتهم وإفكهم الإمام محرز بن خلف المتطرّفين الذين بدّد فلولهم وسفّه رؤاهم في القرن الثّالث الإمام سحنون «سراج القيروان».

ومازالت البئر القديمة قائمة في صحن البيت العتيق (بيت سيدي محرز) بأريانة القديمة تسقي الزّائرين فيرتوون من مائها الصّافي زلالا عذبا طليّا للشّفاء وكأنّه عين الشّفاء.

مثّل الإمام «محرز بن خلف» الضّمير اليقظ والقلب النّابض في كيان سكّان مدينة أريانة من الفلاّحين والكادحين، وكذلك سكّان الحاضرة تونس حيث يوجد مزاره في حيّ السقّائين القديم (باب سويقة اليوم) وهو من المعالم الأثريّة الممتازة يحظى بكلّ عناية واهتمام ويعتبر رمزا من رموز الفنّ المعماري التّونسي الأصيل.سكن المؤدّب محرز هذا البيت الفسيح في قلب حيّ ينبض حيويّة ونشاطا تحيط به المتاجر والأسواق وقرّب إليه الفقراء والغرباء فتعلّق

به النّاس جميعا وخاصّة المحرومين والمظلومين، فهابه الحكّام واستمعوا بعناية لنصائحه ومواعظه، وأصبح حامي ذمّة المحرومين والصّوت الصّادح بكلمة الحقّ والدّاعي إلى اتّباع السنّة السّمحة الخالية من الشّبهات والضّلالات.

ولقد أقامت له وزارة الشّؤون الدّينيّة ندوة بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته في 11 و12 و13 نوفمبر 1992، وجمعت نصوص المحاضرات في شأنه في كتاب بعنوان: «الإمام محرز بن خلف، رائد التّسامح ومقاومة التّطرّف» وصدر هذا التّأليف في شهر جانفي 1994 ضمن سلسلة: آفاق إسلاميّة العدد السّادس.

ومامن شكّ أنّ الأخبار التي وصلتنا عن محرز بن خلف تعرّفنا عن كثب بمشاغل سكّان أريانة في العهد الوسيط، زمن حكم بني زيري الصّنهاجيّين وممّا جاء في محاضرة الشّيخ «الشّاذلي النّيفر» في المرجع أعلاه،(صفحة 37): «كان محرز بن خلف في شبيبته يعلّم القرآن بأريانة فهي مقرّه الأوّل».

ويبدو أنّ أريانة كانت من المدن الكبيرة إذ أنّها زمن الدّولة الصّنهاجية كانت ولاية من الولايات كما يدّل عليه ما جاء في مناقبه، وأخبرنا الشّيخ «أبو محمد منّ اللّه» قال: «أخبرني المؤدّب محرز رحمه اللّه قال: «أتى إلى بلد أريانة وال من قبل صنهاجة فرعون من الفراعنة في تكبّره وعتوّه. فغرّم أهل الموضع، وتعسّف عليهم. فسألوني أن أعظه وأذكّره وأليّن لهم جانبه، فوعظته فوجدته كالصّخرة الصمّاء لا يلين لواعظ فأدمت الموعظة وخوّفته من النّار تبعات الخلق وحذّرته».

ويتّضح من هذا الخبر أنّ العابد محرز بن خلف كما يسمّيه القاضي عياض في كتابه «ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك» (ج 7 ص 264) كان يمثّل لسكّان أريانة المدافع عن الحقّ فلا تردّه من أجله سطوة المتجبّرين من الحكّام والظّالمين من أصحاب السّلطان. فكان الفلاّحون والكادحون يحتمون به ويذرعون إليه فيما يضرّهم ويسيئ إليهم، وهم فوق هذا مقتدون بسيرته وتقواه وورعه ونقاوة سريرته وهوالمدافع عنهم في كل حين بشجاعة المصلح الورع .فمن قوله في االظّلم: (طويل)

«إذا ظالم قد عاهد الظّلم مذهبا — وجار غلوّا في علوّ اكتسابه
فكله إلى ريب الزّمان وجوره — سيبدي له ما لم يكن في حسابه
فكم ذا رأينا ظالما متجبّرا — يرى النّجم تيها تحت ظلّ ركابه
فلمّا تمادى واستطال بجوره — أناخت صروف الحادثات بنابه
وعوقب بالذّنب الذي كان يجتني — وصبّ عليه اللّه سوط عذابه
فلا فضّة تحميه عند انفضاضه — ولا ذهب يثنيه عند ذهابه»

(عن مجمل الأدب التّونسي لحسن حسني عبد الوّهاب طبعة المنار 1968 ص 116)

وقد ترجم للإمام محرز بن خلف زميلنا توفيق البشروش في أطروحته التي تقدّم بها لنيل دكتورا الدّولة ونشرتها كليّة الأداب والعلوم الانسانيّة بتونس سنة 1989 (صفحة 82 ـ 89) وهي بعنوان «الصّلحاء والأمراء في تونس أو النّخبة التّونسيّة من أصحاب السّلطان والعبادة»

(Le saint et le prince ou les élites tunisiennes du pouvoir et de dévotion)

ويعرض ضمن هذا الفصل سيرة هذا الوليّ الصّالح ودوره الدّيني الإصلاحيّ في المجتمع الأرياني أوّلا وفي الأماكن الأخرى التي انتقل إليها ثانية قبل استقراره نهائيّا في حيّ السقّائين (باب سويقة) في حاضرة

تونس.

ومن هذه الأماكن التي حلّ بها الإمام «محرز بن خلف» نقلا عمّا ورد في مناقبه التي كتبها حفيده «أبو الطّاهر الفارسي» نذكر تردّده على مدينة القيروان حيث كان ينزل في ضيافة ابني خالتيه،الأوّل «عبد الله ابن أبي زيد القيرواني»(310 ـ 386هـ/ 922 ـ 996م) صاحب الرّسالة في الفقه المالكيّ وقد كتبها ليدرّس بها الإمام محرز تلامذته،وابن أبي زيد كان يلقّب بمالك الصّغير في عصره لتبحّره في العلوم الفقهيّة، وعنوان هذا التّأليف هو «باكورة السّعد» وقد ترجمه إلى الفرنسية «ليون بيرشي».

La Risala ou Epitre sur les éléments du dogme et de la loi de l'Islam selon le rite malikite.(5ème Edition Alger.1968)

وأمّا ابن خالته الثّاني فهو أبو الحسن علي بن محمّد بن خلف القابسي (324 هـ ـ 403 هـ / 935 م ـ 1012م) وهو صاحب «الرّسالة المفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين». وقد حقّقها وترجمها إلى الفرنسيّة زميلنا أحمد خالد بعنوان:

Epitre détaillée sur les situations des élèves, leurs règles de conduite et celles des maît-res d'Abu-l-Hassen Al-qâbisi (324-403 de l'hégire 935-1012 J.C),(pédagogue tunisien du Xe.s (Edition S.T.D, 1986)

وكانت الصّلة متينة بين المؤدّب محرز بن خلف أصيل مدينة أريانة وبين ابني خالتيه الفقيهين المالكيين عبد الله بن أبي زيد القيرواني وأبي الحسن علي القابسي، وهما دفينا مدينة القيروان، وضريحاهما مزاران معروفان إلى اليوم فيها.وإنّ وجود هذين العلمين في عاصمة بني زيري آنئذ يفسّر تردّد محرز بن خلف عليها قصد التّزوّد من علمي ابني خالتيه والأخذ من فقههما وخاصة من صاحب الرّسالة التي اعتمدها مرجعا أساسيّا لتعليم طلبته الفقه المالكيّ وهي ماتزال إلى اليوم محلّ شرح وتفسير ودرس لأصول الفقه المالكيّ إلى جانب ترجمتها إلى الفرنسيّة ترجمة سليمة كما ذكرنا.

ومن أريانة كان الإمام محرز بن خلف يتوجّه من حين لآخر إلى مرسى الرّوم كما تسمّى قديما وهي «المرسى» الآن، فيشارك أهلها صيد السّمك وبعض أعمالهم اليوميّة ويلتحم بالطّبقة الكادحة من العمّال، وينقطع إلى العبادة حينا آخر مع جمع من أصحابه في خلوة قرب مسجدها.كما ينطلق أيضًا من أريانة إلى قربص (بالوطن القبلي)، وهي تقابل مرسى الرّوم شرقا على مسيرة نصف يوم بحرا. ومن أريانة كان يتردّد كذلك على قرطاج. ومن طريف ما قال في هذه الزّيارات متّعظا بآثار هذه المدينة الخالدة وبمن فات من ساكنيها شعر يدخل في باب الوعظ والوقوف على مجد الماضين من أسلافنا، نذكر منه هذه الأبيات: (البحرالطويل)

خليليّ مرّا بالمدينة واسمعا	مدينة قرطاجنّة ثمّ ودعا
طلولا بها تبكي لفقدان أهلها	كما ندب الأطلال كسرى وتبّعا
وقولا لها ما بال ربعك دارسا	وما بال وفد قد بكاك وودّعا
وخلاّك بعد اجتماع وغبطة	ومن بعد تشييد خلاء وبلقعا
تصفّق فيك الرّيح من كلّ جانب	وفرّق منك الدّهر ما قد تجمّعا

فمزّق ذاك الشّمل بعد اجتماعه فللّه دهر ما أغرّ وأفجعا
أتاها الجلنديّ بعد ألف تواليا فأوصل منها كلّ ما قد تقطّعا
أقام بها مستأثر الملك طاغيا ومغتصبا كلّ السّفائن مقمعا
إلى أن رمته الحادثات بصرفها فجرّر ذيلا خاضعا متضرّعا
ومن بعده الرّومان ياصاح قد بنى طياطرها ثم القناة فأبدعا
وألّف من بعد العريضة فرضها وشدّ ببعض بعضها فتجمّعا»

وهذه القصيدة طويلة أراد بها استنطاق الأطلال والوقوف على الدّوارس منها عبرة لمعاصريه وتنبيها لهم بزوال الدّنيا وعبث الأقدار وفعلها الغاشم بالظّالمين من الحكّام الذين جعلهم اللّه أمناء على عامّة النّاس، فساءت سيرتهم وتفانوا في إيذاء رعاياهم بالعسف والقهر. ولا يفوتنا أن نذكّر أنّ هذه المواقف تدخل في المنحى التّربوي الذي عرف به محرز بن خلف وفي المنهج الخلقي الذي ارتآه لنفسه وأراده لأصحابه ومريديه ولعامّة النّاس كذلك من بلدته أريانة وللأماكن التي زارها ولمدينة تونس التي استقرّ بها فأحاط نفسه فيها بهالة من التّقدير والاحترام، وسنّ سلوك حسن التصرّف والإصداح بالأقوال الفاضلة والقيام بالأعمال الصالحة، فطبع معاصروه بطابعه في كلّ ما يصدر عنه قولا وفعلا ولقّبوه بالمؤدّب محرز وبسلطان تونس. فسلطانه سلطان فكريّ وسلوكه خلقيّ يدعو إلى الالتزام بالسّنّة السّمحة والتّسامح بين الأقليّات باجتناب التّطرّف وتجاوز الضّغائن والأحقاد وإرساء الأمن والتّعايش السّلمي والوفاق التّام.

وإتماما لسيرة هذا الإمام الصّالح نذكر أنّه توجّه إلى الحجّ لأداء الفريضة، ومنه إلى مصر حيث لازم أستاذه «ابن الأدفويّ المقرئ» (304 ـ 388 هـ/ 916 ـ 998م)، وهو أبو بكر محمّد بن علي بن أحمد الأدفويّ نحويّ ومفسّر من أهل أدفو بصعيد مصر الأعلى. له كتاب «الاستغناء في علوم القرآن »في مائة جزء ومؤلّفات في الأدب،أخذ عنه محرز بن خلف القراءات السّبع فكانت عنايته بقراءة القرآن كبيرة حفظا وتجويدا وعلما بالقراءات، وهو أوّل من سنّ قراءة القرآن بعد صلاة الصّبح، حسب الشّيخ «الشّاذلي النّيفر» في محاضرته عنه (انظر الصّفحة 40 من آفاق إسلاميّة عدد 6 جانفي 1994).

إنّ الشّيخ محرز بن خلف قد حظي باهتمام وجدان النّاس وعقلهم الباطن سواء في مدينة أريانة موطنه الأصلي ومربع شبابه، وهي مسقط رأسه أيضا، أو في أماكن أخرى قصدها واحتكّ بأهلها من قريب كمرسى الرّوم قرب سيدي أبي سعيد اليوم، وقرطاج، وقربص وعاصمة بني زيري آنذاك مدينة القيروان، والعاصمة المعزّيّة القاهرة، وفي خاتمة المطاف مدينة تونس.

وتتبّعنا سيرة هذا الرّجل الصّالح والمربّي الورع فوجدناه قد ملأ نفسه حبّا للآخرين وتسامحا مع كلّ طبقات الشّعب، فدافع عنهم بلسانه وقلمه، وتصدّى لكلّ ظالم غاشم جاءهم متجبّرا ومتسلّطا عاتيا في أي مكان حلّ به وخاصّة في مدينته أريانة. وقد تمكّنّا من معرفة مميّزات هؤلاء السّكّان الطيّبين البسطاء في حياتهم وسكناهم، وجلّهم من الفلاّحين والصّنّاع الكادحين يجمعهم سلوك موحّد يقيم وزنا كبيرا للتّآخي وحبّ الخير والتّفاني في التّعاون في السرّاء والضّرّاء فلا يقيمون فروقا ولا حواجز بين الأجناس والأديان ويقاومون البغضاء والأثرة والتّطرف ونبذ الأقليّات المسالمة.

كانت هذه مميّزات المجتمع الأرياني حول هذا الرّجل التقيّ الطّاهر السّريرة المنجد للضّعيف الحامي حمى الفقراء والمحرومين في الحالات العصيبة وما أكثرها في ذلك التّاريخ. وإنّ زيادة التّعمّق في دراسة مقوّمات هذه الشّخصيّة الفذّة في أبعادها الإنسانيّة وما طبعت به المجتمع الأرياني أوّلا، وفي مدينة تونس ثانيا، في القرنين الرّابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين) من خلق كريم وصبر على المكاره وحبّ للتّآخي والسّلم وترسيخ الجذور في الأصالة العربيّة الإسلاميّة.إنّ كلّ هذا يجعلنا نتأكّد من أنّ محرز بن خلف كان ولايزال المربّي المؤسّس لهويّة مدينته الأولى أريانة ولموطنه إفريقيّة (تونس). فلقد طبّقت شهرته الآفـاق شرقا وغربا حتّـى أنّ ياقوت الحمـوي (574 ـ 626هـ/ 1178 ـ 1229م) في كتابه «معجم البلدان»حين تكلّم عن تونس ذكر الشّيخ محرز بقوله: «وبتونس قبر المؤدّب محرز يقسم به أهل المراكب إذا جاش عليهم البحر، يحملون مـن تـراب قبـره معهم وينذرون لـه» (ج 2 ص 434).

وينقل لنا شيخ المؤرّخين في تونس حسن حسني عبد الوهّاب في كتابه «مجمل تاريخ الأدب التّونسي» (ص 118 ـ 119) خبرا يتّضح منه دور محرز بن خلف في إعانة بعض المظلومين من طلبة العلم، وذلك في رسالة كتبها إلى الأمير الصّنهاجي باديس بن المنصور(374 ـ 406هـ / 984 ـ 1016م) يوصيه خيرا بحامل رسالته. يقول: «باسم اللّه الرّحمان الرحيم. حقّق اللّه الحقّ في قلوب العارفين من عباده ونقل المذنبين إلى ما افترض عليهم من طاعته،أنا رجل عرف كثير من الناس اسمي ـ وهذا من البلاء ـ وأنا أسأل اللّه أن يتغمّدني برحمة منه وفضل، وربما أتاني المضطرّ يسأل الحاجة فان تأخّرت خفت وإن ساعدت فهذا أشدّ. وقد كتبت إليك مسألة رجل من الطّلبة طولب بدراهم ظلما ولا شيء له. وحامل رقعتي يشرح لك ما جرى، فعامل فيه من لابدّ لك من لقائه، واستح ممّن بنعمته وجدت لذيذ العيش واحذر بطانة السّوء فانّهم إنّما يريدون دراهمك، وشاور في أمرك من يتّقي اللّه «ومن يتّقي اللّه يجعل له من أمره يسرا، ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجا » واستعن باللّه فانّ «من يتوكّل على اللّه فهو حسبه» والسّلام. (راجع الأيتين 2,3 من سورة الطلاق).

إنّ ما عرضناه من أخبار تتعلّق بسيرة محرز بن خلف تثبت أنّ مدينة أريانة كانت مدينة مشهورة في القرن الرّابع الهجري أي القرن العاشر الميلادي إذ قد نشأ فيها هذا المتعبّد بين سنتي 348 و413 للهجرة الموافقتين لـ 975و 1022 للميلاد. وكان يحكمها وآل صنهاجيّ من دولة بني زيري بالقيروان، وكان له مع الشّيخ محرز بن خلف الخلاف الذي ذكرناه والمتعلّق بتصدّيه لظلمه للرّعيّة والسّكّان الطيّبين في هذه المدينة.

وإنّ كلّ من تحدّث عن أريانة من المؤلّفين الجغرافيّين قديما يقرنها بهذا العابد المشهور، من ذلك ما جاء في كتاب «الرّوض المعطار في خبر الاقطار» لمحمّد عبد المنعم الحميري (المتوفّى سنة 900 هـ/ 1494م) وبتحقيـق الدّكتور إحسان عبّـاس(لبنان 1975). قال في صفحة 25ـ: «أريانة قرية من عمل قرطاجنّة إفريقيّة بمقربة من تونس مسندة إلى الحنية العاديّة، منها كان العابد محرز بن خلف التّميمي المؤدّب العابد المشهور،قبره بتونس بداره يتبرّك به،وتوفّي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.وله أخبار مصنّفة».

وإنّ ما يفيدنا به هذا المؤلّف نسبة التّميمي التي أثبتها للمؤدّب محرز بن خلف. وهذا يؤكّد ما ذهبنا إليه في بداية بحثنا أنّه يمنيّ الأصل فهو من عرب الجنوب. ومثله في ذلك كمثل الأمراء الأغالبة إذ هم من تميم القبيلة اليمنيّة، وهو أيضًا من مدينة إريان باليمن ويتّصل بالجدّ الأوّل لسكّان هذه المدينة وهو الصدّيق

بن محمّد، لذلك يدعى: محرز بن خلف الصدّيقي.

ويشير عبد المنعم الحميري في كتابه «الرّوض المعطار» أنّ السّاقية الرّومانيّة الشّهيرة والمعروفة بالحنية أو الحنايا وهي التي تزوّد مدينة قرطاج بماء عين جبل زغوان تمرّ فعلا بأريانة، وتقطع المدينة قطعا. وهذا ما سنفصّل الحديث فيه فيما يلي من هذا الكتاب عند التّعرّض إلى تاريخ مدينة أريانة في العصر الحفصي. وقد قامت هذه السّاقية بدور كبير بما أدخله عليها الحفصيون من ترميم وإصلاح قصد تزويد جامع الزّيتونة وفسقيّة بستان أبي فهر بأريانة بالماء الصّالح للشّراب والرّيّ أيضًا.

أريانـــة في عهد الدولة الحفصية
(المدينـــة المجاهـــدة)

ذكر «حسن حسني عبد الوهّاب في كتـابه: «خلاصة تـاريخ تـونس» (ص 103): «أن الفاتحين من العرب ابتنوا القيروان واتّخذوها عاصمة البلاد الإفريقيّة. وسبب اختيارهم هذا المركز على سواه هو توسّط موقعه الجغرافي وبعده عن السّاحل إذ لم يكن للدّولة الإسلاميّة إذ ذاك أسطول يحمي قاعدتها من هجمات الرّوم الذين كان لهم ملك البحر. وبقيت القيروان تختا إلى أن انتصب العبيديّون وقوي ساعد الدّولة المغربيّة بأسطول رهيب، فلم يخش حينئذ عبيد اللّه المهدي من جعل مدينة المهديّة التي أسّسها مقرّا لسلطانه» المتّسع، وأقام الملك هناك إلى يوم تغلّب النّرمان عليها. فلّما دانت إفريقيّة إلى عبد المؤمن بن علي وإلى خلفائه من بعده استحسنوا نقل مركز الحكومة إلى حاضرة تونس، وتبعهم في الإقامة بها الحفصيّون ومن والاهم من الدّول. ولم تزل هذه المدينة عاصمة القطر التّونسي إلى يومنا هذا، ولله عاقبة الأمور».

لا بدّ أن نسجّل أن البلاد التّونسيّة عرفت ازدهارا كبيرا على عهد بني حفص في الاقتصاد والفلاحة والمعمار. وهي الفترة التي تعنينا من حياة مدينة أريانة التي نحن بصدد دراستها. وازدهرت المدن وعظم شأنها خاصّة في خلافة المستنصر باللّه الحفصي (1229 ـ 1277م)، وقد تواصل حكمه من سنة 647 هـ / 1249 م، تاريخ وفاة أبيه «أبي زكريّاء الحفصي» الذي ترك له ملكا عتيدا ومملكة ممتدّة الأطراف وهو يومئذ في العشرين من عمره إلى سنة وفاته في 675 هـ / 1277م.

وأمّ المستنصر أمّ ولد إسمها عطف، وهي التي أمرت ببناء جامع التّوفيق والمدرسة التّوفيقيّة قبالة زاوية الشّيخ أبي القاسم الزّليجي بتونس العاصمة. ويطلق الآن على جامع التّوفيق اسم جامع الهواء وهو يوجد بنهج جامع الهواء (عن ابن أبي دينار، 135 ؛ والسرّاج 3: ؛ 694 وابن الخوجة 266 ,178).

«وعقد للمستنصر البيعة عمّه الأمير عبد اللّه محمّد اللّحياني، وقد كان أبوه عهد إليه،فتمّم له ذلك عمّه. ويثبت ابن الشّمّاع في كتابه«الأدلّة البيّنة النّورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة» في سياق حديثه عن أحداث سنة 648 هـ/1250م ما يلي: «وفي هذه السّنة نصبت المقصورة بجامع الموحّدين (وهو جامع القصبة اليوم) وفي آخرها ابتدئ البناء في أبي فهر». فتأكّد لدينا حينئذ أنّ المستنصر باللّه الحفصي وقع اختياره على ضاحية مدينة أريانة للشّروع في بناء قصوره وتركيز إقامته ببستان أبي فهر الذّائع الصّيت (حيث توجد مدينة العلوم اليوم المحيطة بفسقيّته الكبيرة) وتتوزّع هذه القصور على بساتين جهة سكّرة الشّرقيّة كما سنبيّن ذلك في بحثنا الموالي عن مشروع السّقاية والرّيّ وجلب المياه لأريانة في العهد الحفصي. ويرجع

الفضل للمستنصر بالله الحفصي في إعادة السّاقية المنقولة على الحنايا من جبل زغوان إلى تونس وتزويد جامع الزّيتونة بالماء وكذلك إلى أريانة وتعبئة جابية بستان أبي فهر. وسنبيّن ذلك مفصّلا فيما سيأتي.

ومثّلت مدينة أريانة درّة العقد بين الأمصار الجديدة حول العاصمة الحفصيّة تونس إذ أصبحت مقرّ السّلطان ومربعه على طول السّنة. وقد زاد علوّ شأنه عندما اختارها السّلطان وكذلك الطّبقة الأرستقراطية وعلية القوم سكنا ومنتزها.

وتوافد عليها القادمون من العدوة الغربيّة أرض الأندلس الجميلة من غرناطة وإشبيلية وقرطبة ومالقة وبلنسيّة ومرسيّة وغيرها... فنزل بها العلماء والفنّانون وأهل السّياسة وأهل البيوتات الاندلسية المرموقة.

«وذاع صيت المستنصر في الآفاق، وعظم شأنه حتّى أرسل له أمير مكّة وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة سنة 657 هـ/ 1259 م، فاهتزّ السّلطان لهذه البيعة، واحتفل بها احتفالا مشهودا، وتلقّب من يومئذ بأمير المؤمنين، ثمّ وافته بيعة بني مرين بفاس، وهاداه ملك «برنو» وهي سلطنة بأواسط السّودان يسكنها زنوج مسلمون، وقاعدتها مدينة كوكة» (عن حسن حسني عبد الوهّاب خلاصة تاريخ تونس ص 108).

مشروع السقاية والري في العهد الحفصي في مدينتي تونس وأريانة:

نركّز في هذا المبحث على أربع مراحل هامّة قصد إبراز ما انتفعت به منطقة أريانة من مشروع الري الذي شمل سقاية جهة تونس الكبرى وذلك عندما وقع ترميم الحنايا الممتدّة بين مدينة زغوان ومدينة قرطاج مرورا بمدينة أريانة. والحنايا هي التي تحمل ساقية الماء المتدفّق من جبل زغوان أو غار الحوريّات (Les Nymphées) ومن عين جقّار:

- أوّلا: طيلة حكم المستنصر بالله الحفصي (1249 - 1277م)
- ثانيّا: المدّة المتراوحة بين سنة 1277 وسنة 1343 أي من وفاة المستنصر بالله سنة 1277 م وتضمّ حكم ابنه يحيَى الواثق(1277 - 1279م) وأبي اسحاق إبراهيم (1279 - 1284م) والمستنصر بالله الثاني (1284 - 1295م) وأبي عصيدة (1295 - 1309م) وأبي بكر الشهيد (1309م) وأبي البقاء (1309 - 1311م) وأبي زكرّياء بن اللّحياني (1311 - 1317م) ومحمّد أبي ضربة (1317 - 1318م) وأبي بكر الثّاني (1318 - 1346م)
- ثالثا: مدّة حكم أبي فارس عبد العزيز (1434 - 1394م)
- رابعا: مدة حكم أبي عمر عثمان (1435 - 1488م)

ويشمل هذا المبحث أشغال الرّيّ في جهتي تونس وأريانة في العهد الحفصي بداية من منتصف القرن الثّالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر. فانّ أهم إنجاز في السّقاية والرّيّ تمثّل في التّرميم الذي حقّقه المستنصر بالله الحفصي (1249 - 1277) للحنايا الرّومانيّة الحاملة لسّاقية الماء من جبل زغوان (غار الصّبايا أو الحوريّات) إلى مدينة قرطاج. ومن الملاحظ أنّ السّاقية (الحنايا) يبلغ امتدادها في الأصل 132 كيلومترا. ولم يرمّم الأمير الحفصي منها إلاّ 116 كيلومترا إلى حدود بستان أبي فهر بأريانة. وأهمل القسم ما بين قرطاج وأريانة الذي لم يستعمل منذ كسّر السّاقية حسّان بن النّعمان في حصاره لقرطاج سنة 668 للميلاد. وهذه الحنايا قد بناها الامبراطور الرّوماني هدريان(HADRIEN) (76 - 136 للميلاد) بين سنتي



المئذنة و الحمّام (القرن19) العهد الحفصي

120 و138 للميلاد. وتثبت بعض الأبحاث أنّ الانتهاء من بناء هذه السّاقية تمّ في عهد الامبراطور سبتيم سيفار (Septime Sévère) (193 ـ 211 للميلاد) وذلك بزيادة ربطها بعين جقّار، فازدادت كمّيّة الماء المندفعة فيها.

ويبلغ طول السّاقية كما أسلفنا 132 كيلومترا رغم أنّ المسافة التي تفصل مدينة زغوان عن قرطاج مرورا من تونس وأريانة لا تتجاوز السّبعين كيلومترا. ونفسّر ذلك بأنّ السّاقية فوق الحنايا التي تكون أحيانا مزدوجة المحنيّات تتّبع في مسارها منحدرات الأرض التي تمرّ فوقها مع الالتزام بميلان مدروس لتسهيل سيل



الحنايا في القرن السادس عشر في إتجاه تونس لترويد المدينة وجامع الزيتونة بالماء

الماء وجريانه في السّاقية التي تشكّل منعطفات ومنعرجات دقيقة، الغاية منها كذلك كبح غزارة الماء في حالات الذّروة من وفرة الدّفق لعين زغوان وعين جقّار معا.

وهذه السّاقية فوق المحنيّات أو الحنايا لها شكل مستطيل عرضه مابين 80 و90 سنتمترا وارتفاعه أو طوله من أسفل ألى السقف يكون في معدّل المتر تقريبا على كامل امتدادها. واعتمادا على مقاييس هذه السّاقية (0,90 م X1,00م) ضبطت الكميّة من الماء المتدفق بما قدره 32.000 متر مكعّب من الماء في اليوم،أي بما يقارب 320 لترا من الماء في الثّانية. وهـــذا الدّفق من الما هو ما يساوي الكمّيّة المائيّة التي يدفعها الينبوعان الإثنان: مجمّــع المـــاء بجبـــل زغوان وعـين جقّـــار وهـــو بحساب المتر المكعّب من الماء ما بين000 . 14 و000 . 15 من الأمتار المكعّبة في اليوم الواحد.وهذا الدّفق الكمّي من الماء ضبط في الحالة القصوى لارتفاع الدْفق في المنبعين مجتمعين.

وتثبت دراسة قامت بها الإدارة العامّة للأشغال العموميّة سنة 1927 تحت عنوان «تزويد مدينة تونس وأحوازها بالماء الصّالح للشّراب» أنّ دفق الماء قذ ينخفض إلى مستوى أدنى جدّا وهو ما يسمّى بالبراض لعين الماء (étiage) في حالة الجفاف فيكون بمقدار 2300 متر مكعّب في اليوم من مجمّع جبل زغوان أو غار الحوريّات (La Nymphée) وبمقدار 3300 متر مكعّب من عين جقّار في اليوم الواحد أيضا.

ومن الملاحظ أنّ السّاقية يغطّيها سقف مقوّس يبلغ سمكه ثلاثين سنتمترا يحمله عضدان على طولها،يرتفعان حوالي أربعين سنتمترا،على جانبي هذه السّاقية التي تحملها محنيّات أوحنايا في شكل أقراس من البناء الصّخري الضّخم تتفاوت في ارتفاعها حسب الأرض التي تمرّ فوقها في علوّها أو انخفاضها، وذلك حفاظا على ميلان قارّ من ينبوعي الماء إلى الخزّانات بجوار تونس وأريانة وكذلك قرطاج. وهذا ما سنبيّنه لاحقا في حديثنا عن الحفريّات والأبحاث الجديدة التي وقع القيام بها أخيرا.

وقد كانت ساقية الحنايا محلّ إعجاب كلّ من زار بلادنا في القديم فيصفها الرحّالة المغربيّ أبوعبد اللّه محمّد العبدري الحيحي (نسبة إلى بلاد حاحة في جنوب المغرب الأقصـــى) وقد عبّر عن إعجابه بما رأى من الحنايا في ما كتب عن رحلته التى سمّاها «الرّحلة المغربيّة» وقد حقّقها وقدّم لها ونشرها محمّد الفاسي رئيس جامعة محمّد الخامس سابقا بالرّباط سنة 1968 .

يقول العبدري صاحب الرّحلة في صفحتي 40 و41 متحدّثا عن آثار الرّومان بتونس عندما زارها سنة 668 للهجرة أي 1289 للميلاد: «وأمّا السّاقية المذكورة فهي من جملة غرائب الدّنيا وهي قديمة من عمل الرّوم مجلوبة من جبال بجنوب تونس على مسيرة يومين أو نحوها في أوعار وأوديّة منقطعة وجبال وآكام فاذا انتهوا بها إلى جبل أو تلّ خرقوه وسرّبوا الماء فيه. وإذا انتهوا إلى واد أو وهد بنوه قناطر بعضها فوق بعض حتّى يستوي مع مجرى السّاقية بصخر منحوت أتقن ما يكون من البناء وأغربه وأوثقه حتّى يتسرّب الماء منها في مستوى معتدل. واتّصلت هذه السّاقية بهذا العمل حتّى دارت من وراء تونس إلى الغرب، وانتهت إلى مدينة قرطاجنّة، وبينها وبين تونس إثنا عشر ميلا، وهي من أعجب مدن الأرض وأغربها فيما يحكى عنها من فرط الاعتناء وغرابة الصّنعة. وحسبك أنّ هذه السّاقية من جملة الاعتناء. بها وأمّا الرّخام فمنها يجلب إلى كلّ موضع بافريقيّة قديما وحديثا ولا يفنيه ذلك منها. وهي الآن داثرة لا أنيس بها

وأهل تونس يخرجون إليها تفرّجا وتعبّدا والقناطر من تونس إليها معطّلة. وهذه القنطرة تعرف عندهم بالحنايا. وهي ممّا يقصر الوصف عنه لفرط إتقانها وغرابتها. ويذكر أنّ الرّوم أقاموا في تدبيرها والنّظر في وضعها أربعمائة سنة، وهذا بعيد وأمّا أبوعبيد البكري فحكى أنّ عملها فرغ حتى استوى فيها جري الماء في أربعين سنة. وهذا يشبه مع الاعتناء التّامّ والإدارة الكاملة والقوّة الوافرة. وقد كان بعض الأمراء، وهو أخو القائم بها الآن احتاج إلى إصلاح بعض الحنايا بها ممّا يلي تونس ليوصل الماء إليها إذ كانت معطّلة قبله، فأقام في عملها مجتهدا بأقصى ما يمكنه أعواما عديدة ولم يمكنه ردّ ذلك على ما كان عليه ولا ما يقرب منه بل اقتنع بتسديده كيفما أمكن مع قلّته وتفاهته بالإضافة إلى غيره».

وبمقتضى ما تسمح به تضاريس الأرض فان هذه السّاقية أو القناة المعلّقة تتسلّق الهضاب أو تغوص في أنفاق أو تشقّ منخفضات ومنبسطات كمنبسط وادي مليان أو وادي الّليل أوسكّرة تحملها الحنايا أو القناطر ذات الصّخور الضّخمة. وقد تصبح هذه الحنايا ذات طابقين عند قطعها لوادي مليان أو لمنبسط سكّرة بجوار مدينة أريانة.

ولنا عن ذلك صورة ممتازة للرسّام يان فرماين Juan Vermey الذي شارك سنة 1535 في حملة «شارل كان» مع الجيش الإسباني على حلق الوادي وتونس وأريانة. وإنّ الرّسوم التي أنجزها هذا الفنّان كانت أمثلة ودعامة لصناعة مجموعة من الزّرابي المعلّقة اليوم على جدران متحف القصر الملكيّ بمدريد باسبانيا. وهي أروع نقل حيّ للحنايا ولهذه السّاقية العجيبة في بنائها وجذق التّقنية التّي جلب بواسطتها الماء من زغوان إلى تونس العاصمة وبستان أبي فهر الحفصي بأريانة، وقبلها وقديما إلى مدينة قرطاج. وهذه الزّرابي المعلّقات أوحت «لجان هودوا» تأليف كتاب عن حملة شارل كان على تونس بعنوان «الزّرابي المعلّقات الممثّلة لحملة شارل كان على مملكة تونس»:

J.Houdoy (Tapissries représentant la conquête du royaume de Thunes par l'empereur Charles Quint-Lille 1873 in 8e page 33

ولا بد أنّ نعرّج على تاريخ هذه الساقية أو القناة العجيبة المعروفة عندنا إلى اليوم بالحنايا لأنّ مصيرها ارتبط ارتباطا وثيقا بأريانة وبضواحيها وخاصّة ببستان أبي فهر وبجابيته العظيمة التي بناها المستنصر باللّه الحفصي ومازالت بقاياها إلى اليوم وسط مدينة العلوم. ونذكر بايجاز ما حلّ بها من العطب والتّعطيل في تعاقب السّنين إلى أنّ توقّفت نهائيّا عن العمل . وقد بقي منها اليوم بعض الأجزاء تنمّ على مجدها الزّاهر ووظيفتها الكبري في عصور قديمة متتالية، فقامت هذه السّاقية بعمل جليل تمثّل في تزويد سكّان مدينة قرطاج في العهد الرّوماني بالماء الصّالح للشّراب وربّما للرّيّ لبساتينا الغنّاء، ومن بعدها مدينتي تونس وأريانة كذلك بالماء لبستان أبي فهر وفي جزء قليل للرّيّ أيضا.

فلقد أصاب ساقية الحنايا منذ بنائها في بداية القرن الثاني للميــلاد بين سنتي 120 و138 بأمر من الامبراطور الرّوماني هدريان إلى عهد المستنصر باللّه الحفـصي(1249 ـ 1277) تشويه متعدّد المظاهر، كما أدخلت عليها العديد من أعمال التّرميم والإصلاح وكذلك الإضافة أو القطع.

وقع تهديمها جزئيّا سنة 439 للميلاد عندما استولى الوندال على مدينة قرطاج، ثمّ رمّمها القائد البيزنطي العظيم بليزار (Bélisaire) عندما تغلّب على الغازين الونداليّين سنة 533 للميلاد. وفي سنة

698 للميلاد قصد حسّان بن النّعمان مدينة قرطاج التي لم تزل حينئذ قاعدة ملك الرّوم البيزنطيّين، فحاصرها وكسّر قناتها (أي الحنايا) لقطع الماء عنها وشدّد الحصار عليها إلى أن فتحها عنوة، وأذعن من التجأ إليها من النّصارى تحت راية البطريق يحنّا. ومن المآثر التي تذكر لهذا القائد العربي تأسيسه بقرب مدينة قرطاج مصنعا لإنشاء السّفن والمراكب الحربيّة وهو المكان المعروف اليوم «بدار الصّناعة» (L'Arsenal). وقد جلب لهذا الغرض ألف عائلة من قبط مصر، فأقرّهم هناك تبعا لسياسة مخدومه الخليفة عبد الملك بن مروان، فاندمجوا في مجتمع المدينة. ومن أعمال حسّان أيضًا حفره للقناة الرّابطة بين تونس وحلق الوادي.

ويسجّل بعض المؤرّخين أنّ من أعمال الفاطميّين في القرن العاشر ترميم ساقية الحنايا من جديد. ولا يذكر فيما تمثّلت أعمال ترميم ساقية الحنايا، وأيّ جزء منها وقع ترميمه وهل بقيت صالحة بعد هذه الصيانة، وإلى أيّ فترة تواصل ذلك ؟ لقد بقيت هذه الأخبار المنقولة موجزة وعلى جانب من التّعميم والغموض.

وأهمّ ترميم وقع لهذه السّاقية المائيّة العظيمة (الحنايا) في العهد العربي الإسلامي من تاريخ بلادنا إنّما أنجز في القرن الثّالث عشر بأمر من المستنصر باللّه الحفصي (1249 ـ 1277). وهذا التّرميم أو إرجاع السّاقية إلى العمل ولوظيفتها الأصليّة للسّقاية والرّيّ لم يشمل إلاّ جانبا جزئيا منها. أمّا الأهمّ فهو إضافة ساقيتين فرعيّتين من الأصل للحنايا: الأولى لتزويد مدينة تونس وخاصّة ميضاء جامع الزّيتونة بالماء، وهي تمرّ من باردو ومن باب سعدون لتصل إلى باب الأرناصي أو برج الأعناقي حيث خزّان القصبة الكبير، ومنه ينطلق الماء في قنوات من رصاص إلى تونس (إلى ميضاء جامع الزّيتونة والحنفيّات الموزّعة في أحياء المدينة المعروفة بالمصاصات) والسّاقية الثّانية الفرعيّة وهي الأهم وتزوّد فسقيّة بستان أبي فهر بأريانة (وتضمّ 475 . 50 مترا مكعّبا من الماء) وهي الموجودة في وسط مدينة العلوم اليوم ومقاييسها هي: 3 X 80,5 X 209= 50475م3

وتنطلق هذه السّاقية الفرعيّة من الحنايا الأصليّة على مستوى وادي «قرب» في غربيّ مدينة أريانة لتصبّ في الجابية قرب بئر البطّوم. وعنها يحدّثنا شاهد عيان زار المكان في سنة 668 هـ / 1289 م، وهو الرحّالة المغربي محمّد العبدري: يقول عنها، في رحلته صفحة 40: «وأمّا السّاقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد استأثر بها قصر السّلطان وجنانه إلاّ رشحا يسيرا سرّب إلى ساقية جامع الزّيتونة يرتشف منها في أنابيب من رصاص، ويستقي منها الغرباء ومن ليس في داره ماء، ويكثر عليها الازدحام.» وعن قلّة الماء في تونس الحاضرة يقول: «ولو اتّفق أن يكون بها ماء جار لكانت معدومة النّظير شرقا وغربا ولكنّ ماءها قليل وفي ديارها مصانع (المواجل) لماء المطر وهو المستعمل عندهم»

نستنتج من أقوال محمّد العبدري الحيحي الرحّالة المغربي أنّ أكبر قسط من ماء الحنايا كان يصّب في فسقيّة بستان أبي فهر بجوار مدينة أريانة، ويزوّد سكّان مدينة تونس بقسط ضئيل من الماء بواسطة فرع آخر من الحنايا يمرّ من باب سعدون وبأسفل برج الاندلس أو برج زوارة اليوم من جهته الغربيّة. لذلك كان سكّان الحاضرة يخزنون مياه الأمطار في ماجل منزليّ خاصّ بكلّ بيت بسبب قلّة ماء الحنايا في الحاضرة.

وترك لنا عبد الرّحمان بن خلدون (732 ـ 808هـ / 1332 ـ 1408م) وصفا رائعا لفسقيّة بستان أبي فهر، وكذلك للحائط المرتفع الذي يحدّ السّاقية التي تحملها أقواس الحنايا وتتّصل بالمجرى الأصليّ المتّجه إلى مدينة قرطاج، وهو الذي يمرّ بجانب مقبرة سيدي الجبالي، ثمّ يشقّ مدينة أريانة ويقطع الأرض الفاصلة بين

سيدي عبد الرّحمان وسيدي علي الجربي متّجها إلى الخزّانات الكبيرة في المكان المسمّى اليوم بالمعلّقة لتزوّد مدينة قرطاج . يقول ابن خلدون واصفا بستان أبي فهر في الجزء السّادس من كتاب العبر في سياق الحديث عن إنجازات المستنصر بالله الحفصي مدة حكمه (1249 ـ 1277): «واتّخذ أيضًا بخارج حضرته البستان الطّائر الذّكر المعروف بأبي فهر يشتمل على جنّات معروشات وغير معروشات، اغترس فيها من شجره كلّ فاكهة من أغصان التّين والزّيتون والرّمان والنّخيل والأعناب وسائر الفواكه وأصناف الشّجر. ونضّد كلّ صنف منها في دوحة حتى لقد اغترس من السّرو والطّلح والشّجر البرّيّ. وسمّي دوح هذه بالشّعراء. واتّخذ وسطها البساتين والرّياضات بالمصانع والجرار وشجر النّور والنّزهة من اللّيم والنّارنج والسّدر والرّيحان وشجر الياسمين والخيري والنّيلوفر وأمثاله. وجعل وسط هذه الرّياض روضا فسيح السّاحة وضع فيه للماء حاجزا من أعواد الحور جلب إليه الماء في القناة القديمة، كانت ما بين عيون زغوان وقرطاجنة تسلك بطن الأرض في أماكن وتركب البناء العالي ذا الهياكل الهائلة والقسيّ القائمة على الأرجل الضّخمة في أخرى، فعطف هذه القناة من أقرب الثّمرات إلى هذا البستان، وأمطاها حائطا وصل ما بينهما حتى ينبعث من فوهة عظيمة إلى جبّ عميق المهوى رصيف البناء، متباعد الأقطار مربّع الفناء، مجلّل بالكلس إلى أن يعمّه الماء فيرسله في قناة أخرى قريبة الغاية فينبعث في الصّهريج إلى أن يعبق حوضه وتضطرب أمواجه ويترفّه الحظايا عن السّعي بشاطئه لبعد مداه فيركبن في الجواري المنشآت فيبارى بهنّ».

ولم يتأكّد لدينا في كلّ المراجع أنّ الماء المتدفّق إلى تونس وإلى بستان أبي فهر بأريانة بواسطة ساقية الحنايا التي أدخلت عليها أشغال التّرميم بأمر المستنصر بالله الحفصي هو سائل من عين زغوان وحدها أم هل أضيف إليه ماء عين جقّار كما كانت الحال في القديم، فلم يثبت لدينا أنّ عين جقّار قد وقع ربطها. وقد ذكر كلّ من كتب عن تاريخ الدّولة الحفصيّة أنّ هذا الماء هو من عين جبل زغوان (أو غار الصّبايا الحوريّات) ,Les Nymphées مع إغفال كلّ مصدر آخر للماء الذي يبدو دون ما كان يسيل في ساقية الحنايا من حيث الكمّيّة في عهدها الرّوماني القديم كما سيلاحظ فيما سيأتي عند التّحديد الحسابي بين تونس وفسقيّة بستان أبي فهر قرب مدينة أريانة.

وثبت لدينا من جانب آخر أنّ قسم ساقية الحنايا (في جزئها الأصلي) من أريانة إلى قرطاج قد وقع إهماله في العهد الحفصي ولم يلحقه أيّ ترميم. وبهذه الصفة يمكن القول إنّ مدينة قرطاج لم تزوّد بماء زغوان وعين جقّار منذ أنّ قطعها القائد العربي حسّان بن النّعمان سنة 77 هـ / 698م لمّا حاصر قرطاج البيزنطيّة وأخضع البطريق يحنًا لإرادته، فلم يشمل التّرميم الحفصي لساقية الحنايا حينئذ سوى 116 كيلومترا طولا من أصل 132 في العهد الرّوماني وما بعده ووقف عمل هذه السّاقية إلى حدود مدينة أريانة (أي تزويد فسقيّة بستان أبي فهر حيث مدينة العلوم حاليّا) وأهمل جزء ساقية الحنايا التي تمرّ من بساتين منطقة سكّرة بصفة نهائيّة. وقد بقيت آثار أعمدة الحنايا ظاهرة على جانب الطّريق الفاصلة بين دار فضّال وقرية العوينة.

وإنّ طرافة الإصلاح والتّرميم اللّذين أنجزا في عهد المستنصر باللّه الحفصي سنة 1267م قد تركّز أساسا على إيصال الماء الصّالح للشّراب إلى كلّ من مدينة تونس وخاصّة ميضاء جامع الزّيتونة ومدينة أريانة (أي بستان أبي فهر)، وذلك ببناء ساقيتين فرعيّتين تحملهما أقواس الحنايا، الأولى تمرّ قرب مدينة باردو وتصل إلى

خزّان القصبة مرورا من باب سعدون، والثّانية تنطلق من السّاقية الأصليّة في الجنوب الغربي من مدينة أريانة قرب وادي قرب وتصل إلى بئر البطّوم ببستان أبي فهر حيث مدينة العلوم اليوم. ونركّز الدّراسة على هذين العملين الهامّين في العهد الحفصي لساقية الحنايا لما لهما من الأهمّيّة في السّقاية والرّيّ لمدينتي تونس وأريانة.

ساقية الحنايا المزوّدة لمدينة تونس بالماء:

من المفيد أن نتتبّع المسلك الذي تقطعه السّاقية الفرعيّة الأولى التي أنشأها المستصر باللّه الحفصي إنشاء كاملا لتزويد مدينة تونس بالماء الصّالح للشّراب بعد إدخال الإصلاح والتّرميم على السّاقية الرّومانية القادمة من زغوان. وأهمّ المراجع لإثبات ممرّ هذه السّاقية الفرعيّة إنّما هي الخرائط التي ضبطتها مصلحة جغرافيّة الأرض بالجيش الفرنسي منذ بداية القرن. تنطلق هذه السّاقية الفرعيّة الحفصيّة ـ منذ ارتباطها بالحنايا الأصلية المتوجّهة إلى قرطاج ـ من مكان اسمه النّقرة في أرض ترتفع إلى 62 درجة هي «كمّ الوطاء» في الجنوب الغربي على مسافة كيلومترين من قرية فيل جاك (Villejacques)وهي المنيهلة اليوم وهي على عشرة كيلومترات من تونس على الطّريق رقم 8 المتّجهة إلى مدينة بنزرت.

وتثبت العديد من المصادر التّاريخية أن المستنصر باللّه الحفصي هو المؤسّس للسّاقية الفرعيّة من الحنايا المزوّدة لمدينة تونس بماء زغوان. نذكر منها الزّركشي في كتابه «تاريخ الدّولتين الموحّديّة والحفصيّة» ومحمّد العبدري الحيحي الرحّالة المغربي الذي شاهد الحنايا في زيارته إلى تونس سنة 688 هـ/ 1289 م ووصفها في كتابه «الرّحلة المغربيّة». كما نسب بناءها للمستنصر باللّه الحفصي ابن فضل اللّه العمري في



سبيل السقايا من العهد الحفصي في المدينة العتيقة بتونس العاصمة
(تزوّد السّكان بماء زغوان)



نموذج للسّبيل من العهد الحفصي في المدينة العتيقة بتونس

كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الامصار» وكما أكّد ذلك محمّد بن علي الرّعيني القيرواني في تاريخه. وقد أتمّ المستنصر باللّه الحفصي أشغال هذه السّاقية الفرعيّة سنة 666 هـ / 1267 م وجرى فيها الماء في الحادي والعشرين من سبتمبر 1267 إلى مدينة تونس وخاصة إلى جامع الزّيتونة.

و واصلت هذه السّاقية سيرها من النّقرة إلى تونس متّبعة تضاريس الأرض تارة ظاهرة فوق أقواس الحنايا وطورا تحت الأرض في انحدار 5,5 في الألف متسلّقة المنحدر الغربي لهضبة رأس الطّابية حيث كان الخليفة الحفصي يملك قصرا تحيط به البساتين. وقد عثرنا علي صور فوتغرافيّة لقسم من الحنايا في رأس الطّابية أخذت في الثّلاثينات من القرن العشرين. ومقاييس السّاقية هي: 0,25م 0,27X م. ولها من العمق 0,30 مترا.

وتتوجّه هذه السّاقية من رأس الطّابية إلى الجنوب الشّرقيّ لمدينة تونس مرورا بمنطقة الرّابطة على ظهر الحنايا، وهي المسمّاة اليوم بحنايا باردو على بعد كلمتر ونصف من مجلس النّوّاب اليوم (قصر الباي قبل الاستقلال). ويبلغ القسط من الحنايا من رأس الطّابية إلى هضبة الرّابطة حوالي 980 مترا وفيه منعرجات كثيرة الغرض منها التّقليل من سرعة دفق الماء نظرا للانحدار الكبير لهذه السّاقية (5,5 في الألف) التي ليست مغطّاة ونلاحظ أنّ لها نفس الانحدار للسّاقية إلاّ أنّ كمّيّة الماء التي تسيل فيها تقدّر بعشر السّاقية الأصليّة وتقدّر هذه الكمّيّة من الماء بحساب 218 مترا مكعّبا في اليوم في حالة الجفاف و1272 في حالة الخصب. والباقي من الماء المندفع من عين زغوان في السّاقية الأصليّة يسيل إلى أريانة كما سنبيّن ذلك وهو الأهمّ ويقدّر بـ2082 مترا مكعّبا في اليوم في حالة الجفاف أو الانخفاض وبـ728 . 12 مترا مكعبا في اليوم في حالة وفرة المياه بالعين الأصلية أوحالة الخصب.

وهذه الكمّيّة الوافرة من الماء كانت مخصّصة لبستان أبي فهر وقصر الأمير الحفصي كما لاحظ ذلك العبدري المغربي في رحلته سنة 688 هـ/ 1286 م أي بعد مرور اثنتين وعشرين سنة من الانتهاء من بناء هذه السّاقية الفرعيّة. وقد لاحظ أنّ الماء قليل في حاضرة تونس ومتوفّر ببستان أبي فهر. وهو ما يفسّر إعجاب ابن خلدون بغزارة الماء في ارتفاعه من السّاقية في فسقيّة أبي فهر العظيمة التي تتبارى فيها الجواري في مراكبهنّ.

كيف تمرّ هذه السّاقية من هضبة الرّابطة إلى مدينة تونس لتزوّد السّكّان وجامع الزّيتونة بالماء الصّالح للشّراب؟

تمرّ السّاقية على ارتفاع عشرة أمتار على قاعدة الجدران الضّخمة لبرج الأندلسيّـين أو برج زوارة اليوم. وتلتصق بهضبة الرّابطة من جهتها الشّرقيّة ثمّ تحاذي مستشفى شارل نيكول من الجنوب وتقطع المسافة بين المعهد الفنّي أو إميل لوبي قديما وبين مقبرة سيدي أحمد السقّاء. وحسب «مسالك الأبصار» للعمري فانّ خزّانا يستقبل المياه المتدفّقة يوجد داخل المدينة في منحدر القصبة على انخفاض 30 مترا من مسار السّاقية، وهو ماينفي ما ذهب إليه الباحث شارل منشكور(Ch. Monchicourt) الذي ظنّ أنّ الخزّان هو القائم إلى اليوم في باب سيدي عبد اللّه. ومن الخزّان ينطلق الماء إلى المدينة وجامع الزّيتونة في أجعاب من الرّصاص كما ذكر ذلك الرحّالة المغربي محمّد العبدري.

السّاقية الفرعيّة الثّانية: إلى بستان أبي فهر بأريانة:

لقد سبق أن أشرنا إلى أنّ ساقية الحنايا الأصليّة الرّومانيّة قد وقع ترميمها لتكون صالحة للسّقاية من



برج الأندلس وهو برج زوارة حاليا
تظهر الصورة تهديم جزء منه نتيجة انفجار قنبلة داخل الحصن في 11 جانفي 1888

زغوان إلى حدود مدينة أريانة في عهد المستنصر باللّه الحفصي في سنة 1267 م وتوقّف الجزء الأخير منها الذي يمتدّ من أريانة إلى خزّانات «المعلّقة» بجانب مدينة قرطاج وهو مايقدّر بـ16 كيلومترا من طول جمليّ يقدّر بـ132 كيلومترا من زغوان إلى قرطاج وبالقرب من أريانة بنى الأمير الحفصي ساقية فرعيّة لجلب أوفر



فسقيّة الحنايا تحت المدرسة الصّادقية
تزود مدينة تونس و ميضاء جامع الزيتونة بالماء. (مكان ضريح فرحات حشاد حاليا)

قسط من الماء إلى قصوره ببستان أبي فهر. ولتحديد مسار هذه السّاقية الفرعيّة لا بدّ من تحديد موقع بستان أبي فهر في المراجع التي تحدّثت عنه.

يعدّد لنا المهندس مرسال سولينياك(J.Marcel Solignac) في مقاله القيّم عن هذا الموضوع، وقد أصدره في المجلّة الإفريقيّة سنة 1935، بعض هذه المراجع التي كنّا قد ذكرناها فيما سبق ونذكّرها زيادة منّا في التّوضيح:

1 ـ القصيدة المقصورة لأبي الحسن حازم القرطاجنّي (608 ـ 684 هـ) وهو شاعر أندلسيّ من مدينة قرطاجنّة بالأندلس كما تدلّ عليه نسبته قد جلبته أبّهة بلاط المستنصر بالله الحفصي فمدحه بقصيدة طبّقت شهرتها الآفاق وتناولها كثير من الأدباء بالشّرح والتّحليل ومن بينهم الشّريف الغرناطي (697هـ = 1297م / 760هـ = 1359م). وبلغت هذه القصيدة المدحيّة 974 بيتا. وقد نوّه فيها بالسّاقية الرّومانيّة وبترميم المستنصر لها من البيت 53 إلى البيت 171 .ولا تعطينا هذه الأبيات المعلومات العلميّة المنتظرة عن ساقية الحنايا من حيث مسلكها وارتفاعها وكمّيّة الماء فيها إذ ليست مرجعا تاريخيّا.

2 ـ ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصارفي ممالك الأمصار(1342 ـ 1349م) ويفيدنا بمعلومة واحدة هي أنّ بستان أبي فهر يبعد عن تونس بثلاثة أميال. وعنه يأخذ أيضًا الزّركشي في كتابه «تاريخ الدّولتين: الموحّديّة والحفصيّة».

3 ـ عبد الرّحمان بن خلدون (1332 ـ 1408م). وقد رأينا فيما سبق أنّه وصف غزارة الماء المتدفّق «من فوهة عظيمة إلى جبّ عميق المهوى». ويذكر لنا عناية الحفصي بالقناة القديمة ويصف «بناءها العالي ذا الهياكل الهائلة والقسيّ القائمة على الأرجل الضّخمة».

ثم يدقّق انبعاث الماء من جدار عال إلى جبّ عميق المهوى، متباعد الأقطار مربّع الفناء مجلّل بالكلس». ودقائق هذا الوصف تفيدنا لتحديد الموقع في سيل الماء داخل البستان وتؤكد أن ابن خلدون كان شاهد عيان كما سنبيّنه في تخطيط الفسقيّة وسيل الماء إليها. وقد حدّثنا مؤرّخنا عن أنواع الأشجار في بستان أبي فهر، وذكر جانبا من وظائف الفسقيّة الشاسعة، من ذلك المباراة التي تقوم بها الجواري في الفلك. ويثبت لنا ابن خلدون أنّ الحنايا الرّومانيّة كانت تظهر في أقواس تركب بعضها بعضا وتختفي تحت الأرض في أماكن يفرضها انحدار الأرض أو ارتفاعها. ولنا عنها رسوم تعود إلى القرن السّادس عشر أنجزها الرّسام خوان فرماين (Juan.Vermeyen) الذي صاحب شارل كان الملك الإسباني في حملته على تونس سنة 1535. انظر

JL.Poinssot et R.Lantier, (Les gouverneurs de la Goulette durant l'occupation espagnole) Revue Tunisienne, 1ère Année, 1930.

وقد ساعدت رسوم خوان فرماين على صناعة مجموعة من الزّرابي المعلّقات توجد الآن في متحف القصر الملكي بمدريد.

ويذكر لنا محمد بن علي الرّعيني القيرواني في كتابه «المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس» أنّ تسمية بستان أبي فهر قد أصبحت في القرن السّابع عشر بستان البطّوم.

ونلاحظ أنّ كلّ هذه المراجع لاتقدّم إلاّ معلومات غامضة عن بستان أبي فهر ولا تعين الباحث ليحدّد بدقّة هذا الموقع. وقد ذهب بعضهم عن خطإ إلى أنّ بستان البطّوم هو البطّان بطبربة(انظر (Pellissier et Remusat(1854).

ويذكر المهندس سلينياك (J.M.Solignac) في بحثه الدّقيق أنّ أوّل مكتشف لموقع بستان أبي فهر هو بول كوكلار (Paul..Gauckler) سنة 1902 وكان مديرا للآثار بالبلاد التّونسيّة ويؤكّد أنّه بمقتضى هذا

الاكتشاف اعتبرت فسقيّة بستان أبي فهر معلما تاريخيّا سنة 1912 تبعا لمطلب السيّد م.ب. روا. (M.B Roy) الكاتب العامّ لحكومة الحماية، وكان معروفا بإتقانه للعربيّة وحضارتها.

ويرجع الفضل للمهندس مارسيل سولينياك ـ وقد كان رئيس قسم الجيولوجيا بإدارة الأشغال العامّة في تونس زمن الحماية الفرنسيّة ـ في اكتشاف موقع بستان أبي فهر بجانب مدينة أريانة وفي تحديد مكّوناته المائيّة (الفسقيّة الكبرى والجوابي الفرعيّة وبئر البطوم ومسلك ساقية الحنايا الفرعيّة والأصليّة)، وكذلك في ضبط كلّ المعطيات من حيث كمّيّة الماء والدّفق منذ بداية التّرميم الذي قام به المستنصر باللّه الحفصي والانتهاء منه سنة 1267 إلى تعطّل ساقية الحنايا ووقوف جريان الماء فيها سواء إلى مدينة تونس أو مدينة أريانة (بستان أبي فهر).

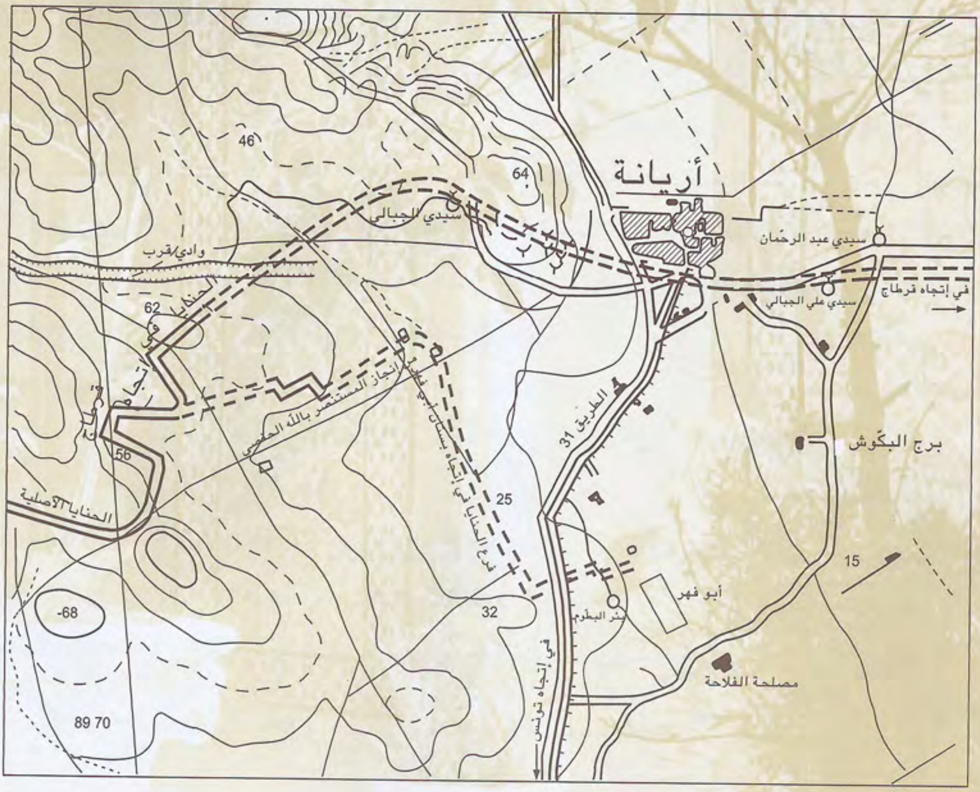


وتمثّل بحثه في دراسة علميّة مثبتة بالمراجع التاريخيّة والتّقصّي الميداني للأماكن جعل له عنوان «أشغال السّقاية الحفصيّة في تونس» (Les travaux hydrauliques hafsides de Tunis)

وانطلق سولينياك(J.M.Solignac) من اكتشاف بول كوكلار(Paul.Gauckler) سنة 1902 ليبيّن أنّ بستان أبي فهر وجد قرب مدينة أريانة مبطلا زعم حسن حسني عبد الوهّاب الذي جعل موقعه في منطقة النّقرة في غابة الجبل الأحمر في أرض كمّ الوطّاء (انظر مقدّمة مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري) في الجنوب الغربي لمدينة أريانة كما نفى سولينياك كذلك زعم بليسيي Pellissier وريموزا

Rémusat اللّذين توهّما أنّ بستان أبي فهر الذي أصبح يسمّى بستان البطّوم في القرن السّابع عشر يوجد بالبطّان قرب الجديدة اليوم. وأساءا فهم نصّ محمّد بن علي الرّعيني عند ترجمتهما له، وهو الذي ذكر تبدّل إسم البستان.

واستطاع سولينياك اعتمادا على بحث ميداني دقيق وبالرّجوع إلى البحث عن الأعمدة المتبقيّة من ساقية الحنايا قرب وادي قرب في الجنوب الغربي من مدينة أريانة وبدراسة المنحدر الأرضي اعتمادا على اختصاصه كمهندس في الجيولوجيا أن يحدّد بدقّة علميّة مسار السّاقية الفرعيّة التي تزّود بستان أبي فهر بالماء (انظر الخريطة الجهويّة لأريانة)انطلاقا من السّاقية الأصليّة المتجهة إلى المعلّقة في مدينة قرطاج وهي التي تمرّ من الجنوب الغربي لمدينة أريانة، فتتخطّى وادي قرب بقطعه. ثمّ تنعرج شرقا لتحاذي مقبرة سيدي الجبالي وتلتصق بمدينة أريانة (وسط المدينة حيث يوجد إلى الآن سارية قائمة يسمّيها العامّة عمود اللقالق) Le pillier des cigognes ثمّ تواصل السّاقية الأصليّة مسارها بين ضريحي الوليّين الصّالحين



سيدي علي الجربي وسيدي عبد الرّحمان في اتّجاه سكّرة (مرورا من دار فضّال محاذية الطّريق نحو العوينة).

وقد عثر على ثلاث فسقيّات (ب،ب1 وج) مرتبطة بهذه السّاقية الفرعيّة. ودورها كبح جماح الماء السّريع الدّفق في السّاقية التي تنحدر بـ00/05,5 إضافة إلى المنعطفات الكثيرة لنفس الغرض، ثمّ لريّ بعض البساتين وسقاية المتساكنين (انظر الخريطة الجهويّة لمنطقة أريانة).وتتكوّن المعالم المائيّة الحفصيّة في

بستان أبي فهر الذي يقع في الجنوب الشّرقي من مدينة أريانة:

1 ـ من الجدار العالي الذي تنتهي إليه ساقية الحنايا بفوهتها العظيمة كما وصف لنا ذلك ابن خلدون

2 ـ من فسقية مستطيلة (14م × 7م) وبجانبها بئر، وفي شرقيّها بئر ثانية وهي بئر الجوابي، وفي الجنوب الغربي بئر ثالثة هي بئر البطّوم. ومن هنا جاءت التّسمية الثّانية لبستان أبي فهر بستان البطوم

3 ـ الجابية الكبرى التي أفاض في وصفها ابن خلدون وهي الموجودة اليوم في وسط مدينة العلوم.

خصائص هذه الجابية في بستان أبي فهر:

إنّ فسقيّة أبي فهر مستطيلة الشكّل لم يبق منها قائما إلى اليوم إلاّ الجدار الغربي وقرابة النّصف من الجدار الجنوبي الممثّل لعرضها. ولم يثبت من جدارها الشّرقيّ إلاّ أحد الأعمدة المقوّية للجدارمن خارجه (الكبش). وتأكّدت مقاييس هذه الجابية الكبرى بالبحث الميداني والحفريّات كما يلي: 209 من الأمتار طولا و80 مترا ونصف المتر عرضا وينتج عن كلّ هذا: 16.824 مترا مربّعا في ثلاثة أمتار من العمق تقريبا، فيكون تعبئتها 475 . 50 مترا مكعّبا ويظهر عظم مساحتها إذا قورنت بجابية الأغالبة المستطيلة في رقّادة على ثمانية أميال جنوب القيروان، وهي التي بناها زيادة اللّه الثّالث بين سنتي 903 و909 للميلاد وتبلغ مساحتها000 . 19 متر مربّع وهي التي تسمّى بالبحر (تكون تعبئتها000 . 19 × 2م =000 . 38 متر مكعّب).

ماهي موادّ البناء التي تتكون منها الفسقيّة الكبرى ببستان أبي فهر بأريانة؟

يفيدنا ابن خلدون في وصفه لبستان أبي فهر عن نوع البناء وموادّه فيقول: «ينبعث من فوهة عظيمة إلى جبّ عميق المهوى، رصيف البناء، متباعد الأقطار، مربع الفناء، مجلّل بالكلس» إنّه يشير إلى الطّلاء الخارجيّ وهو من الكلس وقد تبيّن بعد تحليله أنّه خليط من الجير والجصّ ومسحوق فحم الخشب. ومكوّنات الجدران تتمثّل في حجارة متوسّطة الحجم مرصوصة بواسطة قوالب في خليط طيني من التّراب الحجري. ويقوّي جدران الجابية من الخارج أعمدة مستديرة يبلغ عرضها 2,35م وقد تصل في عرض الجدار 3,20م. والجابية مستطيلة الشّكل يبلغ طولها 209 أمتار في عرض 80,50 من الأمتار وقد يتجاوز عمقها المترين، لذلك يقدّر أنّ امتلاءها يتجاوز 650 . 33 مترا مكعّبا من الماء وقد تمّ إنجاز بنائها كما أسلفنا سنة 666 هـ / 1267م. ويثبت شارل منشكور Ch.Monchicourt أنّ هذه الجابية تسمّى إلى وقت غير بعيد «جابية الحفصي».

ومن المؤكّد أيضًا أنّ المستنصر باللّه الحفصي كان يقضي فترة طويلة من السّنة في بستان أبي فهر مع عدد كبير من أفراد حاشيته من الوزراء والعلماء. وتروي لنا بعض الأخبار حياة البذخ للسّلطان الحفصي في قصوره ببستان أبي فهر قرب أريانة، من ذلك ما ذكره محمّد بن الخوجة في كتابه «تاريخ معالم التّوحيد في القديم وفي الجديد»الصّادر سنة 1985 بتحقيق الأستاذين حمّادي السّاحلي والجيلاني بالحاج يحيى. فجاء في صفحة 289 في سياق الحديث عن العالم النّحوي أبي علي بن موسى ابن عصفور الإشبيلي، الذي سمّيت باسمه المدرسة العصفوريّة بتونس العاصمة: «قال السلطان الحفصي لابن عصفور معجبا ببذخ عيشه وهو جالس على حافة جابيته برياض أبي فهر بأريانة» «لقد أصبح ملكنا عظيما» فأجابه ابن عصفور قائلا: «بنا وبأمثالنا».



بقايا فسقيّة بستان أبي فهر بضاحية أريانة قبل أن تبنى فوقها مدينة العلوم حاليا.

فكانت هذه العبارة النّاطقة بإعجاب الشّيخ بنفسه سببا في القضاء عليه غرقا بتلك الجابية. وفي ذلك ما يدلّ على أنّ أهل العلم أبعد النّاس عن السّياسة. ولوقال له مثلا: «نعم إنّما ذلك بحسن تدبيرك وحصافة رأيك الذي جعلنا نرتع في بحبوحة نعمتك ونخدم العلم على ما يرضي الله ويرضيك» لكان الجزاء شيئا آخر ولكنّها أنفاس معدودة نعوذ بالله من هفوات اللّسان.

وممّا يذكر أنّ السّلطان الحفصي كلّف بعض خدمه ليغرقوا ابن عصفور في الجابية بسبب قوله فرموه في الماء، فكلّما رفع رأسه دفعوه إلى أسفل حتى هلك في الجابية. ويثبت بعض المؤرّخين وجود ثكنة لجيش الحراسة لقصور السّلطان بأريانة في الجهة الغربيّة من بستان أبي فهر على بعد كيلومترين من جنوب جبل النّحلي.ويتكوّن جند الحراسة من المرتزقة النّصارى، لذلك بقي مقرّهم يسمّى إلى وقت غير بعيد «برج العلوج» جمع علج وهو الجندي النّصراني المرتزق في الحراسة الخاصّة للسّلطان. فإنّ سانية أبي فهر وجابية الحفصي وبرج العلوج تثبت وجود قصور المستنصر باللّه الحفصي انطلاقا من المكان الحالي لمدينة العلوم غير بعيد من المعهد الوطني للأرصاد الجويّة. واحتلّت منطقة أريانة النّقطة المركزية لقصور المستنصر باللّه الحفصي وحاشيته حيث البساتين الجميلة. وقد أوردنا شيئا من وصفها في كتب بعض المؤرّخين، كما نوّه الشّعراء بأعمال السّلطان الحفصي وبما قام به في جلب المياه لبستان أبي فهر بأريانة ولجابيته المشهورة من ذلك قول أبي الحسن حازم القرطاجنّي (توفّي سنة 684 هـ / 1386م) مخاطبا السّلطان المستنصر باللّه الحفصي: (الرّجز).

أجريت من عين ومن عين بها ... نهرين قد عمّا البرايا والبرى
وكفّرت طاعته لمؤمن ... طاعته لكافر فيما مضى
وانساب في قصر أبي فهر الذي ... بكلّ قصر في الجمال قد زرى
قصر تراءى بين بحر سلسل ... وسجسج من الظّلال قد ضفا

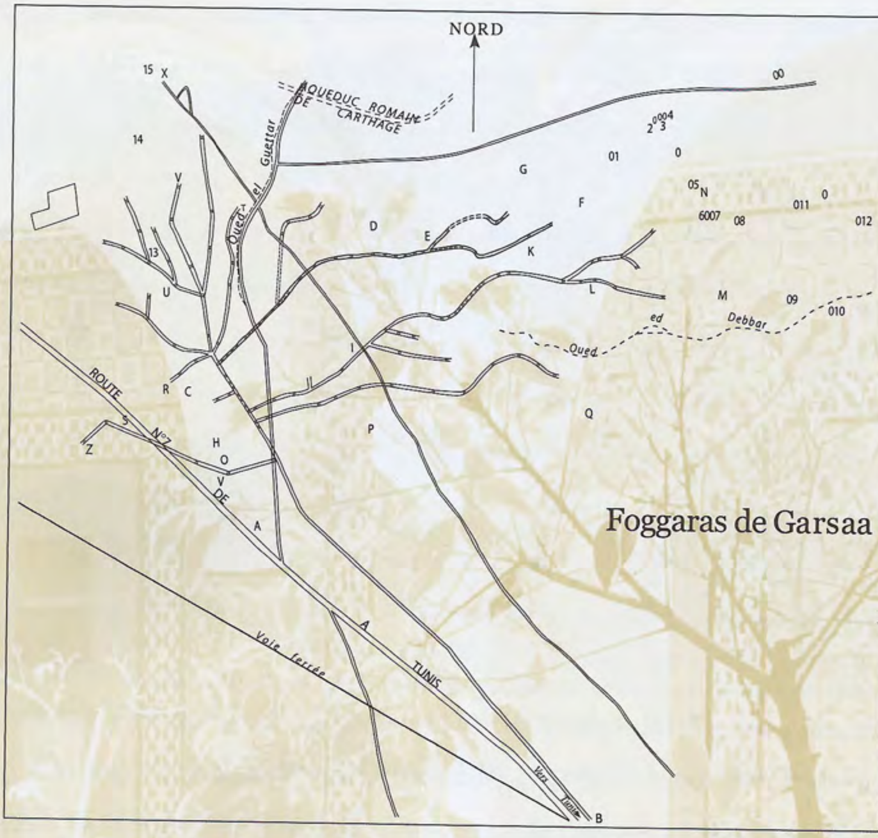
ويذكر أبوعبد اللّه محمّد بن الشمّاع في كتابه«الأدلّة البيّنة النّورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة» الذي ألّفه سنة 861 هـ ـ 1457 م وحقّقه وطبعه الأستاذ المرحوم عثمان الكعّاك سنة 1355 هـ/ 1936 م في سياق الحديث عن فضائل المستنصر باللّه الحفصي مايلي: «ففي سنة ثمان وأربعين (648 هـ/ 1250 ـ 51م) بنيت السّاقية شرقيّ جامع الزّيتونة شرّفه اللّه بذكره».

وأبرز مبتكرات السّقاية والرّيّ التي برجعها بعض الباحثين إلى منتصف القرن الثّالث عشر الميلادي ومدّة ولاية المستنصر باللّه الحفصي (647 هـ/ 1249 م = 675 هـ / 1277م) تتمثّل في استخراج ماء الآبار بطريقة طريفة في بساتين أريانة وخاصّة في منطقة سكّرة وجهة النّقرة في (كمّ الوطاء) بغربيّ المنيهلة. وهذه الطّريقة هي التي تسمّى الفجّارة (أو الفقّارة حسب النّطق بها عند الفلاّحين)، وهي عبارة عن سلاسل من الآبار المتجاورة يفصل بين كلّ اثنين منها مائة متر تقريبا ويجمعها من أسفل في حدود منابع الماء قناة أو نفق. فيتجمع الماء في البئر الأخيرة بغزارة، وقد يطفو على سطح الأرض دون استعمال النّواعير على الطّريقة الأندلسيّة كما كانت منتشرة بكثرة في آبار البساتين بجهة أريانة منذ عهد قريب. وقد لاحظ بعض الباحثين أنّ استعمال الفجّارة أو الآبار المتجاورة وهي من ثلاثة إلى خمسة قد وجد في صحراء الجزائر والمغرب.

وتعود هذه التّقنية إلى أرض فارس (إيران اليوم) ولعلّها قد جلبت إلى بلاد المغرب وإلى منطقة أريانة منذ الفتح الإسلامي عن طريق مختصّين في السّقاية والرّيّ وحفر الآبار من الجند الخراسانيين الذين دخلوا إفريقيّة. ونرى طريقة الفجّارة في الرّيّ ما تزال معروفة في جهات من أرض المغرب: فزّان، وتوات، والتّفللت والجنوب الغربي من المغرب. أمّا في تونس فتستعمل طريقة الفجّارة للرّيّ في واحة القطار بالجنوب الشّرقي من مدينة قفصة. أمّا في جهة أريانة فقد أبطل العمل بها. وذكر لنا أنّ بعض السّلاسل من هذه الآبار قد عثر عليها عندما أصبحت بساتين سكّرة أحياء سكنيّة. ويبقى سؤال يتردّد على الذّهن بعد عرضنا لهذه الأعمال الهامّة للسّقاية والرّيّ في العهد الحفصي وتزويد كلّ من مدينة تونس ومدينة أريانة بالماء الصّالح للشّراب: إلى أيّ تاريخ بقيت ساقية الحنايا تقوم بوظيفتها في تزويد تونس وبستان أبي فهر بأريانة بماء زغوان؟

لم يذكر لنا ابن الشمّاع سنة 861 هـ = 1467 في كتابه «الأدّلة البيّنة النّورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة» عند ذكره لبناء السّاقية شرقي جامع الزّيتونة سنة 648 هـ = 1251 م هل أنّها ما تزال تقوم بوظيفتها إلى حدّ عصره أم توقّفت عن العمل. وقد ثبت لدينا أنّ ما بناه المستنصر باللّه الحفصي أي فرعي الحنايا لتزويد مدينة تونس وجابية بستان أبي فهر بأريانة، قد تمّت الأشغال لتأسيسهما سنة 666 هـ / 1267 م (وسال الماء فيهما في 21 سبتمر 1267م).

وقد ذكرنا شهادة محمّد العبدري الحيحي الرحّالة المغربي في تأليفه «الرّحلة المغربيّة» أثناء زيارته لتونس في طريقه إلى الحجّ. وكانت إقامته في تونس سنة 688 هـ = 1289م وأكّدأن كلامن ساقية الحنايا المزوّدة لجامع الزّيتونة ولمدينة تونس بالماء من جبل زغوان وكذلك ساقية أبي الفهر بأريانة مازالتا تقومان



Foggaras de Garsaa

بوظيفتهما. وقد انتقد قلّة الماء بتونس وازدحام النّاس للتزوّد بما توصله السّاقية إلى عاصمة الحفصيّين على عكس وفرة كمّيّة الماء المتدفّقة في بستان أبي فهر بأريانة. وانتقد العبدري استئثار الأمير الحفصي بأكبر قسط من الماء لقصوره بجوار مدينة أريانة.

وأكّد هذا التفاوت في كمّيّة الماء بين ما تناله العاصمة تونس وبستان أبي فهر بأريانة المهندس الباحث مارسال سولينياك(Marcel Solignac)، وقدّر هذا التّفاوت في كمّيّة الماء اعتمادا على اتّساع مجرى السّاقيتين بأن ما يزوّد الحاضرة تونس هو عشر الكمّيّة الواصلة إلى جابية بستان أبي فهر. وقدّر كذلك أنّ ماتحويه الجابية يعادل مرّتين ونصف ما يخرج من عين زغوان في اليوم، أي قرابة 50.475 مترا مكعّبا. وهذه الكمّيّة الكبيرة المتدفّقة من أعلى جدار الحنايا ببستان أبي فهر بأريانة هي التي أثارت إعجاب عبد الرّحمان بن خلدون. وقد سجّل لنا ذلك في كتاب العبر في الجزء السّادس.

وسجّل لنا العبدري في نهاية القرن الثّالث عشر ما كان فيه سكّان تونس العاصمة من نقص للماء الصّالح للشّراب في قوله: «وأمّا السّاقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد استأثر بها قصر السّلطان وجنانه إلاّ رشحا يسيرا سرّب إلى ساقية جامع الزّيتونة يرتشف منها في أنابيب من الرّصاص،ويستقي منها الغرباء ومن ليس في داره ماء،ويكثر عليها الازدحام». وله بعد ذلك وصف مطول لبناء الحنايا الرّومانية. ويلفت انتباهنا قوله المتعلّق بترميم الحنايا «وقد كان بعض الأمراء وهو أخو القائم بها الآن احتاج إلى إصلاح بعض الحنايا بها مّما يلي تونس ليوصل الماء إليها إذ كانت معطّلة قبله، فأقام في عملها مجتهدا بأقصى مايمكنه أعواما

عديدة. ولم يمكنه ردّ ذلك على ماكان عليه ولامايقرب منه، بل اقتنع بتسديده كيفما أمكن مع قلّته وتفاهته بالإضافة إلى غيره» ويظهرمن شهادة الرحالة المغربي محمد العبدري الحيحي أنّ ساقية الحنايا مازالت تقوم بوظيفتها في سنة 688 هـ / 1289 للميلاد وأنّ قصورالحفصي ببستان أبي فهر بأريانة مازالت معمورة وتستأثر جابيتها الكبيرة بأوفر قسط من الماء على حساب مدينة تونس وسكّانها وخاصّة جامع الزّيتونة. ولا يصلها جميعا إلاّ عشر كمّيّة الماء التي تزوّد قصور السّلطان وحاشيته بأريانة.

ونظيف إلى ذلك شهادة عبد الرّحمان بن خلدون في النّصف الثّاني من القرن الرّابع عشر. وقد وصف لنا تدفّق المياه في جابية بستان أبي فهر بأريانة. وقد أوردنا هذا النّصّ من الجزء السّادس في كتاب التّاريخ (كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر). وجاء حديثه في سياق ذكر أخبار المستنصر باللّه الحفصي وأعماله العمرانيّة الكبيرة. ونعلم أنّه أدخل تنقيحات في تأليف كتابه في التّاريخ وهو في تونس قبل أن يقدّمه إلى السّلطان أبي العبّاس الحفصي (772هـ - 796هـ / 1370م - 1394م) وقبل أن يغادر تونس نهائيّا إلى مصر حيث كانت وفاته في القاهرة سنة 808هـ / 1406م.

ويبدو من وصفه لتدفّق الماء في بستان أبي الفهر من أعلى الحائط الحامل للساقية من أعلى الحنايا، ومن دقّة تعداده لأشجار البستان، ومن إعجابه بروعة مانقل إلينا، أنّه كان شاهدا بالعين لكلّ مانقل ومطّلعا على المكان بالحضور. وهذا ليس غريبا إذ كان ابن خلدون من المقرّبين من السّلطان وواحدا من أفراد حاشية السّلطان أبي العبّاس الحفصي. ونتأكّد من شهادته أنّ ساقية الحنايا الجالبة لماء زغوان إلى أريانة وقصور بستان أبي فهر لا تزال حينئذ في القرن الرّابع عشر،عصر ابن خلدون، تقوم بوظيفتها. فمتى تعطّلت عن العمل وانقطع تدفّق الماء منها ؟

نجيب تخمينا عن هذا السّؤال باستقراء الوضع السّياسي للدّولة الحفصيّة وبالرّجوع إلى مرجعين هامّين: ـ 1 «تاريخ الدّولتين «للزركشي، و ـ 2 «الأدلّة البيّنة النّورانية في مفاخر الدّولة الحفصيّة» لابن الشمّاع».

لكنّ جميع المراجع التي عدنا إليها بما في ذلك المتأخّرة منها عن العهد الحفصي ككتاب المؤنس لابن أبي دينار لا تسعفنا بالجواب الصّحيح عن تاريخ تعطّل ساقية الحنايا عن وظيفتها في تزويد مدينة تونس وحدائق أريانة وخاصّة قصور المستنصر باللّه في بستان أبي فهر بأريانة بتلك الكمّيّات الهائلة من الماء الصّالح للشّراب والرّيّ وهي المجلوبة من جبل العرائس (Les Nymphées) من زغوان. ولئن شهد جلّ الباحثين المختصّين في الهندسة المائيّة والجيولوجيّة، ومن أبرزهم مارسال سولنياك(Marcel Solignac)، بالخصائص التّقنيّة العالية للأشغال الحفصيّة هندسة وإنجازا، فانّ ما يلاحظ أنّ السّلاطين الحفصيّين بدءا من الأمير الحفصي الثّاني أبي زكريّاء الأوّل ومواصلة بعده الأمير الحفصي الثّالث المستنصر باللّه ـ وقد كان حكمه ممثّلا لقمّة الازدهار الحضاريّ في كلّ الميادين ـ قد أقدموا على مشاريع لتزويد السّكّان بما يلزمهم من الماء ذات قيمة ونبيلة الأهداف، تدلّ على سياسة متميّزة في عدلها وتأسيسها للعمران في أبرز مظاهر الرقيّ والقوّة.

لكنّ هذه المشاريع التي أنجزوها في تزويد مدينتي تونس وأريانة (بستان أبي فهر) بالماء الصّالح للشّراب والرّيّ

رغم قيمتها الفنيّة والهندسيّة العالية أصبحت عرضة للتوقّف والتّعطّل المستمرّين في عهد المستنصر باللّه نفسه وكذلك في عهد أبي عمرو عثمان الأمير الحفصي العشرين (1435 ـ 1467م) خاتمة العقد لأمراء بني حفص.

وفي مدة حكمه الطّويل تعددّت المشاريع الحفصيّة لجلب المياه لحاضرة تونس التي بلغت مائة ألف ساكن وسبق أن ذكرنا ملاحظة الرحّالة المغربي محمّد العبدري الذي انتقد قلّة الماء في تونس العاصمة وكثرته في بستان السّلطان في قصوره بأريانة. وقدّر مارسال سولينياك هذه الكمّيّة الوافرة من الماء بعشرة من أحد عشر 11/10 من دفق عين الماء من زغوان فتكون كمّيّة الماء الواصلة إلى تونس بين 245 مترا مكعّبا إلى 1272 من الامتار المكعّبة أي بين ليترين فاصل خمسة وأربعين (2,45 ل) وإثني عشر لترا فاصل سبعة(12,7 ل) لكلّ فرد من السكّان.

ومن مزايا الأعمال التي أنجزها الأمير الحفصي أبوعمر عثمان هو تحقيقه لحفر آبار الفجّار وتزويد عاصمة تونس بماء «كمّ الوطاء»من الجهة الواقعة في الجنوب الغربيّ لمدينة أريانة غير بعيد عن قرية المنيهلة. وعوّض بذلك النّقص المائي الذي استأثر به قصر أبي فهر بأريانة، فأمر بفصل السّاقية الآتية من باردو عن السّاقية الآتية من النّقرة. وإنّ هذه الإصلاحات المتواصلة للمشاريع المائيّة في العهد الحفصي تثبت أنّ ساقية الحنايا بفرعيها إلى تونس وإلى أريانة (بستان أبي فهر) كانت صالحة إلى نهاية القرن الخامس عشر (عهد الأمير أبي عمرو عثمان الحفصي). ولايكون توقّفها بصفة نهائيّة كما نرى إلاّ في بداية القرن السّادس عشر مع زحفة الإسبان بقيادة الملك شارل كان سنة 1535 مع ما نعلم من تخريب أصاب البلاد وظلم شتّت العباد وأتى على مظاهر الحضارة وقوّض أسس العمران.

ولكن لسائل أن يسأل اليوم: ماذا بقي من كلّ المعالم والمواقع الحفصيّة التي بذلنا جهدا كبيرا في استقراء الوثائق التّاريخية لتحديدها في مظهرها وأماكنها وخاصّة في الوظائف العمرانيّة التي قامت بها ؟

فلقد تأكّدنامن وجود قصور المستنصر باللّه الحفصي (1249 ـ 1277) في بستان أبي فهر بجانب أريانة وما توفّر فيها من أبّهة وجمال رائع بجابيتها العظيمة والأجنّة الغنّاءة حولها. ولقد كان السّلطان يقضي سهرات تحت الخيام في فصل الرّبيع في جزيرة شكلي وسط بحيرة تونس ليتمتّع بجمال هذه القصور من بعيد.

وثبت لنا وجود ثكنة لجيش الحراسة لقصور السّلطان بأريانة في الجهة الغربيّة من بستان أبي فهر على كيلو مترين من جبل النّحلي جنوبا وتسمّى برج العلوج. كما ركّزنا المخطّط الدّقيق لمسار ساقية الحنايا من وادي قرب إلى جابية أبي فهر.لكنّ يد الزّمان قد أتت على هذه المعالم فامّحت مع الأيّام وقد أوصلنا البحث إلى تحديد مواقعها وتقديم ما أمكن منها في صور تؤسس ما كان منها في واقع الأمر.

ويرى بعض الباحثين أنّ القصور الحفصيّة تمتدّ إلى حدود روابي قمّرت المطلّة على البحر. ومنهم من يذهب به الافتراض إلى أنّ «قصر ابن عمّار» الذي كان قائما في حدود الأربعينات من القرن العشرين قرب مصلحة المزروعات التي تحوّلت إلى المدرسة العليا للفلاحة قد بني على أنقاض أحد القصور الحفصيّة الرّائعة البناء والتّزويق في عهد ازدهارها في القرن الثّالث عشر للميلاد والقرن الرّابع عشر كذلك إذ كان الأمير الحفصي يخرج منه للتفسّح في البحر والإقامة في جزيرة شكلي وسط البحيرة حسب ابن فضل اللّه العمري في كتابه «مسالك الأبصار»، فينعم برؤية قصوره وبساتينها من بعيد.

ولاشكّ أنّ هذه القصور الحفصيّة كانت كثيرة حول مدينة أريانة إذ يثبت لنا المهندس مارسال سولينياك أنّه زار صحبة الباحثين (بوانسو Poinssot) وجورج مارسي Georges Marçais ضيعة بسكّرة على ملك أحد الفرنسيّين هو السيّد قلنقوGalongau، ولاحظوا وجود جابية مبنيّة منذ العهد الحفصي على نمط جابية بستان أبي فهر لها 32,15 م طولا و30,15 عرضا، ويقدّر امتلاؤها بما قدره 1248 مترا مكعّبا من الماء ويسمّيها العامّة من الفلاّحين المجاورين بجابية الحفاصة. ومن خصائص تعبئتها أنّها تقع بطريقة آبار الفجّارة أو الفقّارة المتتالية في سلاسل أو خطوط انحدار كما وصفنا ذلك آنفا.وتعبئة الجابية تقع من البئر الأخيرة التي يعلو مستوى الماء فيها جدار الجابية. ويغلق المجرى المائي ببوّابة على طريقة أرخميدس. ويستنتج من هذا تواصل طريقة الرّيّ وسيلان الماء التي أخذها الحفصيّون عن سابقيهم من الرّومان.

ويذهب أحد الباحثين وهو جان دنتوارJean dAnthouard إلى أنّ العديد من القصور الحفصية كانت منتشرة في بساتين سكرة قرب أريانة. وعلى أنقاضها بني برج أو قصر البكّوش الذي مازال قائما يحدّثنا عن ماض معماري مجيد بزخارفه الرائعة وتزويق جدرانه البديع. كما بني كذلك قصر رافّو Raffo على حافّة الطّريق رقم 13 وقد أهداه أحمد باي المشير الأوّل إلى وزيره الكونت رافو وهو خاله إذ كانت أمّ احمد باي علجية أي حظيّة مجلوبة من بلاد النّصارى. ويوجد رسم لرافّو رأيناه معلّقا في قاعة جلوس الباي قبيل الاستقلال. وإلى جانب قصر رافّو بأريانة وغير بعيد منه كان يوجد قصر إيلي شمّامة، وكان رئيس الخزينة في عهدأحمد باي سنة 1850 .ولم يبق من هذا القصر إلى عهد بعيد سوى ساريتي باب الدّخول تحملان تاجا من الحديد المشبّك عثرنا على صورة لهما. ولعلّ هذا القصر قد شيّد هو الآخر على أنقاض أحد القصور الحفصيّة.

ونخصّص فصلا فيما سيأتي لوصف ما تبقّى من هذه القصور بصفة مدقّقة ومستفيضة. فبساتين أريانة قد اشتهرت بأبهى القصور وأجملها قبل أنّ يأتي عليها الزّحف العمراني الحالي ويقضي على وجودها.

فمن المعلوم أنّ السّقاية والرّيّ ودورهما في إرواء سكّان المدن وتزويد المزارع والفلاّحين بالماء قد كانا النّقطة المركزيّة في السّياسة الحفصيّة وقد مثّلا النّقطة الإيجابيّة في ازدهار الحضارة الحفصيّة وقاما بدور هامّ في النمّو العمراني وازدهار الصّناعات والفلاحة في الحاضرة تونس وما حولها وفي مختلف المدن داخل البلاد.

وقد ركّزنا اهتمامنا على أهمّ معلم واكب ازدهار الدّولة الحفصيّة وتألّق نجم حضارتها بدءا من ثالث أمرائها وهو المستنصر باللّه الحفصي (1249 ـ 1277) إلى حين قرب أفول نجم هذه الدّولة، وهذا المعلم هو ساقية الحنايا. وما من شكّ أنّ فترة احتلال الإسبان عندما دخلوا البلاد بقيادة ملكهم شارل كان (الخامس)سنة 1535 للميلاد قد شاهدت توقّف هذا المعلم الإروائي الضّخم عن العمل، فامتدّت إليه يد التّخريب، فاستعملت صخوره لبناء حصن حلق الوادي المعروف بالكرّاكة وبناء قصر البستيون الذي سكنه الملك الإسباني طيلة إقامته في تونس، ومكانه هو سفارة فرنسا اليوم بباب البحر.

ودخلت البلاد في مرحلة الانحلال الحضاري والتّقهقر العمراني والصّراع العنيف بين الإسبان والأتراك انتهت بمعركة حلق الوادي الحاسمة سنة 1574 للميلاد بين الطرفين وأدخلت في فوضى سياسيّة واجتماعيّة لم تكن تعرفها من قبل.

ترميم ساقية الحنايا في العهد الحسيني:

ويسعفنا البحث واستقصاء المراجع في تتبّع تاريخ ساقية الحنايا ببعض المعلومات تفيدنا بترميمها من جديد وإعادة وظيفتها وتمكين سكّان مدينة تونس من ماء زغوان بواسطتها وذلك بعد سقوط الدّولة الحفصيّة وانتهاء الاحتلال الإسباني للبلاد التّونسية. لكنّنا لا نظفر بصفة دقيقة بوصف ضاف لما أدخل على ساقية الحنايا من ترميم أنقذها مرّة أخرى من الإهمال والإتلاف والتّوقّف عن سقاية سكّان الحاضرة تونس. فقد أصلحت وأعيدت لوظيفتها في مرّتين الأولى في القرن الثّامن عشر، والثّانية في القارن التّاسع عشر وبالتّحديد في سنة 1859 أي في عهد المشير الثّاني محمّد باي (1855 ـ 1859).

يبادرنا في هذا الصّدد الباحث الفرنسي مارسال إمريت، في مقال بعنوان «الدّخول الصّناعي للبلاد التّونسيّة»، صادر في المجلة الإفريقيّة سنة 1952 في صفحة 199 بقوله: «إنّ الحنايا الرّومانيّة البديعة التي يبلغ طولها 132 كلم، توصل مياه جبل زغوان إلى العاصمة. وقد قطعها الغزاة مرّات عديدة، ووقع ترميمها في القرن الثّالث عشر، وألحقت بها السّاقية الإضافيّة المارّة من مدينة باردو. ثمّ تعطّلت لانعدام الصّيانة. وهذا الجزء الأخير وهو الّذي أنجزه المستنصر باللّه الحفصي قد وقع إصلاحه في القرن الثّامن عشر ولكنّ دفقه لم يعد سوى أربعة مترات مكعّبة من الماء في اليوم. وفي سنة 1859 أقدم محمّد الصّادق باي على إعادة بنائه وتحسين مردوده. فأصبح صبيب ساقية الحنايا المجدّدة، بعد سنتين من ذلك التّاريخ، سبعة عشر ألفا من الأمتار المكعّبة من الماء في اليوم (000 . 17م3).

"Le magnifique aqueduc romain, long de 132 Kilomètres, qui conduisait à la capitale les eaux de Jebel Zaghouan, plusieurs fois coupé par les envahisseurs, restauré au XIIIé siècle, et complété par celui du Bardo, avait péri, faute d'entretien. Le dernier œuvre remarquable d'Al-Mustansir, avait été restauré au XVIIIè siècle, mais n'avait plus qu'un débit quotidien de 4 mètres cubes. En 1859 Mohamed-es Sadok s'était décidé à le reconstruire et à l'améliorer... Deux ans après, le nouvel aqueduc débitait 17.000 mètres cubes d'eau par jour."
Marcel Emerit : La pénétration industrielle en Tunisie. (Revue Africaine 1952)

نستنج من هذا المقال أنّ ساقية الحنايا قد حظيت بترميم في القرن الثّامن عشر دون دعم لهذا القول ويفهم من هذا الزّعم أنّ التّرميم خصّ فرع السّاقية الحفصيّة المارّة من مدينة باردو فحسب، بمقتضى الصّبيب الضّئيل الّذي يسيل منها (4 أمتار مكعّبة من الماء). ونستنتج من هذا المقال أيضًا أنّ محمّد الصّادق باي، المشير الثّالث هو الّذي أقدم في سنة 1859 على إعادة بناء ساقية الحنايا وتحسين مردودها ليصبح دفق الماء فيها سبعة عشر ألفا من الأمتار المكعّبة من الماء في اليوم. وهذا الزّعم الثّاني يبطله أحمد بن أبي الضّياف في الجزء الرّابع من كتاب الإتحاف، في تحليل ضاف «للخبر عن ماء زغوان، الشبيه بالسّيل العرم على هذه الإيالة» بدءا من صفحة 261 وهو كما نعلم شاهد عيان لهذا الحدث ومطّلع مباشر لكامل أطواره، إذ يثبت أن قرار ترميم ساقية الحنايا وإعادتها لوظيفتها قد كان بإرادة محمّد باي، المشير الثّاني (1855 ـ 1859) وبإيعازمن قنصل فرنسا ليون روش (Léon Roches) لما له من نفع ماديّ خاصّ له في هذه العمليّة. فيقول: «كان في ذي الحجّة من السّنة 1275هـ (جويلية 1859م) (مع العلم أنّ محمّد

الصّادق باي لم يتولّ الحكم إلاّ في 22 سبتمبر 1859 تاريخ وفاة أخيه المشير الثّاني محمّد باي). ويواصل أحمد بن أبي الضياف قوله: «قدم لهذه الحاضرة مهندس فرنساوي اسمه كولان (Jean Colin)، وتعلّق بفنصل الفرنسيس ليون روش المتقدّم ذكره ودبّر معه لفائدة نفسه في أنّ جلب الماء من زغوان وجقّار يمكن وصوله بلا كلفة إلى الحاضرة وباردو وحلق الوادي والمرسى على الحنايا القديمة والمجاري السابقة في أنابيب من معدن يؤتى بها من فرنسة.

ويقال إنّه ساهم القنصل بجزء وافر من الربّح - واللّه أعلم - غير أنّ اجتهاد القنصل في جلب هذا الماء، والحرص على إتمام العقد حرص السّمسارين، لا يبعد هذا الظّنّ لأنّه كان يترامى على الامتزاج بالباي كما تقدّم، غير معتبر لخطّته، حتّى أنّه كان يطرقه ليلا في بستانه وأوقات راحته، لأمر هو يعلمه. فأتى الباي مرّة وقال له: «من سعادتك أنّ مهندسا فرنساويّا ظهر له أنّ الماء يجلب من زغوان للحاضرة وحلق الوادي والمرسى بأيسر مصروف».

وتردّد على الباي في ذلك تردّد السّمسار الملحّ، وهو يرفل في احترام دولته وسوّل له أن هذا الماء عندما يصل إلى الحاضرة تهرع النّاس إلى شراء أنابيب منه لدورهم، ويوفّرون ثمن الدّلاء والحبال ويستغنون عن مصانع الماء، ويشتري منه من يريد شغل الأرض بالأشجار والنبات، وتكثر الأشجار وتنمو الفلاحة، وتحصل من ثمن ما يباع من الماء أضعاف ما يدفع في جلبه، إلى غير ذلك ممّا ينمّقة البائع في تحسين مبيعه.

ولمّا سمع الباي ألفاظ نموّ العمران، وشغل الارض بما يقتضي التّخفيف من الجباية الموظّفة على الرّؤوس، إذ كانت مناط نظره، لا سيما وقد وعد بإسقاطها في منشور الإعانة، لأنّ الأداء على الرؤوس مما تستثقله النّفس الإنسانيّة، لا سيما الأمّة المسلمة، لما يرونه من الشّبه بالجزية الّتي من أسرار ضربها على الكافر إلجاؤه إلى الدّخول في الملّة الّذي هو مناط نظر الشّارع، ولمّا سمع ذكر التّخفيف، مال إلى استحسانها ورآها صلاحا، وأكثر مصارع الرّجال تحت بروق الأطماع، فاغتنمها القنصل.

وكان هذا الباي جدّيّ السّجيّة، يبني الأمور على ظواهرها، وطمع في كلّ ما يسمع من غير إعمال فكر ولا تبصّر في العواقب.

ومن الغد جمع رجال دولته وقصّ عليهم أضغاث رؤياه لهذه المصلحة، فبادروا بالإنكار على لسان واحد، وهو المتبادر على البديهة، وبيّنوا له شبه المغالطات، عدا الوزير أبي النّخبة مصطفى خزندار، لأنّه حضر الموطن مع القنصل، ورأى شره الباي وشهوته، فطفق يحسّن بمقدّمات خطابيّة، شأن الوزراء لملوك الإطلاق كما تقدّم في العقد الأوّل من المقدّمة.

وأمّا الوزير خير الدّين فإنّه علم استحسان الباي لهذه المصلحة وأنّه انفصل فيها مع القنصل فسكت، وربّما أعان إعانة من يعلم أنّ حضوره للسّماع لا للمشورة الحقيقيّة وظهر ذلك من حاله.

وحاصل ما قال له رجال الدّولة في هذه المصلحة، الّتي هي في الحقيقة للمهندس ومن كان على شاكلته، إنّ هذه الحاضرة اتّفق تأسيسها على غير ماء، فاتخذ أهلها المصانع في دورهم لجمع ماء المطر للشّرب ولا تخلو دار من بئر للاستعمال في غير الشّرب وتأسيس أبنيتها على هذا الاعتبار، وبها من الفساقي لجمع ماء المطر ما يكفي لوصلحت، وسقاياتها مجلوب لها الماء من عين الجبل الأحمر، حتّى قال له أبو عبد اللّه

محمّد عامل السّاحل: «إنّ جلب الماء من زغوان يستدعي مصروفا كبيرا، فأعطني عشره أصلح منه سائر الفساقي وأجري الماء لسائر السّقايات وأحكم بناء السّاقية، وإذا لم يكف أكمل ذلك من عندي». فقال له: «لا يمكن ذلك» فقالوا له: «إذا لا يشتري أحد، إذ لا داعي له، إلاّ من يريد النّزهة بجريان الماء ونبعه، وهم أقلّ من القليل مع أنّهم يقولون إنّ ماء زغوان وخم، على أنّ ماء زغوان ثلاثة أرباعه مملوكة لأربابها، اشتروها بأموالهم من الدّولة، يقتسمونها بينهم لدورهم وأرحيتهم وأشجارهم فاذا أخذ منهم تتضرّر أشجارهم المعتادة بالسّقي، ويؤدّي ذلك إلى نقص في عمران الإيالة بموت هذه الأشجار، ولا ضرورة لذلك إلاّ مجرّد التّحسين. مع أن الأنابيب الجاري فيها الماء لا تخلو من صرف كثير دائم بدوامها، وهذا مصرف زائد لا داعي له.

وليس هذا ممّا يحسن فيه الاقتراض، لأنّ التّداين يغتفر في الأمور الضّروريّة إلى غير ذلك ممّا يعلم بالبداهة، لكنّ الشّهوة حجاب يغطّي نور العقل، ومن أطاع هواه ضلّ، ومن اشترى ما لا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه، ومن ساس نفسه ساس جنسه.

ولمّا لم يجد قوّة لردّ شهوته، قال للجماعة: «أعطيت كلمتي للقنصل في ذلك»،فعند ذلك تنفّس الأمير خير الدّين، وقال له: «أيّ فائدة لجمعنا حيث أعطيت كلمتك، وحسبنا سماع هذا الخبر من سيادتكم»، فقلت له: «قد وقع الوعد ولم يقع انفصال، ولا أقلّ من أن نشدّد من شروط هذا الاتّفاق حتّى يكون الامتناع من جهته»، فقال لي: «المؤمن عند لفظه». ولمّا خرجنا ضرب بيده على كتفي، وقال لي: «إن شاء اللّه يصل هذا الماء لتونس وتطلب الشّراء منه ولا نبيعه لك»، فأمّنت على دعائه.

وأمر بعمل الاتّفاق مع المهندس على يد القنصل، ومحصّله سبعة ملايين ونصف مليون فرنك تدفع للمهندس مكاتيب على آجال، والدّولة تدفع ربا المكاتيب ستّة على المائة، وتدفع ثمن الأنابيب حالاّ، إلى غير ذلك ممّا سوّدت به وجوه الطّروس، في ذلك الاتّفاق المنحوس الّذي نتيجته أنّ الدّولة تداينت بربا لتحسين موهوم، إذ لا ناضّ عندها، وآزداد بذلك صرف على الدّولة لا قبل لها به وأفضى إلى زيادة وهن وضعف.

ولمّا كان هذا الباي خلّص هذه الإيالة بإعانة الوزير خير الدّين من ورطة الدّين الذي أمر به ابن عمّه المشير احمد باي ليصرفه على العسكر التّونسي بإسلامبول إلاّ أنّه أوقعها في ورطة أفظع وأشنع، ومحا حسنته الأولى بسيّئة هذا الماء الّتي هي أعظم أسباب الخراب، لأنه أتى بها ومزاج الدّولة والمملكة في مرض الهرم.

وهذا من ثمرات الملك المطلق، وسبحان من انفرد به وهو الحكيم الخبير. وحسب الوزراء أنّهم لمّا رأوه عمد إلى خرق السّفينة تكلّموا، ولمّا أراهم شهوته وجموا، ولوكان لهم قانون أخذوا به على يده فسلم وسلموا، لكنّهم خافوا فأحجموا، ولمّا أدركها الغرق ندموا، فكانوا كما قيل:

تبغي النّجاة ولم تسلك مسالكها   إنّ السّفينة لا تجري على اليبس

وهذا الماء هو السّبب الّذي جرّ إلى ما بعده من أسباب النّقصان والخراب، وكذلك يريهم اللّه أعمالهم حسرات عليهم. وللّه فينا علم غيب نحن صائرون إليه. والمرجوّ من فضله وعلمه اللّطف بعباده الّذين قادتهم أعمالهم إلى ربقة القهر ولا يظلم ربّك أحدا.»

يمكن القول إنّ ترميم ساقية الحنايا قصد إعادتها إلى وظيفتها لسقاية سكّان الحاضرة تونس بماء زغوان في سنة 1859 قد شغل فكر أحمد بن أبي الضّياف وهو من رجال الدّولة في عهد المشير الثّاني محمّد باي (1855 ـ 1859)، كما شغل فكر خير الدّين وهو وزير البحر قبل أن يتولّى منصب كاهية المجلس الأكبر (البرلمان) بقليل (1860م). ونستنتج من موقفهما مع بقيّة رجال الدّولة، من خلال هذا النّصّ الّذي أوردناه لابن أبي الضياف في الجزء الرّابع من كتاب الإتحاف، أنّهما استاءا لما وقع فيه محمّد باي من ورطة في قبضة سماسرة السّياسة وقد سقط في أحبولة أحبك خيوطها قنصل فرنسا ليون روش(Léon Roches)وهو من هو دهاء وحنكة في خدمة منافعه وجلب الفوائد الجمّة لأبناء جنسه أمثال المهندس كولان (Colin) الّذي استطاع ان ينال ثقة الباي فيتحصّل على أرباح طائلة من أشغال اضطلع بإنجازها في نطاق تعصير مؤسّسات الدّولة التّونسيّة أسوة بالدّولة الأوروبيّة وفي مقدّمتها فرنسا. وقد أنجز المهندس جان كولان ـ وهو أحد أقارب ليون روش، قنصل فرنسا،على حدّ قول جان قانياج (Jean Ganiage) في كتابه «أسباب الحماية الفرنسيّة لتونس» (ص670) (1861 ـ 1881) :

Les origines du protectorat français en Tunisie

إلى جانب ترميم ساقية الحنايا، بناء مقرّ جديد للقنصليّة الفرنسيّة ودفعت مصاريف شراء الارض والبناء من خزينة الباي وكان هذا المقرّ هديّة منه إلى قنصل فرنسا. أمّا أشغال الحنايا فقد وصلت كلفتها إلى أحد عشر مليون ريال بعدما كانت التّقديرات لا تتجاوز السّبعة ملايين.

ونورد تقريرا في هذا المضمار من أرشيف الجيش الفرنسي بقلم الكولونيل كمبنون (Le Colonel Campenon) إلى المرشال رندون (Le Maréchal Randon)يذكره جان قانياج في كتابه ص 191 يقول: «لقد انتهت أشغال الحنايا الّتي ارتفعت كلفتها إلى أحد عشر مليون ريال، إلاّ أنّ توزيع الماء في المدينة لم يقع. لكنّ الدّولة لم تكن راضية ـ عن صواب أو عن خطإ ـ من أجل التّكلفة الباهضة ورداءة الأشغال. لهذا فقد حرم المقاول القائم بالأشغال من استثمار توزيع المياه. ويخشى تدهور ساقية الحنايا قبل أن يستعمل الماء الّذي كانت كلفته باهضة وذلك بسبب ما عرف عند هؤلاء العرب من الكسل والتّخاذل».

L'aqueduc de Zaghouan qui a couté déjà 11 millions de piastres est terminé, mais la distribution des eaux dans la ville n'a pas été faite.Mécontent , à tort ou à raison du prix élevé et de la qualité des travaux, le gouvernement a refusé à donner à l'entrepreneur français de l'aqueduc, l'entreprise de la distribution des eaux. Avec l'indolence des maures, il est à craindre que l'aqueduc ne soit en ruines avant que l'eau venue à si grands frais ne soit utilisée

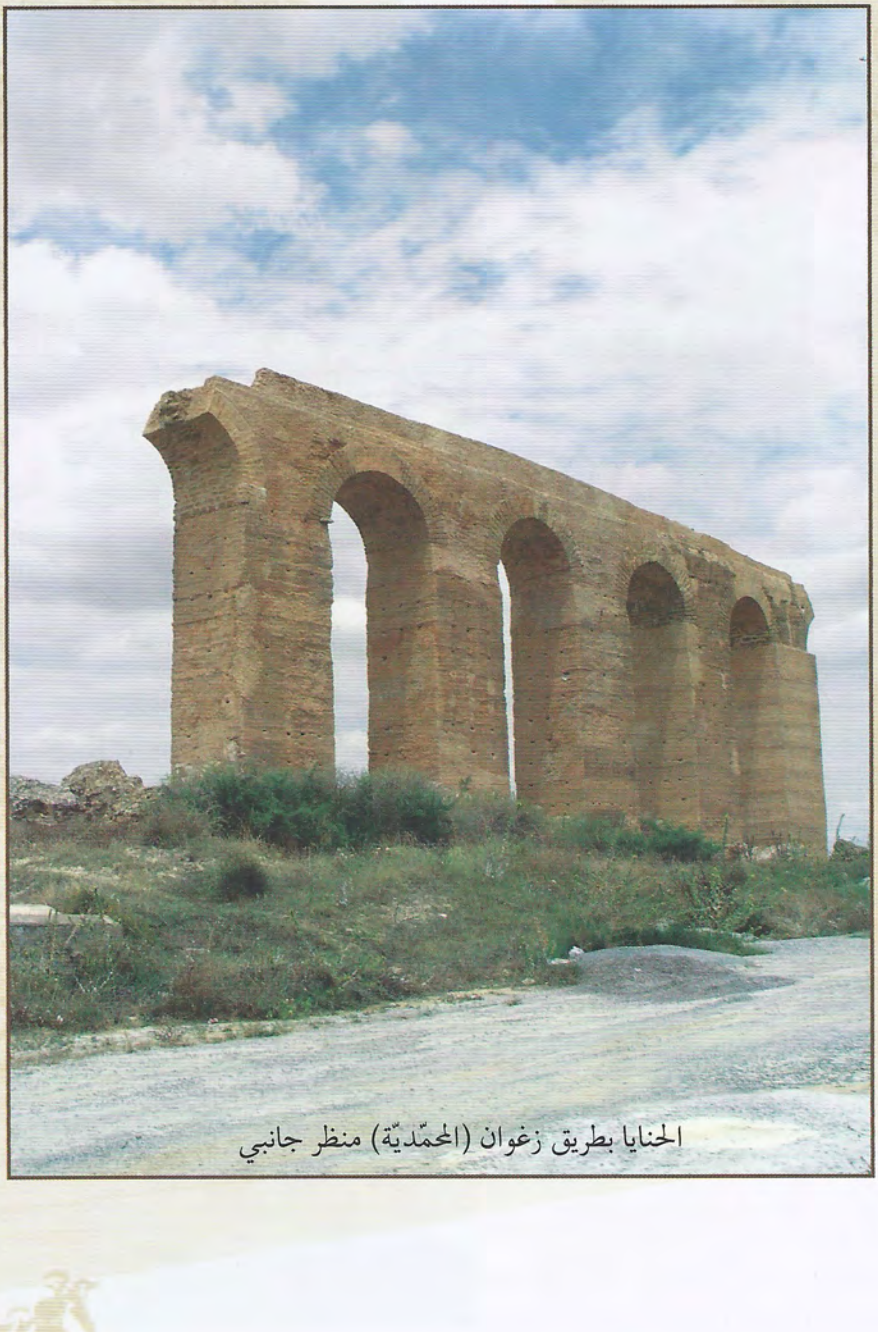
ولا يهدأ بال أحمد بن أبي الضّياف بسبب ما تسبّب فيه ترميم ساقية الحنايا من المصاريف الباهضة ومن ثقل على ميزانيّة الدّولة وإفلاس لها نتيجة التّصرّف الأخرق الّذي قام به الباي دون استشارة مجلس وزرائه فقرّر بمفرده إنجاز هذا المشروع استجابة للحيلة الّتي حبكها قنصل فرنسا ليون روش. وكانت لهذه القضيّة تبعات وخيمة على ميزانيّة الدّولة ووزر ثقيل على اقتصاد الإيالة جرّاء الدّيون الّتي سارت بالبلاد إلى الفقر والفوضى وآلت بها إلى ثورة شعبيّة عارمة قادها علي بن غذاهم، في سنة 1864 م، عرفت فيها تونس موجة من الفوضى وعمّت أهلها المجاعة والخصاصة. فيقول أحمد بن أبي الضّياف في الجزء الخامس من كتاب الإتحاف (ص96)، في شأن القروض المتعلّقة بترميم ساقية الحنايا، وهو المشروع الّذي تورّط في إقراراه محمّد باي وواصله خليفته محمّد الصّادق باي:

«وفي شوّال من السنة 1279هـ (مارس - أفريل 1863 .) ظهر للباي في مجلسه الخاصّ بموافقة أكثره أن يبدل الاقتراض السّابق الّذي أصيبت به البلاد لأجل جلب الماء وطاعة الهوى . ومن أطاع هواه أعطى عدوّه مناه». وقد كان هذا الاقتراض من تجّار يهود وغيرهم من سكّان البلاد بحيث أنّ فائدة الاقتراض لا تخرج من البلاد، فحوّله إلى تاجر فرنسيس بباريس.

وكان عقدة هذا الاتفاق النّحس في الثّامن عشر من ذي القعدة في السنة 1279 هـ (الخميس 7 ماي 1863م) ومجموع المال المستقرض يومئذ خمسة وثلاثون مليونا من الفرنك، المقبوض منها على أقساط تسعة وعشرون مليونا وخمسة وعشرون ألفا، والبقيّة طارت بها العنقاء.على أنّ الفائدة تدفع لهذا التّاجر في كلّ عام من جباية الإعانة (وهذا الأداء المعروف بالإعانة وهو عن الطّلبة المهاجرين من أوطانهم لطلب العلم الشّريف بالحاضرة. وقد سقط عنهم بأمر من الباي وبموافقة المجلس الاكبر في شوّال سنة 1279 (مارس - أفريل 1863م) - (انظر نفس المرجع ص 96)، وقدرها أربعة ملايين ومائتا ألف .وبعد خمس عشرة سنة وستّة أشهر يكون هذا التّاجر خالصا في رأس ماله وفائدته بناء على الفائدة تدفع له في كلّ عام عند حلول أجلها، إلى غير ذلك ممّا سوّدت به صحائف ذلك الاتّفاق .ودفع ربّ المال مليونا معجّلا على وجه الهديّة للباي، ذكر أنّ ذلك عادة في أمثال هذا الاقتراض، وحديث هذه الهديّة سمعناه من لفظ الباي.

وتحدّثت النّاس في سرّ هذا التّبديل، وراجت العقول في المذاهب الممكنة، وإن اتّفقوا على شيء واحد وهو إيثار الفرنسيس بالرّبح. ووضع ثقل ذلك على متن الوزير أبي النّخبة مصطفى خزندار وحده، ولا طاقة لمتنه وحده على حمل هذا الثّقل .وتحدّث التّجار - في مجمعهم بباب البحر- أنّ هذا التّاجر هادى أفرادا من خواصّ الوزير بأموال ذكروا مقاديرها، واللّه أعلم بحقيقة الحال، وهو المسؤول أن يحسن المآل».

وهذا الفيض من خواطر ابن أبي الضياف في قضيّة ترميم ساقية الحنايا في القرن التّاسع عشر (1859م) أوردناه لنتبيّن حملته على حكم الباي المطلق دون مشورة أولي الأمر من دولته في أخذ القرار وانسياقه مع الهوى على حدّ قوله، وذلك من أجل صعوبة إنجاز هذا المشروع وإن كان يبدو حيويّا لسكّان مدينة تونس قصد تزويدهم بالماء الصّالح للشّراب وكذلك سقاية ضواحي تونس كما جاء في قوله من «باردو وحلق الوادي والمرسى على الحنايا القديمة».



الحنايا بطريق زغوان (المحمّديّة) منظر جانبي





الحنايا بطريق زغوان (المحمّديّة) وفي أعلاها
فتحات قناة المياه



منظر أفقي للحنايا بطريق زغوان (المحمّدية)





الحنايا بطريق زغوان (المحمّديّة) وفي أعلاها فتحات قناة المياه



جزئية لمجرى المياه في أعلى الحنايا



جزئية من الحنايا بباردو



جزئية من الحنايا بباردو



منظر جزئي فوقي لخزّان مياه بطريق قرطاج

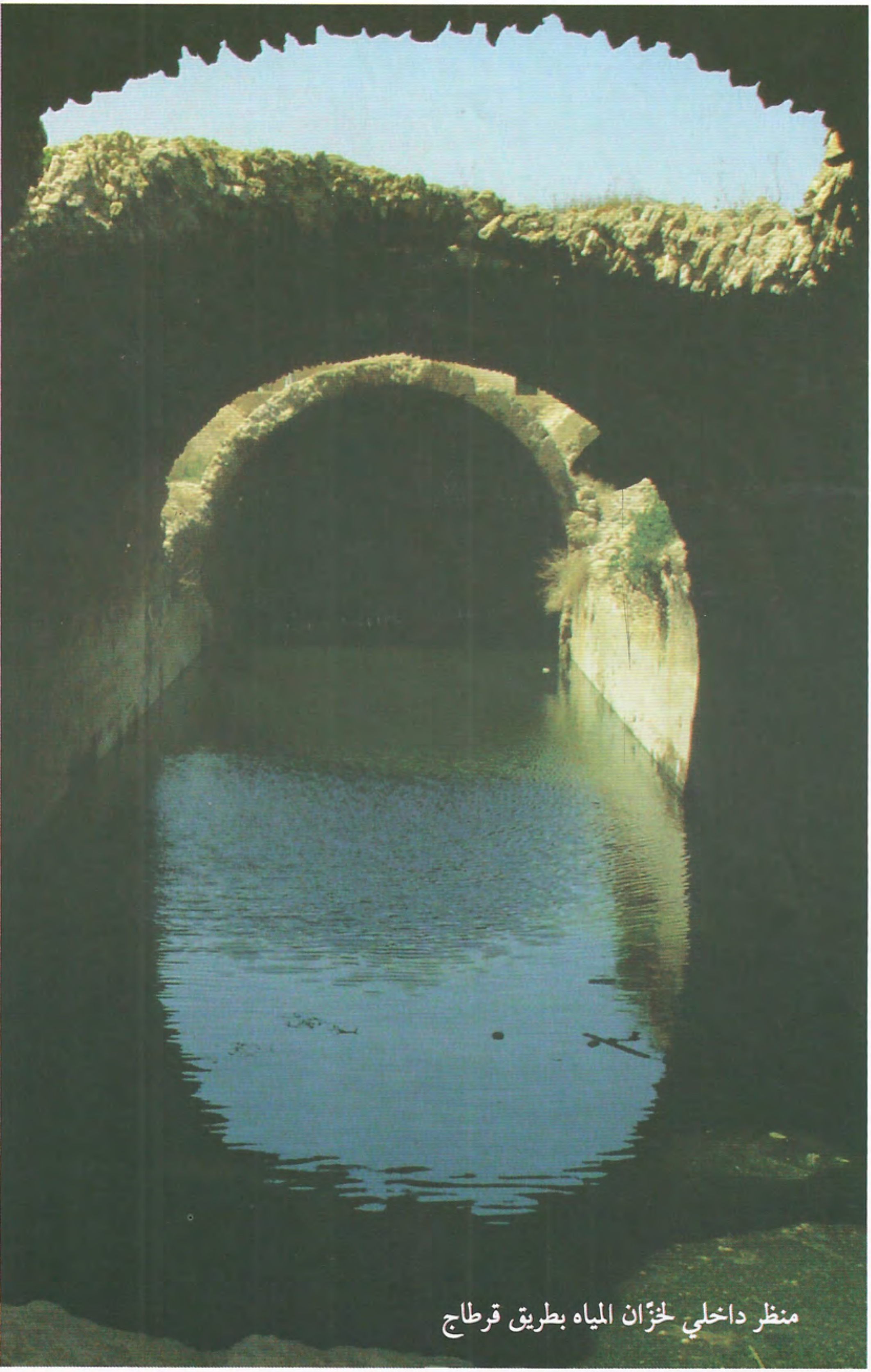



جزئية من خزّانات المياه بطريق قرطاج



منظر جزئي فوقي لخزّان مياه بطريق قرطاج





منظر داخلي لخزّان المياه بطريق قرطاج



منظر جزئي فوقي لخزّانات المياه بطريق قرطاج


بقايا فسقيّة بستان أبي فهر بضاحية أريانة (ولاية تونس) مدينة العلوم حاليا.


بقايا فسقيّة بستان أبي فهر بضاحية أريانة (ولاية تونس) مدينة العلوم حاليا.

ولا يمكن إنجاز هذه الأشغال دون المرور من مدينة أريانة ـ وإن لم يذكرها في نصّه ـ إذ ساقية الحنايا تمرّ حتما منها حسب المخطّط الّذي ضبطناه لها من جهة سيدي الجبالي، فبرج الوزير فبساتين سكّرة فدار فضّال، فقرية العوينة إلى خزّانات المعلّقة قرب مدينة قرطاج، إذ لا يمكن سقاية حلق الوادي والمرسى دون اتّباع هذا المسلك.

وقد كانت كلفة ترميم ساقية الحنايا تفوق إمكانات ميزانيّة دولة محمّد الصّادق باي فكان اللّجوء إلى الاقتراض من المرابين من داخل البلاد أوّلا ثمّ وقع التّوجّه إلي الاقتراض من خارجها، من تاجر فرنسيّ بباريس. وكان في هذا الاقتراض جانب كبير من التّزوير فمكّن بعض الأطراف من اختلاس قسط وافر منه ممّا جعل ابن أبي الضّياف يقول: «والبقيّة طارت بها العنقاء» وكان لقنصل فرنسا جانب من هذا التحيّل لفائدته واغتنام المشروع لمن والاه من بطانته وهو المهندس كولان (Collin).

وكان مشروع ترميم ساقية الحنايا في ظروف عصيبة شهدت فيها البلاد التّونسيّة ضعفا لا مزيد عليه في الإنتاج الفلاّحي وحالة متدنّية جدّا من الجفاف نتج عنها فقر سكّان البوادي وانخرام النّظام نتيجة الإسراف في مصاريف الدّولة، فالتجأ الباي إلى اتّباع سياسة خرقاء اعتمد فيها ـ لتدارك الوضع ـ على القروض الأجنبية فكانت انتفاضة السّاحل التّونسي ثمّ ثورة العروش من سكّان البوادي بقيادة على بن غذاهم في سنة 1864م. فأتت على الأخضر واليابس وأدخلت الإيالة في الفوضى وانعدام الأمن.

وبقي لنا أن نسأل ـ بعد هذا التّرميم الأخير لساقية الحنايا في تاريخها الطويل، في سنة 1859 في دولة محمّد الصّادق باي (1859 ـ 1882م) ـ ما هو حظّ مدينة أريانة من ماء الحنايا بعد زوال الفرع الحفصي منها وبعد مرور الإسبان سنة 1535 بقيادة شارل كان (الخامس)، وهذا الفرع من الحنايا الحفصيّة هو الّذي كان يمرّ من بئر بلحسن في اتّجاه قصور المستنصر باللّه الحفصي (1249 ـ 1277م) ببستان أبي فهر، وتتدفّق مياهه في فسقيّته العظيمة الّتي تضمّ آثارها إلي اليوم مدينة العلوم في الجنوب الشّرقيّ من مدينة أريانة؟

من المتأكّد أن فرع ساقية الحنايا الّذي شيّده المستنصر باللّه الحفصي لتزويد بستان أبي فهر، في الجنوب الشّرقيّ من مدينة أريانة بماء زغوان، بعد ترميم السّاقية الأصليّة القديمة، وذلك بين سنتي 1250 و1267 م أي 648 و666 هـ، هذا الفرع قد اندثر ولم يعد ذكر لساقية الحنايا في اتّجاه بستان أبي فهر حيث قصور السّلطان الحفصّ وذلك في فترة التّنافس التّركي الإسبانيّ في تونس بين سنتي 1535 و1574 م (أي من سنة 942 إلى سنة 981هـ)

أمّا إعادة الحنايا في العهد الحسيني، في سنة 1859 إلى وظيفتها وتمكين حلق الوادي والمرسي من

ماء عين جبل العرائس بزغوان وعين جقّار، بعد أن أتمّ المهندس الفرنسي كولان (Collin) ترميمها ومدّ القنوات الحديديّة الّتي أمر الصّادق باي شراءها من فرنسا، فلا يمكن أن يكون ذلك إلاّ باعادة ترميم الجزء الأصليّ من ساقية الحنايا القديم وهو الّذي أهمل القيام به المستنصر باللّه الحفصي، وهذا الجزء من السّاقية القديمة يقدّر بستّة عشر كيلومترا طولا وهو الّذي يمرّ من مدنية أريانة في مقبرة سيدي الجبالي، متّجها في طريقه بين زاويتي سيدي عبد الرّحمان وسيدي علي الجربي فيقطع بساتين سكّرة ثمّ ينكسر في اتّجاه الشّرق شاقّا سواني دار فضّال ومنها إلى قرية العوينة لتتدفّق مياهه في خزّانات المعلّقة في الشّمال الغربي من مدينة قرطاج.

وخلاصة القول إنّ ساقية الحنايا في تاريخها الطّويل (أي قرابة ألف وخمسمائة سنة) منذ إنشائها إلى توقّفها نهائيّا عن العمل قد مثّلت معلما تاريخيّا عظيما كان له دور حاسم وفعّال في سياسة السقاية والرّيّ في جزء هامّ من البلاد التّونسيّة وخاصّة في حياة سكّان الحاضرة تونس وأحوازها الشّماليّة وأخصّها مدينة أريانة وما حولها من بساتين سكّرة ودار فضّال وسيدي داود والعوينة، كما كان لها انعكاس على الوضع الاقتصادي وما تردّت فيه دولة محمّد الصّادق باي من ورطة القروض لدى الانتهازيّين من تجّار الفرنسيس وسماسرتهم فآل إلى إضعاف خزينة البلاد وإفقار الايالة وتجويع الشّعب وإيقاظ نعرة الثّورة والفوضى بسبب قروض مجحفة كانت من بين أسباب فرض فرنسا المراقبة الماليّة على بلادنا وتهيئة الطّريق لامضاء اتّفاقيّة الحماية الفرنسيّة في 12 ماي 1881 . وما كان من الصّادق باي إلاّ


منظر للحنايا الجديدة على هضاب قمّرت
بعد ترميمها في القرن 19 على عهد محمد الصّادق باي في 1859

الزّيادة في الضّرائب وإثقال كاهل سكّان المدن والقرى بأنواع جديدة من الجباية مكّنت عمّاله داخل البلاد من استعمال سياسة القهر والإذلال ممّا جعل ابن أبي الضياف يقول: «تونس الفقيرة حسّا ومعنى» وينقل قول الفلاّح الّذي ينظر إلى محراثه فيصعّد زفراته من أعماق قلبه: «آه ياسبب شقاي» هذا المحراث الذي كان في سالف الأيّام وسيلة إنتاجه وآلة خير لأسرته ولجميع بني وطنه.

أريانة الدرع الواقية لمدينة تونس

أريانة المدينة المجاهــدة

«من أشهر الحوادث الواقعة في أيّام المستنصر باللّه الحفصي (1249 ـ 1277م) هذا السّلطان العظيم، زحفة (لويس التّاسع)ملك فرنسا (1225 ـ 1270م) إلى تونس. وبيان ذلك أنّ (شارل دانجو) شقيق هذا الملك وصاحب جزيرة صقلّيّة أغرى أخاه على غزو تونس لتكون تابعة له، فلم يتردّد ملك



ملك فرنسا القدّيس لويس التّاسع (1215-1270)

فرنسا في إجابة طلبه، ولا سيّما قد ظاهره وشجعه على مقصده كثير من ملوك النّصارى وعلى رأسهم (البابا). فجهّز لويس الملقّب بالقدّيس أسطولا شحنــه بأربـعين ألــف مقاتل نزلوا بأطلال قرطاجنّة في

26 ذي القعدة سنة 668 هـ / 17 جوان 1270م.ودارت رحى الحرب بينهم وبين الجنود التّونسيّين وتواصل الكفاح نحو ستّة أشهر. وضاق الخناق بين الطّرفين، فصادف أن فَشَا مرض الوباء في تونس، ثمّ تمادى إلى جيش الفرنسيّين، فهلك به خلق عظيم من جملتهم الملك لويس في 10 محرّم سنة 669 هـ = 25 أوت 1270م. وبذلك انتهت الحرب وأقلعت الجنود الفرنسيّة بعد أن أغرمها المستنصر مالا اتّفقوا عليه على وجه الصّلح.وأمر السّلطان المذكور من حينه بتخريب بقايا قرطاجنّة لئلاّ تكون مطمحا للنّصارى».

إنّ حملة الجيوش الفرنسّية على تونس سنة ,1270 المعروفة في كتب التّاريخ بالحملة الصّليبيّة الثّامنة بقيادة ملك فرنسا لويس التّاسع الملقّب بالقدّيس لويس تعني مدينة أريانة بصفة مباشرة كما سنبيّن ذلك.

ونقدّم وجهة نظر مؤرّخ الدّولة الحفصيّة أبي عبد اللّه محمّد ابن الشّمّاع الذي شغل خطّة قضاء الأمحال في عهد السّلطان الحفصي أبي عمر عثمان الذي امتدّت مدّته من سنة 839 هـ / 1435 م إلى سنة 894 هـ / 1488م. وقد أورد أخبار هذه الحملة الصّليبيّة الثّامنة في كتابه «الأدلّة البيّنة النّورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة» سنة 861 هـ / 1457 م حيث يقول «في ذكر نزول النّصارى بتونس مع ملك الفرنسيس وما السّبب في ذلك: أنّ مادعاه للنّزول بتونس فيما زعموا أنّ تجّار أرضه ادّعوا على اللّحياني بعد نكبته أنّهم أسلفوه 300 دينار ذهبا من غير أن يستندوا إلى شئ في ذلك أو لسبب، فامتنع السّلطان من إعطائهم فشكوا إلى ملكهم فامتعظ لهم وعمّر على تونس.

وقيل إنّ السّبب في حركته على تونس «أنّ الفرنسيس (أي ملك فرنسا) ذكر عند المستنصر فقال «هو الذي أسره هؤلاء فأطلقوه (يشير إلى الأتراك الذين كانوا بين يديه)، وكان اجتمع له منهم جماعة وافرة احتقارا لأمره. فبلغ الفرنسيس (أي ملك فرنسا) مقالته فحقد عليه وحشد أهل ملّته واستعان بملوكهم فطلب منه السّلطان المهادنة فامتنع من ذلك وأغلظ للرّسول، وعرّفه أنّه متوجّه إليه، فبعث السّلطان رحمه الله لأهل الأقطار يستفزّهم.

وكان الفرنسيس في عام سبعة وأربعين وستمائة (1249 ـ 1250م) نرل على مدينة دمياط (على نهر النّيل في مصر في الحملة الصّليبيّة السّابعة)، فأمكن اللّه منه، فأخذ وقيّد ووكّل به فتى اسمه صبيح، وسجن بدار بمصر تعرف بدار ابن لقمان بعد أن مزّق جيشه كل ممزق (بقيادة الملك الظّاهر بيبرس) 1223 ـ ,1277 في مدّة أقلّ من تسعة أشهر. وحمل الفرنسيس (أي ملك فرنسا) وطيف على جمل، ووجهه لذنبه مع عدّة من عظماء أصحابه وطيف بهم.

وافتدى الفرنسيس نفسه بقناطير من الذّهب، وحلف أن لا يطأ أرض المسلمين بعدها أبدا، فأبت

نفسه الخبيثة إلاّ نكث العهد، وشرع في حركته إلى تونس، فكتب إليه صاحب الدّيار المصرّية من نظم كمال الدّين بن مطروح أبياتا، وبعث بها مع رسول أنشدها له وهو قائم بمجلسه (البحر السريع):

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق من قؤول فصيح

آجرك اللّه على ما جرى ... من قتل عبّاد يسوع المسيح

قد جئت مصر تبتغي أخذها ... تحسب أن الزّمر ياطبل ريح

فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكلّ فرسانك أودعتهم ... بسوء تدبيرك بطن الضّريح

سبعون ألفا لا يرى منهم ... إلاّ قتيل أو أسير جريح

إن كان باباكم بذا راضيا ... فربّ غبن قد أتى من نصيح

وقل لهم إن أزمعوا عودة ... لأخذ ثأر أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطّواشي صبيح

ومن الملاحظ أنّ هذا البيت الأخير بقي مثلا يضرب إلى اليوم للإدلال على استقرار الأمور على حالها دون تغيير فيقال بشيء من التّحريف «دارلقمان على حالها»

ويواصل ابن الشّمّاع فيقول: «ومن غريب الاتّفاق أنّ الفرنسيس (أي ملك فرنسا لويس التّاسع القدّيس) لمّا دخل تونس قال أحد أدبائها شعرا حسنا،(على بحر الخفيف):

يافرنسيس هذه أخت مصر ... فتهيّأ لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر ... وطواشيك منكر ونكير

والطّواشي ـ كما جاء فيما سبق في لهجة أهل مصر في ذلك العصر ـ هو العبد المسخّر لخدمة الملك الأسير واسمه صبيح.

ويعلّق ابن الشّمّاع على البيتين السّالفين بقوله: «فصدقت الأقدار قوله ومات بأرض المعلّقة (قرب قرطاجنّة) وأقبر بها وكان نزوله على تونس في يوم الخميس السّادس والعشرين لذي القعدة سنة ثمان وستّين (668 هـ ـ 17 جوان 1270م) بجموع وافرة فرسانا ورجالا ورماة، ومددهم متّصل كلّ يوم بالرّجال والأقوات والعدّة.

(كانوا زهاء ستّة آلاف فارس وثلاثين ألف من الرجّالة،فيما حدّث به ابن خلدون عن أبيه) انظر ابن خلدون كتاب العبر الجزء 6 ص 668).

«وفي عاشر محرّم من عام تسعة وستّين (669 هـ / 29 أوت 1270م) توفّي طاغيتهم الفرنسيس

أصبح ميّتاحتف أنفه. وقيل أصابه سهم غريب في بعض المواقف فأماته.(يسميّه ابن خلدون سنلويس بن لويس: ج 6 ص 665). ويذكر صاحب كتاب العبر أنّه مات بمرض الوباء. وقيل السّلطان بعث إليه بسيف مسموم مع سليمان بن حزام مع سليمان الدلاّجي كان فيه هلاكه. وأرسل اللّه عليهم وباء أمات كثيرا منهم. وطلبوا الصّلح في أوائل ربيع الأوّل (اكتوبر 1270) فصالحهم السّلطان ـ رضي اللّه عنه ـ على الانصراف إلى بلادهم من غير تعرّض لجهة من جهات المسلمين خشية أن يطأوا بعض البلاد،فلا يقدرون على مدافعتهم على أن يدفع لهم ألف قنطار ومائة قنطار وعشرة قناطر من الفضّة الخالصة في مدّة خمسة عشر عاما، فتمّ الصّلح ودخل المسلمون محلّتهم وباعوا معهم واشتروا، فكانت مدّة إقامتهم بتونس أربعة أشهر وعشرة أيّام.

ولمّا انصرفوا أرسل اللّه عليهم ريحا أهلكت كثيرا منهم ثمّ بعد وصولهم لبلادهم حدث بهم من الضّرّ ما أفنى جميعهم وكانوا يتحدّثون بما رأوا من نجدة أهل إفريقيّة وكثرة أمدادها وقوّة جهادها مع أنّ السّلطان ـ رحمه الله ـ لم يخرج إلى قتالهم ولا باشره. وكان ملازما لبابه ألف فارس من الشّجعان يقفون عند باب العدوّ إلى أن رحل النّصارى عن تونس.

وفي أثناء إقامتهم كانت بينهم وبين المسلمين زحوف استشهد فيها من سبقت له من اللّه الحسنى. ومات في القتال خلق كثير من عظماء النّصارى ومن سائرهم. ختم اللّه لهم بالشّقاوة. وكان نزولهم على تونس سببا في إتلاف الأموال التي تركها المولى أبوزكرياء ـ رحمه الله ـ وغيرها ممّا جعله السّلطان بعد وفاته لأنّ جميع الأرزاق للأجناد والأعراب والوفود كلّها من بيت المال لانقطاع السّبل وأسباب المعاش. وكان كلّه ابتلاء للمؤمنين وتمحيصا. قال تعالى: «ونبلوكم بالشّرّ والخير فتنة وإلينا ترجعون»«(الأنبياء الاية: 35)».

ويستنتج ممّا نقله ابن الشمّاع مؤرّخ الدّولة الحفصيّة في كتابه «الأدلّة البيّنة النّورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة» عن أطوار الحملة الصّليبيّة الثّامنة وما دار فيها من أحداث العديد من الفوائد عن الموقف الرّسمي تجاه نزول ملك فرنسا القدّيس لويس التّاسع. فيرشدنا عن أسبابها وهو دين بعض التجّار الفرنسيس الذي بقي في ذمّة اللّحياني، هذا من جهة، ويصرّح عن الشّكّ الذي حام حول موت ملك فرنسا، فهل كان سببه سهم أصابه في المعركة أم مرض الطّاعون الذي تفشّى في بقيّة عناصر الجيش، ثمّ هل دفن في المعلّقة قرب قرطاجنّة قبل أن ينقل رفاته فيما بعد لمّا عاد ما تبقّى من جيوشه إلى فرنسا ؟

وأبرز ما يفيدنا به ابن الشمّاع أنّ جيوش المستنصر باللّه الحفصي لم تشارك في القتال حسب قوله: «فلم يخرج السّلطان إلى قتالهم ولا باشره» وهذا يثبت كما سنبيّن ذلك من مصادر تاريخيّة أخرى أنّ المقاومة لجيوش النّصارى كانت متمثّلة في تحرّكات شعبيّة تزعّمها شيوخ وعلماء بثّوا روح

الجهاد والتّصدّي للمعتدين.

ونقدّم وجهة نظر أخرى معاصرة عن الأسباب التي دفعت ملك فرنسا القدّيس لويس التّاسع ليوجّه حملته الصّليبيّة الثّامنة ضدّ تونس بعدما فشل في حملته الصّليبيّة السّابعة التي قصد بها تخليص بيت المقدس وتخضيد شوكة الملك الظّاهر بيبرس فكان نصيبه الأسر - كما أسلفنا - ولم ينج إلاّ بدفع ضريبة باهظة افتدى بها نفسه وإنّ لتوجّهه إلى تونس سنة 1270 أسبابا عديدة يستعرضها باحث مختصّ في تاريخ الدّولة الحفصيّة هو روبار برنشفيك ROBERT BRUNSHVIG في الجزء الأوّل من أطروحته لنيل شهادة دكتوراه الدّولة الصّادر في باريس سنة 1940 في صفحتي 56 و57 وعنوانها «بلاد البربر الشّرقيّة على عهد الحفصيّين من النّشأة إلى موفّى القرن الخامس عشر».

" La Berbérie Orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV éme siécle "

يتعرّض في بادئ الأمر إلى وجود علاقات ديبلوماسيّة بين الحفصي سلطان تونس ولويس التّاسع ملك فرنسا الذي تلقّى مبعوثي المستنصر باللّه في أكتوبر سنة 1269م .ومبعوثو الحفصي جاؤوا - إلى جانب طلب مصادقة ملك فرنسا - للتّفاهم في أموال التّجّار الفرنسيس التي بقيت في ذمّة اللّيّاني ولا اللّحياني كما قال ابن الشّمّاع آنفا. وقد كان الحفصي أمر بقتله لأسباب لا نعلمها وقد كان التّجّار طلبوا من ملكهم التّدخّل في حقّهم ولا يرى الأستاذ برنشفيك أنّ هذه القصّة كانت وحدها سببا في تحرّك لويس التّاسع للقيام بالحملة الصّليبيّة الثّامنة. لكنه يرجّح أنّ ملك فرنسا مازالت به رغبة الانتقام من السّلطان الظّاهر بيبرس الذي أسّره سابقا وحال دونه ودون مدّ نفوذه على بيت المقدس، فأراد احتلال تونس وجعلها قاعدة لشنّ حملته على مصر والأراضي المقدّسة في فلسطين.

وزادت طموح القدّيس لويس التّاسع للسّيطرة على تونس المغالطة التي غذّاها بعض القساوسة الدّومينيكان والفرنسيسكان القائمين بالتّبشير والدّعوة إلى المسيحيّة ومفادها أنّ المستنصر باللّه الحفصي قد أصبح متهيّئا لاعتناق المسيحيّة وهذا أمر يسهّل على ملك فرنسا مدّ نفوذه على تونس. ويعلّق الأستاذ برنشفيك أنّ هذا الحلم الذي راود القدّيس لويس ليس غريبا عندما نحلّل شخصيّة هذا الملك الذي أصبح لعبة في يد رجال الكنيسة. وقد انطلت عليه حيلهم وأعمى بصيرته التّعصّب الدّيني. وقد انضمّ هؤلاء القساوسة إلى جيشه وأصبحوا يسيّرون حميّة المقاتلين ويتحكّمون في عاطفتهم الدّينيّة العمياء.

إنّ هذا الحدث الجسيم الذي تعرّضت إليه البلاد التّونسيّة أيقظ وعيا قويّا من التّضامن عند جميع أفراد المجتمع. وقد أصبحوا مهدّدين في ممتلكاتهم وأعراضهم ودينهم إذ لم تكن حملة ملك فرنسا لويس التّاسع غير حملة صليبيّة بتأييد من البابا قصد تنصير كلّ البلاد والقضاء على القاعدة الإسلامية فيها.

ويذكر المؤرّخ الفرنسي شارل أندري جوليان Charles André Julien في كتابه «تاريخ إفريقيا الشماليّة» (ج2 ص 138) ما يثبت نيّة ملك فرنسا لويس التّاسع الذي صمّم على تنصير البلاد التّونسيّة فيقول: «نفهم أكثر عزم القدّيس لويس الذي حثّه الرّاهب ريمون مارتان Raymond Martin أستاذ اللّغة العبريّة واللّغة العربيّة في دير الدّومينيكان Dominicain بتونس وصديق الخليفة. فملك فرنسا أعلم أو ظنّ أنّه فهم أنّ المستنصر كان عازما على اعتناق المسيحيّة. ويرجع بعضهم حسن نيّة القدّيس لويس إلى المخادعة الإسلاميّة دون مبرّر لذلك. وقد أبدى الملك تحمّسه إلى أمكانية نقل إفريقيّة إلى مركز قويّ للمسيحيّة أو على الأقلّ قاعدة لمقاومة بيبرس سلطان مصر الذي أصبحت تحرّكاته محفوفة بالمخاطر.

وإنّ المسرح الذي دارت فيه أحداث هذه الحرب التي كادت تقضي على الدّولة الحفصيّة بين المستنصر باللّه في عزّ قوته وملك فرنسا القدّيس «لويس التّاسع»، كان مدينة أريانة وسهلها المحاذي لقرية العوينة الفاصلة بينها وبين قرطاج.

فما كان من المستنصر باللّه الحفصي ـ وقد تأزّمت العلاقات مع الصلبيّين الذّين رفضوا المهادنة ـ إلاّ أن توجّه بالنّداء إلى الجهاد ضدّ هذه الزّحفة الصّليبيّة، فهبّ النّاس من كلّ حدب وصوب. وقد سبق أن ذكر لنا ابن الشمّاع في كتابه «الأدلّة البيّنة النّورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة» أنّ السّلطان لم يشارك بجيوشه في هذه الحرب «ولم يخرج إلى قتالهم ولا باشره». وكان ملازما لبابه ألف فارس من الشّجعان يقفون عند باب العدوّ إلى أن رحل النّصارى من تونس فكان المقاومون للنّصارى من عامّة الشّعب.

وللحديث عن المشاركين من المقاتلين في هذه المعركة لا بدّ أن نوضّح الوضع الاجتماعيّ والعقائديّ في البلاد التّونسيّة عامّة وفي أريانة وضواحيها خاصة، هذه المدينة التي اضطلعت بمسؤوليّة الدّفاع عن شخصيّة البلاد بكاملها، وتصدّر أهلها ومن قدم إليهم من أقاصي الجهات للجهاد في سبيل حماية حوزة الدّين الإسلامي من زحفة النّصارى وردّ كيدهم في نحرهم.

فما هو حينئذ الوضع الفكري والثّقافي والعقائدي في هذه الرّبوع قبل قدوم الصّليبيّين إلى قرطاج وتربّصهم بالبلاد شرّا؟

إنّ العودة إلى تاريخ البلاد التّونسيّة قبل نشأة الدّولة الحفصيّة أي في مستهلّ القرن السّابع الهجرى (الثّالث عشر للميلاد) ـ إذ اعتلى أول أمير حفصي عرش تونس وهو أبو محمّد عبد الواحد في 10 شوّال من سنة 603 هـ 10 ماي 1207 م حسب عبد الرّحمان ابن خلدون (ج6 ص 583) ـ نتمكّن بها من الاطّلاع على خصائص الحياة الثّقافيّة حينما امتدّ نفوذ الموحّدين من غرب بلاد المغرب إلى شرقها، فبدأوا يوطّدون أسس الثّبات والاستمرار والنّجاح لمذهبهم عن طريق النّفوذ السّياسي. فبدأ

في نفس الحين انتشار التّعليم الصّوفي وإرساء مبادئه بطرق مختلفة ضمنت التّركيز والاستمرار في أنحاء كثيرة من البلاد لثقافة دينيّة وعقائديّة لها طابعها الخاصّ تفاعلت على بساط الواقع الاجتماعي والسّياسي والثّقافي مع الموروث الفكري وحصل التوفيق مع أصول الشّريعة الإسلاميّة الخالصة حسب مقتضيات الاجتهاد والاستثمار الرّصين لما تسمح به النّصوص التّشريعيّة المنقولة.

وقد مهّد من جهة أخرى للحركة الصّوفيّة التي نشطت في عموم البلاد التّونسيّة في القرن السّادس للهجرة أي الحادي عشر الميلادي انتشار الرّباطات منذ العهد الأغلبي على جميع السّواحل البحريّة. وهذه المراكز التي أنشئت في أصلها للحراسة من غزوات الاعداء تستقطب العبّاد والمتفرّغين للجهاد وحماية المدن السّاحليّة من الغزاة والمغامرين قصد النّهب والسّطو.

واشتهر من هؤلاء العبّاد عدد كبير كانوا يلقّبون بالأتباع والمريدين. ومن أبرزهم أبو يوسف يعقوب الدّهماني، دفين مدينة القيروان الذي كانت وفاته سنة 621 هـ / 1224م، وفي نفس السّنة توفّي صديقه أبو بكر القرشيّ المهدويّ،دفين مقبرة الشّيوخ بالمرسى على طريق قمّرت. وتتواصل سلسلة المتصوّفين والعبّاد وهم الآخذون بالمبادئ الصّوفيّة عن الشّيخ القطب شعيب أبي مدين دفين مدينة تلمسان(509 هـ - 594هـ). ومن شيوخ الطّريقة نذكر «أبا سعيد خلف بن يحيى التّميمي الباجي» المتوفّى سنة 628 هـ / 1231م و«أبـا الحسن الشّاذلي» 591 - 656 هـ / 1195 - 1258م، وكذلك عبد العزيز المهدوي دفين المرسى، وقد كانت له صحبة وصداقة بالقطب الأكبر في التّصوّف محيى الدّين بن العربي (560 هـ - 638 / 1165 - 1240م) الذي أقام عنده في المرسى قبل ارتحاله إلى دمشق.

وقد تكوّنت حول هؤلاء المتصوّفين ومن والاهم من المريدين والآخذين بمبادئهم من العبّاد والزهّاد جموع غفيرة وقفوا بكلّ بسالة في وجه الصّليبيّين.وأخذت الحرب مظهر الجهاد في سبيل اللّه دعا إلى المشاركة فيها هؤلاء الصلحاء عامّة النّاس الذين جاؤوا من أطراف البلاد يحدوهم شعور دينيّ عارم وهم يتّقدون حماسا فتوافدوا من كلّ حدب وصوب حتى من المغرب الأوسط (الجزائر اليوم) كما سنفصّل ذلك.

وكان للمتصوّفين والعبّاد في الأربطة الكثيرة على السّواحل دور فعّال في هذه الحرب فأطّروا المشاركين فيها (راجع في ذلك كتاب الرّباطات البحريّة بافريقيّة في العصر الوسيط لناجي جلّول - تونس 1999).

وأهمّ مرجع يفصّل الدّور الذي قام به المتصوّفون هو كتاب «إفريقيّة الشّرقيّة في عهد الحفصيّين من النّشأة إلى القرن الخامس عشر» لروبار برنشفيك في الجزء الثّاني (ص331 - 332) حيث يقول: «من القيروان إلى السّاحل أخذ الصّوفيّون يتكاثرون.ومنذ منتصف القرن الثّالث عشر يمكننا أن نقول دون

أن يخالفنا أحد: «إن السّاحل يعمّره أولياء اللّه الصّالحون».

وأبرز هذه الشخصيّات الذين سجل أسماءهم ابن ناجي في كتابه«المعالم» ينتمون حسب ما يظهر إلى مدرستين ـ وإن كانت هذه التّجزئة صعبة التّحديد ـ وهو أمر لا تبيّنه النّصوص بوضوح. إنّ أولاهما في الظّهور تضم أصحاب الدّهماني (دفين القيروان والمعروف قبره إلى اليوم). وثانية هاتين المدرستين الصّوفيّتين وهي التي كان بروزها متأخّرا عن الأولى فقد كانت مركّزة على دعوة أوسع وعلى العمل الميداني. إنها سليلة شيخ من قرية سدّادة بالجريد يدعى أباهلال، وكان لها من الانّصار أبو علي سالم بن سعيد الحضرمي وقد نشأ في قرية قديد بالسّاحل.

وأبو علي القديدي هذا نراه بجوار تونس (أي في مدينة أريانة) سنة 1270 للميلاد شاهرا سلاحه إلى جانب سيدي عمّار في مواجهة الصّليبيّين بقيادة القديس لويس. وقد رأى القديدي من واجبه أن يشارك بنفسه في الجهاد. وسنحت له الفرصة في مناسبتين كذلك ليشارك في الجهاد دفاعا عن سكّان سوسة والمهدّية ضدّ النّصارى. وكان قد انضمّ سنة 680 هـ / 1282 م إلى قافلة الشّيوخ الكبرى التي توجّهت ضمنها عديد الشّخصيّات الدّينيّة من إفريقيّة إلى الحجّ. وكانت وفاته في ذي القعدة من سنة 699 هـ (أوت 1300م) في زاويته بالقيروان حيث دفنت أمّه أمّ سلامة زينب التي تعتبر امرأة صالحة منذ سنة 670 هـ 1272م.

وقد فقد قبل ذلك بأشهر أحد أتباعه الورعين وهو محمّد الرّباوي الذي كان له فضل بناء بعض الميضات وترميم سور القيروان، وكما فقد قبل ذلك بثلاث سنوات تابعه وصديقه محمّد الدّكّالي المعروف بمدينة سوسة وقد دفن بها حيث قضى بقيّة حياته.

وكان لأبي علي سالم القديدي كثير من المريدين والأتباع. وقد كان ينتضم حوله ـ حسب ما يذكر ـ حوالي ثلاثمائة منهم فكان توّاقا إلى مدّ يد المساعدة وإلى حماية النّاس من الكوارث الطّبيعيّة، كزحف الجراد وتجاوزات جمع الجباية أوغزو البدو. وعرف بحامي المستضعفين. ويعاضده في هذا العمل بعض أتباعه. وبهذه الطريقة بدأت وظيفة الأولياء الاجتماعيّة التي توفّرت لها الظّروف لتتوسّع وتتطوّر» (الجزء الثّاني ص332 ـ 333).

إنّ في هذا الاطار المتطوّر للتّصوّف وانتشار أقطابه على سواحل البلاد وداخلها في المدن والرّباطات العديدة تتنزّل الحملة الصّليبيّة الثّامنة التي وجّهها القدّيس لويس التّاسع على تونس سنة 1270 للميلاد.واستطاع المستنصر باللّه الحفصي اغتنام فرصة تباطئ قدوم «شارل دنجو» بمدده لمعاضدة أخيه ملك فرنسا لينظّم طريقته الدّفاعيّة ويستنجد بالمتطوّعين من القبائل والأربطة من أقصى المدن وخاصّة من القيروان. وجاء المشاركون من الجهات البعيدة من قسنطينة يقودهم والي بجاية والمغرب الأوسط أبوزيّان

محمّد عبد القدير أمير بني توجين.

وبرز في هذه المقاومة الشعبيّة للحملة الصّليبيّة الشّيخان المتصوّفان أبوعلي سالم القديدي وأبو علي عمّار المعروفي. ويثبت روبار برنشفيك في الجزء الأول ص60 من أطروحته أنّ محطّ المقاومة الحفصيّة الصّوفيّة الشعبيّة تركّز في الجهة الشّرقيّة من مدينة أريانة غير بعيد عن قرية العوينة في منتصف الطّريق بين تونس وقرطاج. وإن قيادة الجيوش النّظاميّة تولاّها الأمير الموحّدي يحيى بن صالح الهنتاتي. وإلى جانب السّلطان الحفصي تحت خيمته في محطّ الجيش - زيادة على البارزين من رجال دولته - يحضر معه فريدريك دي قستيليّةFrédéric de Castille وفريدريك لنشياFrédéric Lancia وهما مستشاران في هذه المعركة، استعان المستنصر باللّه بما لهما من فنّيّات حربيّة في هذا الظّرف، وقد كانا قبل ذلك بسنة في اصطدام مع عدوّهما المشترك أخ ملك فرنسا صاحب صقلّيّة «شارل دنجو» الذي تأخّر في اللّحاق ببقيّة جيش الصّليبيّين.

ولا يمكن للقدّيس لويس التّاسع المجازفة بجيشه لاقتحام مدينة تونس دون أخيه شارل دنجو ملك صقلّيّة. وقد ترك لنا الكاتب الفرنسي شاتو بريان chateaubriand في«الرحلة من باريس إلى بيت المقدس» وصفا دقيقا لوضع جيش الصّليبيّين عندما فشت فيه عدوى مرض الطّاعون وما حلّ بقائده ملك فرنسا من الإعياء والتّدهور الصّحّي والانهيار النّفسي عندما مات بين ذراعيه ابنه الكونت دي نفارLe comte de Nevers ورأى العديد من قوّاده ينالهم نفس المصير:

Les comtes de Nemours, de montmorency et de Vendôme

وقد زاد في انخذال الصّليبيّين إلى جانب المرض شدّة حرارة الصّيف في تلك السّنة في قرطاج، وكذلك ما قام به المجاهدون من تذرية الرّمال السّخنة بأجهزة حربيّة نصبوها للمقاومة من أعلى روابي قرطاج وضواحيها، فكانت مقاومة شديدة على الأعداء.

مظاهر الحضارة الحفصيّة في تونس وأريانة:

توفّقت الدّولة الحفصيّة من جهة أخرى إلى الاحتفاظ بمنزلتها في الميدان الفكري إلى جانب نشاطها على المستويين السّياسي والاقتصادي، فيمكن القول: إنّنا تجاه حضارة حفصيّة.

فقد تميّزت هذه الحضارة في الجانب الدّيني بإحياء المذهب المالكي بعد نكسته طيلة الاستيلاء الموحّدي.وهذا الإحياء تحقّق بتأثير الاتّجاهات الفقهيّة في تونس وبجاية والقيروان وخاصّة بنشاط الإمام الشّهير ابن عرفة (1316 ـ 1404م).وفي نفس الوقت نشهد ازدهار التّصوّف بفعل الدّروس التي كان يقدّمها الصّوفيّ الكبير أبومدين في مدينة بجاية، سيدي بومدين المتوفّى في تلمسان سنة 1197 أو

1198م. وقد بثّ تعاليم المذهب كلّ من أبي سعيد الباجي (سيدي بوسعيد) وأبي الحسن الشّاذلي (سيدي بلحسن) وعائشة المنّوبيّة (للّه المنّوبيّة) ووجد انتشارا كبيرا في النّصف الثّاني من القرن الثّالث عشر. ثمّ إنّ أبرز ممثّل للتّصوّف كان الوليّ الصّالح في تونس سيدي ابن عروس. وقد حظي بالتّقدير طيلة حياته. وشيّعه سكّان مدينة تونس بأجمعهم إلى مثواه الاخير سنة 1463م.

أمّا العلوم الصّحيحة فقد عرفت تدنّيا في إفريقيّة مثلما حدث لها في سائر العالم الإسلامي، فلا نجد فيها عالما رياضيّا واحدا ولا فيزيائيّا ولا طبيبا ذا منزلة طوال العهد الحفصي. ويقابل هذا تعاطي أدب تراجم الأعلام بكثرة. وإضافة لما قدّمه العبقري ابن خلدون نذكر مؤلفات تاريخيّة قيّمة مثل رحلة التّيجاني (القرن الرّابع عشر)، والفارسيّة لابن قنفذ والأدلّة للهنتاتي، وتاريخ الدولتين المنسوب للزّركشي. وجميعها تعود إلى القرن الخامس عشر.

وإذا أضفنا إلى ذلك النّثر الفنّي كزخرف المراسلات الرّسميّة والشّعر المركّز في أكثره على المناسبات بهذا تحصل لنا فكرة تقريبيّة عمّا كانت عليه الحياة الثّقافية في المملكة الحفصيّة.

إنّها حياة فكريّة متردّية تتأرجح بين المؤثّرات الأندلسيّة بما هي فيه من التّدنّي وبين المؤثّرات الشّرقيّة المحدودة. إنّها في حالة انتظار وفي شبه سبات. ومن بعض مزاياها على الأقلّ أنّها تحافظ على بقايا سنّة ثقافيّة عريقة ومزدهرة شذّ بها في عصره وأثراها ابن خلدون.

إنّ السّلاطين الحفصيّين كانوا منشئين للعمارة. وقد وجدوا في المدن من البصمات ما يذكّر بالعمارة الأغلبيّة والصّنهاجيّة. وزيادة على ما كانت تحييه فيهم هذه المعالم من تذكّر السّنة القديمة والمؤثّرات الشّرقيّة فانّهم أصبحوا تحت تأثير ما يمليه عليهم الفنّانون الأندلسيّون المزدحمون على بلاط تونس. يكتب (المؤرّخ) ابن سعيد إلى أحد الأعيان المهاجرين من إسبانيا يقول «إنّ أبا زكريّاء السّلطان الحالي ينشئ المعالم ويبني القصور ويعمّر البساتين وحقول الكروم على عادة أهل الأندلس. إنّ مهندسيه هم أبناء أرض العدوة وكذلك بنّاؤوه ونجّاروه وطيّانو الأجرّ ودهّانوه وبستانيّوه».

نعم، إنّ تصاميم المعالم قد رسمها أندلسيّون أو قد تكون منقولة عن المعالم نفسها في بلادهم. وإنّ بهرج الثّقافة المرينيّة التي نشرها العلماء حول أبي الحسن تبدو علاماتها في الفنّ الإفريقيّ فقد بادر أبو زكريّاء فأنشأ في تونس تبعا للتّقاليد الإفريقيّة القديمة جامع القصبة الذي يذكّرنا بجامع القصبة في مرّاكش بهيئته المثقّلة وصومعته المربّعة. أمّا المستنصر فقد بنى مسجدا بالمنستير. وأنجز الخليفة أبو حفص إصلاحات هامّة في جامع القيروان (1294). ولم يبق شيء من قصور المستنصر التي بهرت ابن خلدون إلاّ أنّنا نحتفظ ببابين معقّفين في المنستير يعود أحدهما إلى عهده. وقد تقدّمهما رواقان. ويحتوي بستان لهذا السّلطان وهو المعروف بأبى الفهر فسقيّة حيث تتبارى جواريه في فلكهن على الماء.

ولتزويد هذه الفسقيّة بالماء رمّم ساقية الامبراطور هدريان التي تحملها الحنايا، وأضاف إليها فروعا (من أهمها فرع باردو المعروف إلى اليوم وفرع ببستان أبي فهر ويمرّ قديما من بئر بلحسن).

وأنشأ الحفصيّون كذلك في مدينة تونس أحواضا ومناهل للسّقاية مازالت قائمة إلى اليوم في شكل مصّاصات (أو حنفيّات عموميّة لسكّان العاصمة بتونس).

إنّ المصمّمين بإفريقيّة يميلون باستمرار إلى الزّخارف الملوّنة فنقول في نهاية الأمر إن الأحواز التي تعطي لمدينة تونس مظهرها الخاصّ هي من إبداع الحفصيّين.نذكر أوّلا قصر رأس الطّابية الذي أنشئ سنة 1225 م في الجهة الشّماليّة الغربيّة من مدينة تونس ثمّ سكنه المستنصر، ثمّ خطّ بستانه بجانب بلدة أريانة.أمّا قصر باردو الذي بناه أبو فارس فإنّه يعود على ما يبدو إلى السّنوات الأولى من القرن الخامس عشر.

وفي الختام نذكر أنّ أبا عبد اللّه محمّد قد ابتنى سكنى للنّزهة في مدينة المرسى.ويمكن القول في نهاية الأمر إنّ الحفصيّين لم يكونوا بناة كبارا للعمارة. وبهذه الصّفة لم يتركوا معالم تدعو إلى الإعجاب الفائق كسابقيهم من الموحّدين فلا يمكننا أن نتحدّث عن فنّ معماري حفصي إلاّ أنّهم قد طبعوا مدينة مثل تونس طيلة قرون بطابعهم واستطاعوا إقامة منشآت معماريّة ثبتت في وجه زحفة الأعراب كما هو الحال في مدينة القيروان.إنهم المحافظون على حضارة لم يزيدوا عليها شيئا طريفا يذكر.بهذا يمكن أن نصف الحفصيّين. وبإمعان النّظر نقول إنّهم شغلوا دون انقطاع بإمساك جماح القبائل الثّائرة وبالاحتراس من المسيحيّين المغامرين بلا انقطاع. وكانوا في كلّ هذا لا يلجأون إلى الاستعانة بأيّ كان من خارج البلاد، فنقول إنّ أعمالهم وإن كانت محدودة اللّمعان فانّها في أقلّ تقدير تدعو إلى الاحترام.

ونستنتج من هذه الخلاصة العامّة التي كتبها المؤرّخ شارل أندري جليان عن «الحضارة الحفصيّة» في مؤلّفه «تاريخ إفريقيا الشّماليّة» (ج2ص152 ـ 154) أنّ جهة مدينة أريانة قد حظيت بنصيب وافر من التّطوّرالعمراني في عهد الدّولة الحفصيّة وخاصّة في القرن الثّالث عشر للميلاد على عهد المستنصر باللّه الحفصي (1249 ـ 1277) إذ قد بنى قصوره ومنتزهاته وثكنة جيشه في برج العلوج قرب النّحلي اليوم كما بنى عدد كبير من أعضاء حاشيته منازلهم الفخمة وقصورهم في دائرة برج الوزير ومحطّة المترو الخفيف اليوم.

وقد أتت يد التّخريب على هذه المعالم أثناء قدوم الجيوش الإسبانية بقيادة ملكهم شارل الخامس الملقّب بشارل كان في الثّلث الأوّل من القرن السّادس عشر 1535 وسنبيّن ما أحدثوه من ضرر لمدينة أريانة ومعالمها السّلطانيّة إذ هم الذين كسّروا الحنايا وعاثوا فسادا في كلّ المباني بالجهة، ونقلوا حجارتها لبناء حصن الإسبان بحلق الوادي الذي مازال قائما.

المجاهد سيدي عمّار المعروفي دفين مدينة أريانة:

«أبرز وجه من شخصيّات أريانة المجاهدة في العصر الحفصي إنّما هو أبو علي عمّار المعروفي، فمن هو سيدي عمّار وما صلته بأريانة؟

إنّ أوّل من ترجم لسيدي عمّار الوليّ الصّالح بأريانة هو عبد الرّحمان بن محمّد الدبّاغ في كتابه «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» وهو مطبوع في أربعة أجزاء. وقد توفّي الدبّاغ سنة 699 هـ / 1300م. وهو معاصر لسيدي عمّار، ذلك أنّه التقى بالرحّالة المغربي محمّد العبدري الحيحي، وهو من وصف لنا ساقية الحنايا كما أسلفنا حين التقى به في القيروان أثناء مروره بها قاصدا الحجّ على طريق البرّ.يقول العبدري عن الدبّاغ «لقيته يوم وردنا القيروان فرأيت شيخا زكيّا حصيفا ذا سمة وهيئة وسكون ظاهر،محبّا لأهل العلم، حسن الرّجاء برّ اللّقاء، لم يؤثّر الكبر في جسمه على علوّ سنّه، ولا تغيّر شيء من ذهنه وحواسّه سألته عن مولده فقال لي: سنة خمس وستمائة (605 هـ).ـ وهو حفظه اللّه ـ من أهل التّهمّم والعناية بالعلم» وكان لقاء العبدري بالدبّاغ سنة 688 هـ / 1289 م فيكون صاحب معالم الإيمان قد تجاوز الثّمانين بحساب ذكره لميلاده سنة 605 هـ/ 1209م.

وسيدي عمّار كان حيّا ومشاركا في مقاومة الصّليبيين كما سنبيّن ذلك،سنة 668 هـ / 1270م. وليس غريبا ان يكون الدبّاغ قد عرفه عن كثب خاصّة وأنّه كان على صلة بشيخه سالم القديدي حين كان من مريدي التّصوّف على يديه.ويواصل العبدري حديثه عن الشّيخ الدبّاغ «وألّف كتابا حسنا مفيدا في طبقات من دخل القيروان من الفضلاء منذ دخلها الإسلام إلى زمانه، وهوكبير في مجلّدين وسمّاه «معالم الإيمان وروضات الرّضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان».

وفي هذا الكتاب تعرف الكثير عن سيدي عمّار وليّ أريانة الصّالح ودفينها أمام بابها الوحيد في السّور الذي كان يحيط بها في مستهلّ هذا القرن، «وما من داخل إليها أو خارج من مدينة أريانة العتيقة إلاّ ويبادر ضريح سيدي عمّار «بو سنّة» كما يكنّيه أهل البلد، أوكذلك من دخل إلى مقامه الذي تعلوه قبّة شامخة، بتلاوة فاتحة الكتاب على قبره أو من نافذة مفتوحة على الشارع مطلّة على تابوته».

فمن هو هذا الوليّ الصّالح الذي يرغب سكّان مدينة أريانة في نيل بركاته والحظوة بكراماته؟ لقد اعترف له كلّ القدماء والمحدثين من سكّان أريانة بخصلتين مرموقتين: أولاهما تتعلّق بتقواه ونقاوة سريرته بما مثّله انتماؤه إلى الحركة الصّوفيّة التي ازدهرت في القرنين السّادس والسّابع (الثّاني عشر والثّالث عشر الميلاديين)، وثانيتهما مشاركته بل قيادته للجهاد أو المقاومة المقدّسة لحماية حوزة الإسلام وردّ المعتدين من الصّليبيّين بقيادة ملك فرنسا القدّيس لويس التّاسع (1214 ـ 1270م) و ذلك عندما نزل بجيوشه عن طريق البحر بقرطاج في يوم الخميس السّادس والعشرين لذي القعدة سنة ثمان وستّين

وستّمائة للهجرة (668هـ / 17 جوان 1270) بجموع وافرة فرسانا ورجالا ورماة.

وانتهت هذه الحملة الصّليبية الثّامنة بموت القدّيس لويس التّاسع، ملك فرنسا، على ربوة قرطاج حيث الكتدرائيّة التي تحمل اسمه اليوم وهي التي بنيت لذكراه سنة 1846م. وكانت وفاته في عاشر محرّم من عام تسعة وستّين وستّمائة للهجرة (669 هـ / 29 اوت 1270م).وقال ابن الشّمّاع مؤرّخ الدّولة الحفصيّة في كتابه «الأدلّة البيّنة النّورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة (ص72): «توفّي طاغيتهم الفرنسيس، أصبح ميتا حتف أنفه. وقيل أصابه سهم غريب في بعض المواقف فأماته.وقيل أصابه مرض الوباء.وقيل السّلطان بعث إليه بسيف مسموم مع سليمان بن حزم مع سليمان الدلاّجي كان فيه هلاكه.وأرسل اللّه عليهم وباء أمات كثيرا منهم».

سيدي عمّار المعروفي - بوستة -

هو علي عمّار المعروفي نسبة إلى قرية معروف بين مدينتي القيروان وسليانة. ويعتبره عبد الرّحمان الدبّاغ في كتابه «معالم الايمان وروضات الرّضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان» من العلماء والرّجال الصّلحاء من مدينته، فيضمّه إلى الأعلام الذين نبغوا فيها. وقد اشتهر بتصّوفه وانتمائه إلى منهج أحد أقطابه وهو أبو يوسف الدّهماني دفين القيروان. وسيدي عمّارالمعروفي هو التّلميذ أو المريد للشّيخ أبي هلال السّدّادي (أصيل بلدة سدّادة قرب توزر بالجريد التونسي). كما كان أيضًا من أتباع المتصوّف الكبير الشّيخ سالم القديدي (نسبته إلى قديد قرية اضمحلّت قرب القيروان).وضريحه مزار بالقيروان اليوم. فلازمه سيدي عمّار صحبة أمّه زمنا، أخذ عنه مبادئ التّصوّف وحذق العربيّة، فعرف بفصاحته وقوله الشّعر، وكان مضرب الأمثال في التّقوى والورع ونقاء السّريرة وحسن المعاشرة. واستجاب كلّ من سيدي عمّار والشّيخ سالم القديدي إلى نداء المستنصر باللّه الحفصي للمشاركة في الجهاد لردّ كيد الصّليبييّن بقيادة لويس التّاسع، ملك فرنسا، وقد أرست مراكبهم في ميناء قرطاج يوم الخميس السّادس والعشرين لذي القعدة (668 هـ / 1270م).

وقدم الإثنان في وفد القيروان لينضمّا إلى المجاهدين، ونصبا خيمتهما في المعسكر الحفصي بين أريانة والعوينة. وكان سيدي عمّار ورفيقه سيدي سالم القديدي يدخلان إلى ساحة القتال كلّ صباح ويقودان حملة شعبيّة من المريدين والمتطوّعين في صراع عنيف مع النّصارى.وقد صوّر استعداد الصّليبيّين الباحث الفرنسي روجي دي سورCH. Roger DESSORT في كتابه «تاريخ مدينة تونس» (طبعة الجزائر 1924 ص 44 -58).وتواصل الاصطدام حتّى طلبوا الصّلح كما يقول ابن الشّمّاع في كتابه «الأدلّة البيّنة النّورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة» في أوائل ربيع الأوّل 669 هـ اكتوبر 1270 م «فصالحهم السّلطان على الانصراف إلى بلادهم من غير تعرّض لجهة من جهات المسلمين خشية أن يطأوا

بعض البلاد.فكانت مدة إقامتهم بتونس أربعة أشهروعشرة أيام».

ونذكر أنّ ملك فرنسا القدّيس لويس التّاسع قد توفّي في العاشر من محرّم من عام 669هـ / 29 أوت 1270 م قبل أن يسعفه أخوه ـ صاحب صقلّيّة ـ شارل دنجو ـ بالمدد والإعانة، وهو الذي عقد الصّلح مع المستنصر باللّه الحفصي.وقد انتشر الوباء انتشارا كاملا في صفوف المعتدين، وبدأت أعراضه تظهر في صفوف المجاهدين، فأصيب سيدي عمّـار بالزّحارDyssenterie نتيجة هذه العدوى، بعد قليل من انتهاء هذه الحرب كمـا يؤكّد ذلك Robert Brunschvig في أطروحته التي ناقشها في جامعة الجزائر سنة 1940 «تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي» (الجزء 1 ص 60 والجزء الثاني ص 332). ولازم الشّيخ سالم القديدي رفيقه حتّى وفاته، ودفنه بنفسه في مدخل أريانة أمام باب سورها العتيق، وهو الباب الوحيد الذي يخرج منه سكّان المدينة فيبادرون ضريح سيدي عمّار بالتّحيّة وقراءة الفاتحة صباحا مساء.

ومنذ ذلك اليوم أصبح ضريح سيدي عمّار مزارا ترتجى كرامات صاحبه، وتطلب بركاته من عامّة سكّان أريانة سواء كانوا من المسلمين أو من اليهود. واحتلّ الوليّ الصّالح سيدي عمّار علي «بوسنّة» في نفوس الأريانيّين ما يحتلّه الإمام محرز بن خلف بن رزين الصدّيقي من سكّان حاضرة تونس من التّقدير والاحترام المزوجين بشعور من الخشوع ونسيان مشاغل الدّنيا، والميل إلى التّبتّل والتّفكّر والرّجوع إلى النّفس بالتّقويم بحثا عن الطّمأنينة وهدوء الوجدان.



مقام المجاهد سيدي عمّار المعروفي دفين مدينة أريانة في سنة 1960



الملك لويس التّاسع (القدّيس لويس)
على فراش الموت بقرطاج عام 1270 منمنمة من المكتبة الوطنية بباريس

سيدي عمّار في المخيال الشعبي أو منزلة شيخ الطّريقة الصّوفيّة عند مريديه وأتباعه:

لقد شاع في التّصوّر الشّعبي قديما أنّ الأولياء الصّلحاء من شيوخ الصّوفيّة تبقى كراماتهم نافذة المفعول بعد موتهم. وهم يتمتّعون باحترام أبديّ لدى مريديهم وكلّ من يطلبون بركاتهم، فيبقى هؤلاء الصّلحاء أحياء في الضّمير الشّعبي، فيأتون بسرعة لنجدة من توجّه إليهم بالنّداء.لذلك يطلق على كلّ واحد منهم صاحب الخطوة.ويكثر ذلك في الأناشيد الصّوفيّة لدى العامّة كما يتصوّرون أنّ الشّيخ متى دفن في غير أرضه فانه يعود إلى موطنه في فترات من السّنة.لذلك كان العامّة يقيمون الحفلات حيث ضريح هذا الوليّ الصّالح كما يشيدون زاوية باسمه حيث مسقط رأسه.وذلك ماحدث لسيدي عمّار المعروفي فضريحه بمدينة أريانة ولكن تقام له الحفلات في زاويته الثّانية بقرية معروف بين القيروان وسليانة. وهذه سنّة جارية في المخيال الشّعبي قديما اعتبارا أنّ الوليّ الصّالح موجود هنا وهناك. لذلك ليس غريبا أنّ نجد زاوية ثانية لسيدي عمّار بقرية معروف.

ومما يذكر أن سكّان أريانة رفضوا أن يحمل أهل القيروان جثمان سيدي عمّار سنة 1270 م ليدفن في مدينته تبرّكا بهذا المجاهد الذي دافع عن حوزة الإسلام وقضى شهيدا من أجل إخلاصه ونقاوة طويّته.وليس غريبا أن تكثر في لغة العامّة «لغة سيدي بوقبرين».راجع في هذا الموضوع جورج مرسي «الفنّ المعماري الإسلامي» باريس 1954ص 435 (ARCHITECTURE MUSULMANE)

زاوية سيدي عمّار في مدينة أريانة:

كان لسيدي عمّار المعروفي زاوية مبنيّة على النّمط التّقليدي إلى حدود السّتّينات.وتعلو ضريحه قبّة مستديرة.وتحيط بالمقام جدران سميكة البناء مشرقة البياض على كامل السّنة.وقد طلي باب «الزّاوية» المقوّس بالدّهن التّقليدي، المعهود في كلّ أضرحة الأولياء والصّالحين، وهو الأخضر والأحمر. وإنّ التّوسّع المعماري لمدينة أريانة، منذ بداية هذا القرن، قد أفقد «زاوية» سيدي عمّار

البستان الشّاسع الذي كان يحيط بها.وقد كانت تكسوه أشجارالخرّوب المظلّلة والرّمّان والتّفّاح والبرتقال والزّيتون الذي كان يعمّ كامل منطقة أريانة على حدّ ما جاء في كتب الوصّافين. وقد عثرنا على صور لهذا المقام في المقال الذي خصّه به Jacques Revault في كرّاسات الفنون والتّقنيّات بافريقيا الشّماليّة لسنة 1960:



ضريح سيدي عمّار من الدّاخل

Cahiers des Arts techniques d'Afrique du Nord (1960)

وكانت «زاوية سيدي عمّار»، منذ عهد قريب، في وسط هذه البادية المزدهرة الخضراء في بستان كبير، على باب سور مدينة أريانة العتيقة تحرسها، ليلا نهارا، ببركات صاحبها وتبثّ في نفوس ساكنيها الأمن والطّمأنينة، إلى أن أنشئت بها العمارات الحديثة ذات الطّوابق العديدة وقلّصت من مساحتها.وذلك باكتساح البستان حول ضريح سيدي عمّار، وإزالة «الغروس» منها والمسارب الضّيّقة فيها وتعويضها بطرقات عصريّة وشوارع ممتدّة تقتضيها الحياة الجديدة في مدينة متطوّرة يوما بعد يوم.

ويؤكّد جاك ريفو أنّ زاوية سيدي عمّار احتفظت بمساحتها وقبّتها العتيقة إلى نهاية القرن التّاسع عشر. وقد أدخلت تحسينات على تربة سيدي عمّار (أو المقام والضّريح) التي وصفها ابن ناجي في القرن الخامس، وأعيد بناؤها في العهد التّركي، وأضيف إليها صحن وغرف لإيواء الزّائرين ودار يسكنها شيخ الزّاوية ودار الزّيارة للمقيمين في مناسبات محدّدة في كلّ سنة.

الحركة الصوفّية وأثرها في مدينة أريانة:

إنّ المتصفّح لسجلاّت الماضين يعثر في بساتين أريانة على أضرحة عديدة تحمل أسماء عرف أصحابها بالصّلاح والكرامات من الذين انتسبوا إلى الحركة الصّوفيّة التي ازدهرت في مدينة أريانة وما حولها في القرنين الحادي عشر والثّاني عشر للميلاد.ومنهم من قضى نحبه مجاهدا ضدّ الصّليبيّين في

ساحة القتال. ومنهم من مات في الوباء الذي تفشّى في جيوش المعتدين،وقد أضرّ بالبلاد في سنة 1270م. ومنذ ذلك العهد أصبحت مدافن هؤلاء الصّلحاء مزارات تعتكف فيها، في فترات من السّنة، فرق من المتصوّفين والعبّاد ويقيمون فيها سهرات للذّكر وإنشاد الأوراد الدّينيّة.نذكر من هذه الزّوايا بداخل المدينة: ضريح سيدي بوذيب، وضريح سيدي مفتاح، وسيدي فرج. أما خارج أريانة فنجد ضريح سيدي علي الجربي، وضريح سيدي عبد الرّحمان، وضريح سيدي عمر بوخطيوة، وضريح أبي عبد اللّه أحمد الجبالي وضريح أبي عبد اللّه عبيد... وقد عثرنا على صور فوتوغرافيّة لقباب هذه الأضرحة التي كانت قائمة منذ



الوليّ الصّوفي سيدي بو ذويب

عهد قريب قبل أن يكتسح العمران بعضها.

إنّ وجود هؤلاء الأولياء والصّالحين داخل مدينة أريانة والمنتشرين في بساتينها الغنّاء لم يقلّل من



الوليّ الصّوفي سيدي عبد الرّحمان

منزلة سيدي عمّار المعروفي «بوسنّة» في نفوس الأريانيّين. وبقيت تربته ومقامه المقصد الهامّ والاتّجاه الأمثل لهم عل كامل السّنة.فيقيمون في الزّاوية الأيّام المرحة واللّيالي الهازجة، ويحيون فيها في مواعيد من العام سهرات مخصوصة للذّكر وإنشاد الأوراد الصّوفيّة.

ووظّفوا هذا المقام لمثل هذه التّظاهرات، فبنوا بجانب الضّريح مسجدا ملاصقا له، وبئرا لسقاية كلّ الزّائرين والمقيمين ومسكنا لشيخ الزّاوية القائم عليها والمشرف على إنتاج البستان من الثّمار والخضر،



حوطة الوليّ الصّوفي سيدي عبد اللّه الجبلي أو الجبالي

وكذلك دارا للزّيارة لإيواء الفقراء والروّاد من «ضيوف هذا الوليّ الصّالح» ولإطعامهم مدّة إقامتهم، كما أضافوا بناءات أخرى حبسا لزاوية جعلت المقام ممتدّ الأطراف. وعنه قال قاسم بن عيسى بن ناجي (المتوفّى سنة 837 هـ / 1433م)، في تكملته لكتاب معالم الإيمان للدبّاغ: «لقد ملك علي عمّار المعروفي كلّ البلاد»

سيدي عمّار وفرقة العيساويّة:

يقام في زاوية سيدي عمّار احتفال أسبوعي يحرق فيه البخور وتوقد القناديل والأسرجة على تابوته، كما تقام فيه الزّيارة السّنويّة. وفي كلّ أمسيات أيّام الخميس تلتئم فرقة «العيساويّة» (نسبة للصّوفيّ الشّهير سيدي محمّد بن عيسى دفين مدينة مكناس بالمغرب وكانت وفاته فيهاسنة 1524 للميلاد).ويستظهر أفراد هذه الفرقة الصّوفيّة الأوراد وينشدون القصائد الدّينيّة. وفي ليالي الجمع بين المغرب والعشاء تتلى فاتحة الكتاب وتتلى أحزاب مختارة من القرآن. ويردّد أعضاء الفرقة أنغاما هازجة بالطبّول والدّفوف الكبيرة. ويلبس أفراد الفرقة جلابيب (ج جلباب) من الصّوف الأبيض يسمّونها «البدن» وذلك تشبّها بالصّوفيّة، واقتداء بشيوخهم في لبس الأبيض وخاصّة الصّوف رمزا للصّفاء ونقاوة البدن والنّفس. ويحيط بخصر كل واحد منهم حزام من الجلد: «السّبتة»، وهم محلولقو الرّؤوس عدا خصلة من الشّعر في أمّ الرّأس، قد تكون أحيانا في شكل ضفيرة كالنّواسة قديما يسمّونها «قطّاية».

موسم سيدي عمّار بمناسبة حلول المولد النبوي الشريف:

تقام زيارات جميع السّكّان بأريانة بمناسبة حلول المولد النّبويّ الشّريف إلى زاوية سيدي عمّار وتتواصل مدّة ثلاثة أيّام تقدم فيها الصّدقات للفقراء والمآدب من جميع أصناف المأكولات التي يحضرها المتبرّعون في منازلهم، وتذبح الذّبائح في مكان مخصّص من الزّاوية ويسمّون ذلك الزّردة، وتنظّم موائد جماعيّة يشارك فيها أهل مدينة أريانة وكثير من الزّائرين من مدينة تونس ومن داخل البلاد.

ومن أبرز الاحتفالات الموسيقيّة في شهر ماي حفل ذكرى «للّة سلمى»أو«مو سلمى»، وهي الخادمة السّوداء التي كانت في خدمة سيدي عمّار. وكان قبرها موجودا في ناحية من الزّاوية.وكان يعلوه تابوت من الخشب المدهون بالأخضر والأحمر على غرار تابوت سيّدها. وكان يزورها، بصفة موسميّة، نساء سوداوات يلقّبن بـ «العرايف» جمع عريفة.ويأتين لزيارتها من مقام الوليّ الصّالح سيدي سعد العكروشة، وهو من أصول سودانيّة إفريقيّة وتوجد زاويته بقرية مرناق في جنوب الحاضرة تونس. وتذكر بعض الأغاني الشّعبيّة المشهورة في بداية القرن الماضي اسمه باعتباره جدّا للسّكّان السّود في كامل البلاد، نذكر من أبياتها: (ياكحلة يابنت عمّي محلاك - اللّه يرحم سيدي سعد باباك). وتقام في موسم شهر ماي بمقام سيدي عمّار حفلات تحييها فرقة السطنبالي لهؤلاء الزّوّار من قرية مرناق بواسطة آلات إيقاعيّة حديديّة ونحاسيّة


ضريح للّه سلمى خادمة سيدي عمّار

كالشّقاشق وطبول خاصة بهذا النّوع من الموسيقى الهازجة الرّاقصة ذات الطّابع الإفريقيّ المعروفة في إفريقيا السّوداء.

ومن بين آلات السطنبالي آلة وتريّة وحيدة ذات وترين اثنين هي القمبري أو القوقاي وآلات التّوقيع الأخرى مثل النّقرات والطّبل، وجلاجل نحاسيّة في أرجل الرّاقصين والأجراس المشدودة في أكسية غريبة متركّبة من جلود وأقمشة خشنة.

ويذبح في هذا الحفل تيس أسود وترمى فلذات من كبده في أنحاء زاوية سيدي عمّار قصد مشاركة أفراد الجنّ في الحفل حسب هؤلاء الزّائرات السوداوات.وتخرج فرقة السطنبالي عبر شوارع مدينة أريانة، وتقوم بجولتها العاديّة في الأزقّة الضّيّقة يتبعها حشد غفير من الأطفال والنّساء في هزيج تهتزّ له المدينة العتيقة. وتختم هذه الجولة في المدينة بمأدبة تمدّ فيها موائد الأطعمة في زاوية سيدي عمّار.

الخرجة من سيدي عمار المعروفي إلى سيدي أبي سعيد الباجي:

من العادات الموسميّة في نهاية كلّ صيف، بعد الحصاد، ودرس السّنابل وعمارة المطامير بالحبوب

وكلّ المحاصيل الفلاحيّة من حمص وفول وذرة، وبعد أنّ يتمّ خزن بعضها ويحمل بعضها الآخر ليباع في سوق أريانة، تتجمّع فرقة العيساويّة في فناء زاوية سيدي عمّار في أتمّ أبّهة عناصرها. وفي أبّهة التّحضير ترفرف فوقها الأعلام(السّناجق) الملوّنة بالأحمر والأخضر والأبيض، ترفع فوق الرّؤوس وتنشر في الهواء كبيرة كأنّها أشرعة السّفن في يوم استعراض في حشد بهيج من النّاس نساء ورجالا وأطفالا. ثم ترفع البنادير وتتحرّك الفرقة بانتظام نحو باب الزّاوية، وتنطلق الأهازيج في صوت واحد مدوّية في سماء مدينة أريانة. ويدوّي قرع الدّفوف كأنّه الرّعد، ويهرع جلّ السكّان إلى المشاركة في خرجة العيساويّة.

يمرّ الحشد الصّاخب أوّلا بزاوية سيدي علي الجربي، ومنها إلى زاوية سيدي عبد الرّحمان ثمّ تندفع الخرجة لتشقّ بجموعها الغفيرة حيّ برج البكّوش متوجّهة إلى ربوة سيدي أبي سعيد الباجي المطّلة على خليج تونس. والوليّ الصّالح أبو سعيد خلف بن يحيى التّميمي الباجي هو صوفي في نفس السّياق الذي عرف به معاصروه من أمثال الشّيخ سالم القديدي ورفيقه سيدي عمّار المعروفي.

ولد أبو سعيد الباجي في بلدة باجة الزّيت في شمال تونس الحاضرة قرب زاوية سيدي علي الحطّاب سنة 551 للهجرة/1156 م وكانت وفاته(في شعبان 628 للهجرة / جوان 1231 للميلاد). وعرف أبو سعيد الباجي بتقواه وورعه منذ شبابه.فقد حجّ سنة 603 هـ/ 1207م. وجاور ثلاثة أعوام بمكّة والشّام قبل أن يعود إلى موطنه. وقضّى حياته الطّويلة يعلّم النّاس مبادئ التّصوّف منقطعا للعبادة ومعتكفا في مقامه بأعلى جبل المنار إلى أن وافاه الأجل حيث زاويته الآن المطلّة على الضّاحية الشّماليّة الغنّاء.

ويتقدّم خرجة العيساويّة من سيدي عمّار إلى سيدي أبي سعيد شبّان يحملون الأعلام الخفّاقة (السّناجق) التي تجلب الانتباه بألوانها البرّاقة.وتحدو هذا الجمع الأهازيج القويّة ويرقصهم الإيقاع القويّ المدويّ في هذه المسيرة طوال الطّريق. ويتسارع إلى الانضمام إليهم العامّة من كلّ حدب وصوب حتى تصبح هذه الخرجة موجة عارمة من النّاس تتوسّطها الفرقة التي لا يفتر أفرادها في توقيع متواصل .ويتقدّمهم ثور أسود أعدّ للذّبح بزاوية سيدي أبي سعيد. ويتلو الجميع حملة الأسلحة الرّمزيّة (سيوف ورماح ودبابيس) يلوّحون بها في السّماء، ويرفعونها عالية تصحبهم من زاوية سيدي عمّار إلى زاوية سيدي أبي سعيد ويتبع الحشد حملة الماء ينقلون أواني «السّبيل» وهي أنواع من أواني السّقاية ويطلق عليهم اسم القرباجيّة. وبعضهم يقومون بألعاب بهلوانيّة فيديرون أواني مملوءة بالماء في الفضاء دون أن تفلت منها نقطة أو تسيل منها جرعة.ويتمّ الموكب حشد من الحمير والبغال تحمل على ظهورها الزّاد والقصاع وأواني الطّبخ والحطب. وتبقى العيساوية سبعة أيّام في مقام أبيْ سعيد الباجي في هزيجها المتواصل ومرحها العارم.

وفي اليوم الثّامن تتوجّه العيساويّة إلى المرسى حيث يقيم الباي والأميرات والحاشية.ويقع استقبال هذا الحشد الكبير في ساحة القصر، يقـــدّم فيه بهلوانـــيّ العيساويـّــة ويسمـّــى «عكاشة» ألعابه وأبهى المشاهد البهلوانيّة وأروعها، فيحظى من الباي بهديّة تتمثّل في جبّة رفيعة خضراء. ويتمّ الحفل العظيم أمام الباي بمأدبة فخمة يشارك فيها الجميع. وبعد عودة قصيرة إلى زاوية سيدي أبي سعيد لأداء أناشيد الوداع، تتوجّه فرقة العيساويّة وسط هذا الحشد من المصاحبين توّا إلى قرية سيدي داود، قرب العوينة في طريق العودة إلى أريانة.

إن هذه العادات الصّوفيّة قد أخذت تتلاشى في مدينة أريانة منذ سنة 1948. ولم تعد هذه التّقاليد إلاّ صورا في الذّاكرة عند الشّيوخ والطّاعنات في السنّ من سكّان أريانة، كما يؤكّد ذلك «جاك ريفو» (Jacques Revault) في مقاله «سيدي عمّار سلطان بلدة أريانة»:

SIDI AMMAR PATRON DU VILLAGE D'ARIANA. وأصبحت تظاهرات فرقة العيساويّة في سيدي علي عمّار «بوسنّة» تتضاءل شيئا فشيئا حتّى أصبحت وجها من «الفلكلور» الشّعبي لا تنتظم إلاّ لماما في مناسبة أو مناسبتين في السّنة، وقلّ من جانب آخر المنتمون الفاعلون إليها.

ثم إنّ زاوية سيدي عمّار نفسها قد تغيّرت مع الزّمان، فتقلّصت ساحة البستان الذي وصفناه حولها إذ استولت بعض العائلات الموسرة على قطع من الأرض، وابتنى بعض المرموقين من حاشية الباي قصورا ودورا فخمة منذ القرن التّاسع عشر على النّمط الإيطالي من حيث المعمار وحسب الأسلوب الأروبّي من حيث الرّياش والتّجهيز.ولعلّ قصر ابن عيّاد وهو قصر البلديّة اليوم، كان جزءا من هذا البستان.

ودخلت مدينة أريانة طورا جديدا من حياتها المعاصرة.وتبدّلت زاوية سيدي عمّار القلب النّابض للحياة الشّعبيّة في المدينة شكلا ووظيفة بتقلّص مساحتها وزوال قبّتها القديمة المحنيّة فوق تابوت الوليّ الصّالح كما حذف المسجد ودار الزّيارة فيها.وضاقت مساحة البستان واكتسحتها المدينة العصريّة بمرافقها الجديدة وشوارعها التي أحاطت بالضّريح، وأزالت ما كان حوله من أشجار مثمرة وحدائق غنّاء يمرح فيها الزّائرون الذين أتوا من كلّ حدب وصوب رغبة في بركات الشّيخ وأملا في الفوز بهدوء النّفس وراحة البال مدّة الزّيارة التي تطول وتقصر بحسب الظّروف.

انتصاب الحماية الإسبانية على تونس:

انعكاس ذلك على مدينة أريانة:

عرفت مدينة تونس وأحوازها ازدهارا اقتصاديّا وخاصّة عمرانيّا كبيرين في العهد الحفصي.وقد برز الازدهار العمرانيّ في كثرة الأسواق وامتداد الأحياء وبناء المؤسّسات ذات الفوائد الاجتماعيّة من ذلك مدارس الطّلبة والمساجد ووسائل السّقاية والرّيّ والجوابي والفسقيّات والآبار قصد تزويد السّكّان بما هم في حاجة إليه من الماء في المدينة وفي البساتين الممتدة في الأحواز حولها حول تونس العاصمة الحفصيّة.وقد حظيت مدينة أريانة أكثر من غيرها من الأحواز القريبة من العاصمة بالازدهار العمرانيّ المتمثّل في قصور السّلطان وحاشيته من الطّبقة الأرستقراطيّة السّياسيّة والثّقافيّة وكذلك في بساتينهم الغنّاء ممّا أثار إعجاب المؤرّخ الكبير عبد الرّحمان ابن خلدون، فوصف قصور أبي فهر وبستانه حيث يقيم المستنصر بالله الحفصي، بإطناب عبّر فيه عمّا انتهت إليه الحضارة الحفصيّة من الرقيّ ورقّة الجانب في الرّياض والمسكن على الأنماط الأندلسيّة التي اختطّها حذّاق المهندسين والمهرة من أهل الاختصاص الذين توافدوا على الدّولة الحفصيّة من بلاد الأندلس ورتبّوا الحدائق على نمط جنّة العريف بغرناطة، فكانت بساتين أريانة الفيحاء فردوسا رائعا يروق للنّاظرين فيهنؤون في ريعه ويتمتّعون بالعيش في أكنافه.ونالت أريانة وماحولها عناية كبيرة من الدّولة الحفصيّة وعرفت رقيّا عمرانيّا منذ القرن الثّالث عشر الميلادي إلى الثّلث الأوّل من القرن السّادس عشر.وقد بسطنا الحديث في هذا التّطوّر العمراني لمدينة أريانة وما حولها فيما سبق من



حصار تونس عام 1535 بجيش شارلكان (رسم فرانز هوغنبارغ - المكتبة الوطنية بباريس)

الفصول، وأثبتنا ما كان لهذه المدينة من دور في حماية تونس عاصمة الحفصيّين أثناء الحملة الصّليبيّة الثّامنة بقيادة ملك فرنسا القدّيس لويس التّاسع.

الوضع السّياسي في الدولة الحفصيّة وقدوم الإسبان إلى تونس

لقد عرفت دولة بني حفص فترات من القوّة تركّز فيها ازدهارها الحضاري وظهرت معالمه في إرساء المؤسّسات الاجتماعيّة والعمرانيّة التي برهنت على قوّة الدّولة وإرساء أسس الاستقرار والأمن في جميع أنحاء البلاد.وكانت بوادر كلّ ذلك بارزة في نشأة دولة قويّة الأركان في جميع المقوّمات للحكم على يد بانيها أبي زكريّاء الحفصي وابنه من بعده المستنصر باللّه الحفصي.لكن سرعان ما دبّ الضّعف في أركان الدّولة وبدت سمات الهرم وخرجت القبائل في أنحاء البلاد في عصيان وثورة لم تستطع سلطة الحفصيّين قمعها إذ دبّ الخلاف بين الأمراء واستفحلت الدّسائس طمعا في أخذ الحكم دون كفاءة ولاحقّ لذلك.ولسائل أن يسأل كيف جاء الإسبان إلى البلاد التّونسيّة وكيف استفحل أمرهم حتّى نصبوا الحماية على البلاد في أكبر جزء منها؟

للإجابة عن هذا السّؤال لا بدّ من تقديم موجز للوضع السّياسي الذي انتهت إليه الدّولة الحفصيّة بعد تمركزها في البلاد التّونسيّة ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين عاما.



شارلكان ملك اسبانيا عام 1548 لوحة للرسّام تيتسيانو (بينوكوتاك مونيخ)

تأكّد هرم الدّولة الحفصيّة عند ظهور القرصنة في البحر المتوسّط.فعندما تولّى أبو عبد اللّه محمّد الحاكم الرّابع والعشرون من آل بني حفص، بدأ الأمر في التّراجع إلى حدّ أن غالب المملكة خرج عن سلطة هذا الأمير وبدا العجز ظاهرا في دواليب الدّولة في حين قويت شوكة الخلافة الإسلاميّة في المشرق بظهور دولة «آل عثمان» واستفحال أمرها بأروبّا لا سيما على عهد السّلطان محمّد الثّاني فاتح القسطنطينيّة سنة 857 هـ / 1453 م والسّلطان سليم الأوّل المتولّي لذلك الوقت.

وفي أيّام الأمير أبي عبد اللّه الحفصي ظهر الأخوان خير الدّين وعرّوج، وأصلهما من جزيرة «مدلّلي» إحدى جزر بحر الأرخبيل.وكانا يشتغلان بالقرصنة في البحر الأبيض المتوسّط، فقدما في بعض المرّات على الأمير الحفصي واتّفقا معه على غزو البحر ويكون له الخمس من الغنائم الحاصلة.واستمرّ الحال على ذلك مدّة.ثمّ إن خير الدّين وعرّوج افتكّا مدينة الجزائر من أيدي الإسبانيول وجعلاها مركزا مستقلاً لعمارتهما البحريّة.وعلا صيتهما شرقا وغربا، وقويت شوكتهما في ميدان القرصنة.

وفي هذه الأثناء توفّي الأمير عبد اللّه الحفصي سنة 932 هـ،وقد عرف بفطنته وأعماله الخيّرة ورغبته في نشر المعرفة والثّقافة بين النّاس، من ذلك إنشاؤه مكتبة جامع الزّيتونة المعروفة «بالعبدليّة» التي تنسب

إليه وتولّى الأمر بعده ابنه الحسن بن أبي عبد اللّه الحفصي الذي سار في أوّل مدّته بعدل وإحسان فاجتمعت على تأييده قلوب الرّعيّة.ثمّ سرعان ما انقلب إلى سوء السّيرة، فاضطربت أحوال الدّولة، وضعف نفوذها في الآفاق، وخرجت البلاد شيئا فشيئا عن طاعته بثورة القبائل من الأعراب ورفض سلطة الدّولة فساءت الأحوال وانخرم الأمن وأصبح الحسن الحفصي في ضيق من أمره إذ ساءت الحياة



الحسن الحفصي رسم لصورة زيتية من مدرسة البندقيّة للفنون التشكيلية (متحف الجزائر).

الاجتماعيّة في المدن وخاصّة في عاصمته تونس.وتقهقر الوضع الاقتصادي في البلاد بعدما كان على جانب كبير من الازدهار.وكان لكلّ ذلك انعكاسه السّيّء على مؤسّسات الدّولة وخاصّة وضع الجيش، فتردّت الأمور من كلّ جانب.

وعلم القرصان خير الدين بربروس الذي جعل مدينة الجزائر قاعدة له ماآلت إليه مملكة الحفصيّين من الهرم والاضطراب، فعزم على مدّ نفوذه على تونس وامتلاك البلاد. وقد يكون تخطيطه لإزالة الدّولة الحفصيّة والقضاء عليها بايعاز من السّلطان التّركي سليمان القانوني، فخرج من الجزائر في جيش من الأتراك واستولى على بنزرت.ولمّا بلغ الخبر الحسن الحفصي هرب من الحاضرة لأنّه توقّع الهزيمة لضعف ما لديه من الجنود.ودخل خير الدّين تونس سنة 935 هـ،وخطب للسّلطان العثماني، وسكّن ما في نفوس النّاس من الخوف على مصيرهم فأمّنهم واستتبّ له الأمر في تونس دون أدنى مقاومة.

ولم يجد الحسن الحفصي سندا من قبائل الأعراب، فتوجّه إلى طلب نصرة ملك إسبانيا شارلكان، وهو كرلوس الخامس الذي كان معزّز القوّة في القرن السّادس عشر، مدّ نفوذه من سنة 1516 إلى 1558 فشمل ملكه إسبانيا وألمانيا والنّمسا وهولنذا وإيطاليا وأمريكا بأجمعها.ووجد ملك إسبانيا شارلكان في هذا الطّلب فرصة سانحة لمدّ نفوذه على تونس تركيزا لسلطته على ضفاف المتوسّط الجنوبيّة ولمراقبة مضيق صقلّيّة من قريب، فأجاب نداء الحسن الحفصي وجهّز عمارة قويّة قادها بنفسه.

ونزل على حلق الوادي، ومنها زحف إلى الحاضرة فدخلها سنة 942 هـ/ 1535 م، وأمر جيوشه بنهب المدينة «فاستباحوها بالقتل والأسر والسّبي حتّى قيل أنّ عدد سكّان تونس كان مائة وثمانين ألفا قتل منه الثّلث وأسر الثّلث ونجا الثّلث. ومن أفضع ما ارتكبه عساكر الإسبان أن هجموا على جامع الزّيتونة وبدّدوا ما كان يوجد به من نفائس المخطوطات في المكتبة العبدليّة، فأصبحت أثرا بعد عين» ونصب شارلكان الحسن على كرسيّ الحفصيّين من جديد ولكن شرّك معه في النّظر أحد قوّاد العساكر الإسبانية.

وفي هذه الفترة من تاريخ تونس تبدأ مأساة مدينة أريانة كغيرها من أحواز الحاضرة.وكنّا قد بيّنّا أنّ مدينة أريانة بأحوازها الغنّاء من البساتين كانت في عهد ازدهار الدّولة الحفصيّة في القرن الثّالث عشر محلّ إقامة السّلطان المستنصر باللّه الحفصي في قصوره ببستان أبي فهر وقصور حاشيته وإقامة حرّاسه من الجنود العلوج بثكنة برج العلوج قرب جبل جعفر.وبمجرّد زحف عساكر الإسبان على تونس في غطرسة لا مثيل لها من نهب وتقتيل لجأ سكّان العاصمة فارّين إلى أريانة وباديتها مختبئين في بساتينها والأحراش حولها كجبل جعفر والجبل الأحمر.

ولم تسلم المدينة من نهب الإسبان وكذلك ما فيها وحولها من قصور الحفصيّين وحاشيته لقربها من العاصمة ومن ميناء حلق الوادي، بل أكثر منها أصبحت معالم أريانة مصدرا لاقتلاع الحجارة لبناء ثكنة الإسبان أوماسمّي بالبستيون وكان موجودا في المكان الحالي للسّفارة الفرنسيّة قرب باب البحر بمدينة تونس.كما بنوا قلعة حلق الوادي بحجارة ساقية الحنايا وكان تخريب هذه المعالم والمواقع من مدينة أريانة على يديهم فأصبحت أثرا بعد عين،وقضوا على وجه مشرق لضاحية أريانة الجميلة وعلى ما في بستان أبي فهر من القصور والجنائن الغنّاء التي جلبت إعجاب عبد الرّحمان بن خلدون كما أسلفنا.

ومن المتأكّد أن جيوش الإسبان خرّ بوا الحنايا وقصور الحفصيين بأريانة لإنشاء تحصينات خاصّة بهم، فيثبت حسن حسني عبد الوهّاب في «خلاصة تاريخ تونس» ذلك بقوله «فأقاموا قلعة عـظيمة جدّا خارج سور تونس اشتهرت باسم «الباستيون» وهي لفظة إسبانيّة معناها القلعة. وكان هذا الحصن واقعا

خارج باب البحر حيث السّفارة الفرنساويّة الآن وشارع البحيرة وجدّدوا بناء الحصن المعروف بشكلي بوسط البحيرة،كما رمّموا حصون حلق الوادي وأسوارها بالحجارة الكبيرة المقطوعة من الحنايا الرّومانيّة فأصبحت معقلا منيعا».

ولم يغادر الملك شارلكان تونس إلاّ بعد إمضاء معاهدة مع الحسن الحفصي سنة 942 هـ / 1535 م أثبت فيها شروطا مجحفة تقضي بتمكين الإسبان من سكنى جميع أنحاء القطر وإقامة طقوسهم الدّينية والتّنازل لهم عن مدن عنّابة وبنزرت وحلق الوادي مع دفع جباية سنويّة ثقيلة.لكنّ هذه الشّروط لم ترق في أعين السّكّان فثاروا على الحسن الحفصي بمجرّد رجوع ملك الإسبان إلى بلاده، وجمعوا كلمتهم على عزله، وقدّموا ابنه أبا العبّاس أحمد، وأمسكوا الحسن وسملوا عينيه، ففرّ وهو أعمى ومات بالقيروان وقيل بأروبّا سنة 942 هـ/ 1535م.

واستفحل أمر الإسبان في عهده، فاستولوا على ثغر المهديّة والمنستير وعلى جزيرة جربة ومدينة طرابلس، وتحصّنوا بهذه الأماكن حتّى افتكّها منهم درغوث باشا سنة 958 هـ / 1551م.

وبوفاة خيرالدّين صاحب الجزائر عيّن السّلطان التّركي سليم الثّاني ابن سليمان القانوني القائد علي باشا الذي قدم إلى تونس وأبعد أبا العبّاس الحفصي عن الحكم.فاستنجد مثل والده بالإسبان رغم ماكان يكنّه لهم من العداء في أوّل أمره. فأنجده ملكهم بأسطول عظيم لإعانته على الأتراك. ولكنّ قائد الأسطول استظهر بمجرّد وصوله إلى حلق الوادي بمكتوب يقضي بضرب الحماية من جديد على تونس، فأنكر أبو العبّاس الحفصي ذلك، وانتقل إلى صقلّيّة سنة 980 هـ/ 1572 م فأقام بهاحتى مات.

وقبل أخوه محمّد بن الحسن شروط الإسبان المجحفة.ولاقى التّونسيّون في تلك المدّة جور العساكر الإسبانيّة وتعدّيهم بأنواع المظالم ماحمل السّكّان من جديد على الفرار إلى البوادي، ونالهم من الخطوب وضروب الهوان ما لا يوصف. وتطاول هؤلاء المتغلّبون على المعالم الدّينيّة فأهينت وهتكت حرمها حتّى قيل إن الخيول ربطت بجامع الزّيتونة، وألقي ما فيه من نفائس الكتب في الطّرقات، وحمل بعضها إلى مكتبة الفاتيكان بروما ومكتبة «الاسكوريال» بمدريد ولا تزال تشاهد هنالك.

ونال مدينة أريانة وماحولها من التّخريب من جديد ودمّرت وسائل الرّيّ وهدّمت الآبار وطميت بالتّراب وكسرت ساقية الحنايا الواصلة إلى جابية بستان أبي الفهر وحملت حجارتها الضّخمة إلى حلق الوادي لبناء قلعة الإسبان وتحصين سورها وترميم حصن جزيرة شكلي في وسط بحيرة تونس، هذه الجزيرة التي طالما تردّد عليها المستنصر باللّه الحفصي خاصّة لقضاء سهرات في فصل الرّبيع يشاهد منها مدينة أريانة وقصور بستان أبي فهر وقد أنارتها القناديل والشماريخ المضيئة. ولكنّ سلطة الإسبان في النّصف الأوّل من القرن السّادس عشر قد دعّمت أركانها على الجور والاعتساف، فلم يكن من الممكن استمرارها.وقد اغتاظ السّكّان من فعل هذه الحماية الإسبانية وتوغّرت صدورهم عليها، وكانوا ينتهزون الفرصة للإيقاع بالحفصيّين والإسبان معا. وسنحت الظّروف في نهاية الأمر للخلاص من وطأة الجور والظّلم اللذين أنتجا الخراب والدّمار حيثما حلّت جيوش الإسبان الغاشمة.وظهرت بوادر هذا الخلاص في وقت وجيز بقدوم القوّة التّركيّة. وقد قيل في المثل السّائر «العدل إن دام عمّر والظّلم إذ ساد دمّر».

نهاية الحماية الإسبانية وتدخل الأتراك:

هذا الوضع المتردّي في مدينة تونس وأحوازها وبالأحرى مدينة أريانة التي احتضنت جلّ اللاّجئين إليها من سكّان الحاضرة قد تسبّب فيه التعسّف الذي قام به الجيش الإسباني .وكان هؤلاء السّكّان الموتورون ينتظرون المخلّص والمنجّي من هذا المغتصب البغيض.وبدأت تظهر جيوش الأتراك في الآفاق وقد تحرّك القائد درغوث رايس لنجدتهم فاستولى على القيروان وأناب على ولايتها حيدر باشا، فرتّب هذا القائد جيشا منظّما، وانضمّت إليه العساكر التي كان تركها علي باشا والي الجزائر لحراسة تونس عند قدومه إليها، وأصبح الجيش التّركي عندئذ قوّة ضاربة بالقيروان.وتقدّم حيدر باشا لنزع تونس من أيدي الإسبان الذين ضربوا حمايتهم على كامل المملكة الحفصيّة،وأصبحت جميع شؤونها في أيديهم. وما كان من هذا القائد إلاّ أن انتظر المدد من مصطفى باشا قائد الحامية التّركيّة بطرابلس فاجتمعت قوّتهما وسارا بهذا الجيش القويّ عدّة وعددا في اتّجاه الحاضرة من مكان التقائهما في بلدة المحمديّة قرب تونس. وبمجرّد وصولهما إلى العاصمة الحفصيّة الموتورة علم القائدان التّركيّان سرّا بوصول الأسطول العثماني قريبا من ميناء حلق الوادي، وكان يستهدف ما كانا يقصدانه، فكانت قوّة الجيش التّركي الزّاحفة في أتمّ أهبتها برّا وبحرا.

كان قد سطّر هذه الخطّة السّلطان العثماني سليم الثّاني (1566 ـ 1574) لامتلاك تونس وطرد الإسبان منها، فكلّف رجلا من أعيان وزراء الدّولة العثمانيّة قد سبقت له شهرة في خدمة الباب العالي باخلاص ونصح حتى نال الصّدارة هو الخوجة سنان باشا الذي كانت له انتصارات باهرة على رأس الجيش التّركي في بلاد الشّام واليمن ومصر وبلاد الكرج والمجر، فعيّنه السّلطان قائدا عامّا على الجنود، وأضاف إليه قلج علي قبودان رئيسا على العمارة البحرية المتألّفة من نحو ألف سفينة.وكان خروج هذا المدد العظيم من القسطنطينيّة في غرّة ربيع الأنور سنة 981 للهجرة /1573م.

اللّقاء التركي الإسباني في حلق الوادي:

مرّة أخرى تحتضن مدينة أريانة المهاجرين من سكّان تونس خوفا من تصادم الإسبان بالجيوش العثمانيّة المخيّمة على حلق الوادي برّا وبحرا. فألقت مراكب الأسطول الذي يقوده سنان باشا مراسيها أمام الحصون الإسبانيّة بحلق الوادي وتقدّمت الجيوش المخيّمة على تونس،ونصب قوّادها الحصار على ميناء الإسبان برّا في حين نصب سنان باشا بنفسه بحرا.ودارت رحى الحرب في شدّة على الجيوش المرابطة بحصن حلق الوادي، واضطرّت بعد مدافعة عنيفة إلى التّخلّي عن مرساهم المنيع، ولاذوا بالفرار مع الأمير محمّد الحفصي، فالتجأوا إلى قلاعهم بتونس وتحصّنوا بالباستيون، فلحقهم الأتراك إليها واستمرّ القتال أيّاما متوالية.وأخيرا تمكّن سنان من فتح القلاع عنوة وتأسير من بها يوم 25 جمادى الأولى سنة 981 هـ / 1573م.

وكان هذا الاصطدام التّركي الإسباني من أشدّ ما وقع في تونس، سقط فيه خلق كثير من الجانبين.وكان من نتائجه تخليص البلاد من تخريب الجيش الإسباني وبثّ الأمن في نفوس السّكّان في كامل البلاد وإخماد غليان الثّورة سواء التي أعلنها الحفصيّون على بعضهم تنازعا على السّلطة أو التي وقعت بين زعماء العروش والقبائل ورؤساء الطّوائف والجماعات. ولم تخلّف هذه الحماية الإسبانية وما تسبّبت فيه من حروب دامية ومن الاعتداء بالظّلم والتّعسّف إلاّ الخراب والتّقهقر في مظاهر الحضارة التي

وصلت إليها البلاد في عهود ازدهارها في فترات متميّزة من الدّولة الحفصيّة.

انقراض الحفصيين وبداية العهد التركي: (981 هـ / 1574م)

وقع الأمير الحفصي مع جملة الأسرى في قبضة سنان باشا في هذه الحوادث التي دارت فيها الدّائرة على جيش الإسبان. وأرسل الأمير محمّد بن الحسن إلى الأستانة عاصمة الدّولة التّركية فبقي معتقلا بها إلى أن قضى نحبه. «وبموته انقطعت السّلالة الحفصيّة بعد أن حكمت القطر الإفريقيّ ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين عاما عرفت فيها البلاد التّونسيّة أوج الازدهار الحضاريّ نتيجة الأمن والاستقرار بحزم أبرز أمراء الحفصيّين، ومن أحزمهم أبو زكريّا الحفصي وابنه المستنصر باللّه. لقد قويت الحياة الاقتصاديّة في تونس الحاضرة وتطوّر العمران، وكبرت حركة الأسواق، وانبعثت مؤسّسات التّعليم في أنحاء المملكة، وانتشرت وسائل العلم والثّقافة، من ذلك المكتبات العموميّة ونشر الكتب بين جميع الطّبقات وتوافد العلماء على تونس وخاصّة من الأندلس فطبعوا الثّقافة ومظاهر العمارة بالطابع الأندلسي.

ملخص عن نشأة الدولة الحفصية (1228 ـ 1574 م / 626 ـ 981 هـ)

لقد ركّزنا البحث على أهمّ الأحداث التي برزت وقائعها في عهد الدّولة الحفصيّة لأنّها عنت بصفة مباشرة لاعاصمة دولتهم الحاضرة تونس خاصّة وإنّما مدينة أريانة وجميع مناطقها وهي التي أصبحت مسكن الحفصيّين بدءا من إمارة المستنصر باللّه الأوّل (1249 ـ 1276م) وهو أوّل من تلقّب بأمير المؤمنين.وأصبحت مدينة أريانة وأحوازها على جانب من الازدهار العمراني وخاصة الفلاحي بقدوم الأندلسيّين على الدّولة الحفصيّة من غرناطة وبلنسيّة وجيّان ومالقة كما سنبيّن ذلك.

والدّولة الحفصيّة هي الدّولة الإسلاميّة الرّابعة التي ركّزت سلطتها ومتّنتها بالبلاد التّونسيّة ودامت هذه الدّولة كما أسلفنا ثلاثة قرون ونصف قرن من سنة 1228 إلى سنة 1574 للميلاد، عرفت فيها البلاد التّونسيّة أبرز التّطوّر العمراني والاجتماعي والثّقافي حتّى اعترف أكبر المؤرّخين لهذه الدّولة بتأسيس حضارة حفصيّة بقي طابعها واضح المعالم إلى اليوم في أنحاء البلاد التّونسيّة وخاصّة العاصمة.لكنّ هذه الحضارة أودت بقوّتها يد التّخريب بفعل الجيوش الإسبانيّة التي توالت هجماتها فنصبت حمايتها على البلاد طيلة حقبة من القرن السّادس عشر بقيادة ملك إسبانيا كرلوس الخامس (شارلكان) سنة 1535م.

مؤسّسها هو أبوزكرياء يحيى الحفصي ثاني أبناء أبي محمّد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي. وأصله من هنتاتة إحدى فروع قبيلة المصامدة البربريّة التي كانت تقيم بالمغرب الأقصى. وأبو حفص الهنتاتي الجدّ كان من مساعدي عبد المؤمن بن علي الكومي، وهو من قبيلة زناتة البربريّة، على إعلاء شأن الدّولة الموحّديّة وإرساء قواعدها وإثبات بأسها باستيلائها على المغربين الأقصى والأوسط وضمّ الأندلس إلى نفوذها، فأحرز أبوحفص الهنتاتي منزلة رفيعة في تلك الدّولة.

أمّا أبو محمّد عبد الواحد والد أبي زكريّاء الحفصي فقد كان وزيرا للخليفة الموحّدي النّاصر محمّد يعقوب الذي عيّنه سنة 603 هـ/ 1206 م واليا على البلاد التّونسيّة وطرابلس وبرقة في العهد الموحّدي. وإثر وفاته سنة 618 هـ / 1221 م باشر الولاية على التّوالي ابنه عبد الرّحمان ثم أخوه إدريس، ثم عبد اللّه عبّو الذي خالفه الجند ورجال الدّولة وبايعوا أخاه أبا زكريّاء يحيى الحفصي الذي اغتنم فرصة تراجع

أمر الموحّدين وضعفهم واختلال سلطتهم فأعلن استقلال البلاد التّونسيّة وتأسيس الدّولة الحفصيّة سنة 626 هـ/ 1228م.

أريانة المدينة الحفصيّة:

إنّ من نتائج انتشار العدل في البلاد في مدّة العشرين أميرا الأوّلين الحفصيّين (626 ـ 899 هـ) أن أقبل النّاس على العمل والمشاركة الفعليّة في الحياة الاقتصاديّة، فنمت الثّروة العموميّة، وارتفعت مداخيل الدّولة، وازدهرت الحياة الاجتماعيّة. وأينعت حضارة البلاد بأجمعها انطلاقا من الحاضرة تونس وأقرب الأحواز منها وخاصّة مدينة أريانة في عهد الأمير المستنصر باللّه (647 ـ 675 هـ) وهو الذي وجّه عناية خاصّة إلى مدينة أريانة وماحولها من البساتين فجعلها إقامته في قصور بستان أبي فهر،وإقامة رجالات الدّولة من حاشيته، فكثر التّرف لدى الطّبقة الأرستقراطيّة في الجهة، تأنّقوا في المباني والمراكب والملابس والماعون والآنية.

وعني الأمراء الحفصيّون بشأن الفلاحة، واهتمّوا بإنشاء بساتين كثيرة حول العاصمة: برادس،والمرسى،وراس الطّابية، وخاصّة حول أريانة حتّى ارتقت أساليب الرّيّ بوسائل كبرى تمثّلت في ساقية الحنايا وكذلك في سلاسل الآبار بما عرف بالفجّارة في بساتين منطقة سكّرة، وهو ما فصّلنا الحديث فيه في فصل السّقاية والرّيّ في العهد الحفصي.ولقد تطوّرت الفلاحة في بساتين أريانة وريفها بقدوم الأندلسيّين الذين كان لهم فضل غراسة الزّيتون حتّى أصبح ريف مدينة أريانة مضرب الأمثال في نقاوة هوائه من أجل غابات الزّياتين الممتدّة في المنبسطات وعلى هضاب منطقة جعفر. وقد أثبت هؤلاء الأندلسيّون عادات فلاحيّة جديدة في غراسة الخضر والباكورات.وعرفت الجهة بنوع من البطّيخ اشتهر باسم بطّيخ جعفر. وتفنّنوا بمالهم من الذّوق الرّفيع في بلادهم بزراعة الأزهار وخاصّة الورد الذي أصبحت تعرف به مدينة أريانة إلى اليوم منذ العهد الحفصي وأتقنوا استخراج زيت الورد واستعماله في شتّى الأطعمة والحلويّات حتّى أصبح تقطير الورد من الصّناعات التي تعرف بها أريانة لما لماء الورد وزيته من الفوائد الطبيّة التي تبسّط في وصفها العشّاب الغرناطي المشهور ابن البيطار في كتابه «الأدوية المفردة» وقد ترجمه إلى الفرنسيّة لوسيان لوكلارك، وكذلك ذكر منافعه الطّبيب ابن سينا في كتابه «القانون في الطب».

وجلب هؤلاء الأندلسيّون، إلى جانب حذقهم لأساليب جديدة في الفلاحة، أنواعا غير معروفة قبلهم من الخضر كالطّماطم والبطاطا والصّناعات اليدوية. وقد اختصّت النّساء في أريانة دون غيرهنّ بزرد الكبّوس بخيوط الصّوف، فكان تجّار الشّاشية في العاصمة يمدّونهن بالصّوف فيزردن منه الكبابيس التي تكشط وتصبغ بالقرمز وتنظّف في سدّ البطّان. كما عرفت الأريانيّات منذ ذلك العهد بتسدية الأغطية الصّوفيّة إلى جانب مشاركتهنّ في الأعمال الفلاحيّة خاصّة الموسميّة كجني الورد وتقطيره في المنازل أو في معامل خاصّة به.

وقد أصابت هذا الازدهار الفلاحيّ والصناعيّ نكسة عند الزّحفة الإسبانيّة في الثّلث الأوّل من القرن السّادس عشر فأتت على هذا التطوّر العمراني إذ طاردت الجيوش السّكّان اللاّجئين من العاصمة إلى أرياف أريانة وسلبتهم ونكّلت بهم.وأتت يد إفسادهم على المقدّسات مما دعا السّلطة التّركيّة فيما بعد إلى إعادة بناء زاوية سيدي عمّار المعروفي التي وقع تخريبها كما خرّبوا قصور الحفصيّين في بستان أبي فهر



معمل البطّان حيث تصبغ الشاشيّة المزرودة بأريانة (الكبّوس صناعة الأريانيات منذ الهجرات الأندلسية الأولى)

وساقية الحنايا المحاذية لأريانة والمزوّدة لفسقيّة بستان أبي فهر (في وسط مدينة العلوم اليوم) وذلك لتحصين سور حلق الوادي وبناء حصن جزيرة شكلي وسط البحيرة ودعم بناء «الباستيون» (قرب باب البحر في مكان سفارة فرنسا اليوم)، وهو عبارة عن قلعة محصّنة بالصّخور الضّخمة والجدران العالية.

وأمعن الجند الإسبان في التّخريب، فأتوا على مظاهر الحضارة العمرانيّة في كامل الجهة، ومحوا ماكان لأريانة وأحوازها السّلطانيّة من البهجة فأصبحت معالمها أثرا بعد عين.

وفقدت هذه الضّاحية السّلطانيّة الحفصيّة معالمها المتميّزة كما تعطّلت وظيفتها الفلاحيّة والصّناعيّة بسبب الحماية الإسبانيّة وفعلها السّلبي.وبدأت اليقظة بطيئة بدءا من القرن السّابع عشر خاصّة بقدوم أفواج المهاجرين الأندلسيّين وإن كانت هذه الهجرة الأندلسيّة قد بدأت منذ سقطت غرناطة آخر إمارة إسلاميّة وخرجت من سلطة ملوكها بني الأحمر إلى سلطة «فردند الكاثوليكي» صاحب قشتالة، فكانت الطّامّة الكبرى. فهاجر عندئذ خلق عظيم ولم يبق من السّكّان إلاّ الضّعفاء مهانين في معتقدهم مضطهدين في حقوقهم. وتوالى ظلمهم في مواطنهم حتى انتهى الأمر إلى تشريدهم وطردهم إلاّ من تنصّر منهم،فتوافدوا ملتجئين برقابهم ودينهم إلى بلاد المغرب وقصدوا خاصّة القطر التّونسي لما كان يبلغهم عن كرم أهله وخصب تربته من سنة 1016 هـ إلى ما بعدها.

وكان أوّل قدومهم على عهد عثمان داي وهومن أفضل الجند القادمين صحبة سنان باشا. فالهجرة الأندلسيّة قد بدأت بصفة مكثّفة بعد الاستيلاء التّركي ومنذ بدايته في عهد عثمان داي «فإن هذا الدّاي أقطع مهاجري الأندلس ما اختاروا من الأراضي ووزّع على محتاجيهم الأموال والنّفقات، فانتشروا في أكناف البلاد يشيدون القرى وينشؤون المزارع والبساتين حتّى استأنف القطر عمرانه المفقود وثروته الغابرة.

فمن المدن التي أسّسوها سليمان وقرنبالية والجديدة وزغوان وطبربة ومجازالباب وتستور وقلعة الأندلس وغيرها. وعلاوة على ذلك فقد استوطن منهم جانب وافر حاضرة تونس واتّخذوا بها حارات عرفت بهم مثل حومة الأندلس وزقاق الأندلس.وأنشأوا أسواقا للصّناعات التي جلبوها معهم كصناعة الشّاشية ونسج الحرير ونقش الرّخام والجبس والزّليج وقد نقل أهل البلاد عنهم أصول تلك الحرف حتى أتقنوها. وبالجملة فقد حصل للقطر من هجرة الأندلسيّين إليه ثروة واسعة وعمران دافق» . وقد نالت مدينة أريانة كضاحية فلاحيّة وصناعيّة أيضًا حظّها من مشاركة الهجرة الأندلسّية،كما بيّنا ذلك،في استعادة نهضتها وازدهارها في العهد الحفصي.وقد فقدتهما بفعل الزّحف الإسباني العنيف والهمجيّ.

أريانة

في حاضرها الواعد ومستقبلها المشرق

«إنّ دراسة الماضي تمكّننا من استجلاء الحاضر لإنارة المستقبل»

لويس التوسير

أريانة الحديثة: التحول السّكّاني والعمراني

إنّ مدينة أريانة ـ على غرار الحاضرة تونس ـ قد وجدت في أكناف السّلطة الحفصيّة التي تواصل نفوذ دولتها قرابة ثلاثة قرون ونصف تطورا حضاريًا واضح المعالم تمثّل في ازدهار عمرانيّ كامل شمل الجهة إذ أصبحت مقرّ سكن السّلطان وحاشيته.فإلى جانب القصر السّلطاني الذي كان يتوسّط بستان أبي فهر وهويطلّ على الفسقيّة العظيمة الذائعة الصّيت كانت تتجاور قصور رجالات الدّولة في بساتين محاذية إلى حدود روابي قمّرت المطّلة هي الأخرى على ساقية الحنايا التي تشقّ في عظمة الجمال والأبّهة منبسط «العوينة» إلى خزّانات المعلّقة بقرطاج ـ وقد بسطنا الحديث في ذلك فيما سبق من الفصول. كما تمثّل هذا التّطوّر الحضاري الحفصي في مشروع واسع النّطاق في ميداني السّقاية والرّيّ.وأصدق مظهر له إعادة ترميم ساقية الحنايا من زغوان إلى بستان أبي فهر،وخاصّة إنشاء الفرع منها إلى الجابية العظيمة التي أطنب في وصفها بباعث الإعجاب مؤرّخنا الكبير عبد الرّحمان بن خلدون.ومازالت آثارها قائمة إلى الآن تطوّقها بنايات مدينة العلوم حاليًا. كلّ هذا إلى جانب بئر البطّون بجانبها ووسائل الرّيّ الأخرى كالآبار المسترسلة وهي ما سمّي بطريقة الفجارةFOGGARA، وإقامة النّواعير على الآبار وتزويد تونس الحاضرة بمنابع الماء في الأحياء في أجعاب الرّصاص (المصّاصات).

وقد زاد هذه الجوانب العمرانية قوّة وتمكّنا في جهة أريانة بكاملها التّمازج السّكّاني وتنوّعه.ويثبت لنا جان دانتوار Jean D'Anthouardفي مقاله «بلدة أريانة وقصورها» الصّادر في «النّشرة الاقتصاديّة والاجتماعيّة التّونسيّة» أنّ من سكّان أريانة من يعودون في أصلهم إلى الجالية القبطيّة والأندلسيّة. فأمّا الأقباط فيرجع قدومهم إلى القرن الثّامن حين جلب القائد العربيّ حسّان بن النّعمان ألف رجل وامرأة من أقباط مصر لحفر القناة الرّابطة بين حلق الوادي وتونس الحاضرة، فأسكنهم أريانة واستوطنوا بها دون أن يعودوا إلى بلادهم. وأمّا الجالية الأندلسيّة فإن قدومها يعود إلى القرن السّادس عشر.وترجع آخر هجرة لهم إلى تونس إلى عهد ملك إسبانيا فيليب الثّالث وعثمان باي في تونس (1016 هـ / 1607م) وقد ضمّت حوالي مائتي ألف مهاجر من مختلف المدن الأندلسيّة بين مسلمين ويهود.

ويؤكّد هذا الباحث أنّ الأندلسيّين يتميّزون على السّكّان السابقين لهم في استيطان بلدة أريانة بملامحهم النّحيفة وشعورهم الشّقراء. كما أنّ لهم أردية خاصّة بهم مثل الكدرون والشّاش المخطّط. ويرون في المساء عائدين من حقول منطقة جعفر المجاورة للبلدة ينقلون على ظهور دوابّهم زنابيل مخروطيّة الشّكل مصنوعة من الخشب ملأى ببطّيخ جعفر الشّهير في ذلك الوقت. وهم يتخاطبون بلهجة فيها إمالة بعض الأصوات وتمطيط لها في غنّة ليست عند غيرهم من سكّان الجهة.

والأندلسيّون ببلدة أريانة وجهتها لا يختلفون عن مهاجري الأندلس الذين عهدنا وجودهم في روابي قمّرت وبساتينها وفي قلعة الأندلس وتستور والسلوقيّة. ومن أسمائهم: القسطلّي (نسبة إلى قسطلّو بالبرتغال) وتروالي (من تروال بالأندلس) والسّرقسطي (نسبة إلى سرقسطة بشمال الوادي الكبير بالأندلس).

وقد تعوّد هؤلاء الأندلسيّون مجاورة أبناء بلدهم من يهودالأندلس في نفس المنزل. وعادة تساكن المسلمين واليهود في بيت واحد تلاحظ خاصّة في أريانة ونابل وباجة دون غيرها من المدن التّونسيّة. فقد

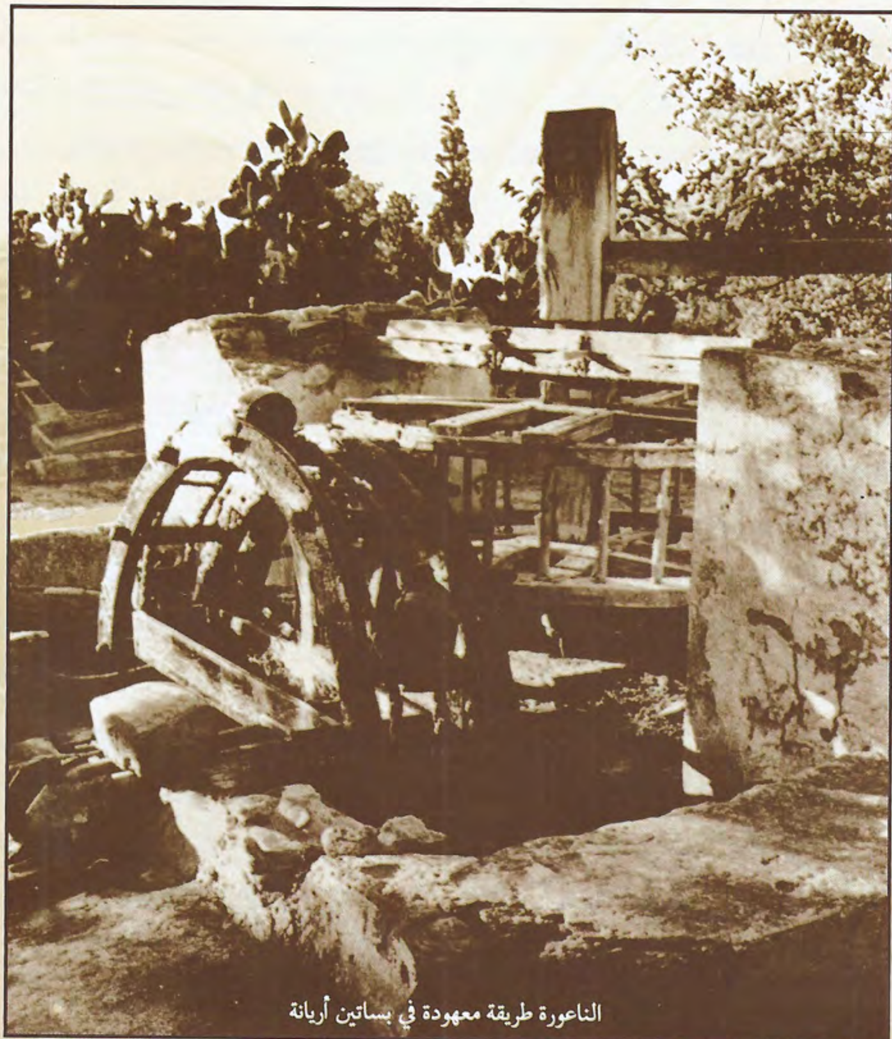
كانوا جميعا أطردوا في كثير من الأحيان من نفس المدينة أو نفس القرية من أرض الأندلس التي سلبها منهم النّصارى.فإنّ نفس المحنة قد جمعتهم وقاربت بينهم في نفس الهجرة والتّوجّه وحتّى الطّريق، فتقاسموا نفس البيت في غرف متقابلة يجمع بينها نفس صحن الدّار والمرافق كالبئر أو الجابية والمطبخ والمخازن والأروقة والأفنية، فيتعاونون في السّرّاء والضّرّاء والأفراح والأتراح. ويشتركون في نفس الأعمال لتقاربهم في الأذواق ونوعيّة العيش كالميل إلى حبّ النّزهة وزراعة الخضر والأزهار وتقطيرها.ومن ذلك شهرة أريانة بَالورد وماء الورد وماء أزهار البرتقال وصناعة النّساء الكبّوس الذي يرسل إلى قرية البطّان ليكرد ويصبغ ويصبح الشّاشيّة القرموزيّة المشهورة في تونس.وقد غزت تجارتها بلاد المغرب جميعا إلى حدود البلاد الإفريقيّة كالنّيجر والسّنغال.

وكان لهؤلاء السّكّان الجدد من الأندلسيّين القادمين إلى تونس، وخاصّة إلى ضاحيتها المتميّزة مدينة أريانة، من مدن بلنسيّة وغرناطة وشاطبة وجيّان ومالقة الأندلسيّة، دور هامّ منذ بداية القرن السّابع عشر في تنشئة طرق جديدة في الفلاحة مثل طرق الرّيّ بإخراج الماء من الآبار بناعورة يديرها جمل أو ثور على غرار ناعورة بئر الصّفصاف بالمرسى أو بئر برّوطة بالقيروان إلى اليوم.

فكانت كلّ الآبار مجهّزة بالنّواعير.ويذكر لنا شيوخ الفلاّحين بأريانة من الطّاعنين في السّنّ أنّ المارّ في المسارب الفاصلة بين السّواني يسمع أزيز النّواعير من كلّ جانب وتدفّق الماء في الجوابي وخريرها في السّواقي مندفعة من أفواه الجرار الموثوقة في حبال (القوادس جمع قادوس) تديرها عجلة خشبيّة ضخمة يحرّكها صار أفقيّ ممدود وموثوق في كتب البعير أو بردعة الحمار والبغل أوفي نير الثّور. ويدور الحيوان في حلقة حول البئر فتدور النّاعورة بدورانه وتتجاوب هذه النّواعير بأزيزها وأنّاتها من كلّ صوب في البساتين المتجاورة فتحدث أصواتا ترافقها حناجر الصّبايا الفلاّحات بالأهازيج وأعذب الألحان. وقد صوّر كثير من الشّعراء الشّعبيّون أفراح الفلاّحين والفلاّحات في مواسم الجني والحصاد وتغنّوا «بالبير والصّفصاف والنّاعورة».

وزيادة في تثبيت هذه النّهضة الفلاحيّة جلب الأندلسيّون مزورعات جديدة لاعهد للبلاد بها كالطّماطم والفلفل بشتّى أنواعه، وأنواعا من الباكورات الفصليّة من ذلك بطّيخ جعفر الذي اشتهر في البلاد اشتهار بطّيخ باجة أوتفّاح جربة.كما تفنّنوا في زراعة الأزهار وإنتاج روح الأزهار (ماء وزيتا) كالورد وأزهار القوارص والنّسرين.وإلى المهاجرين الأندلسيّين بأريانة تعزى زراعة الورد في أراض شاسعة حتّى أصبحت صناعة مخصوصة عرفت بها أريانة فتشبّهت بساتينها بجنّة العريف البستان بقصر الحمراء المعروف إلى اليوم في مدينة غرناطة.ووردها هو نفسه ورد أريانة.وجنّة العريف مزار السّيّاح اليوم في غرناطة الأندلسيّة ومفخرة من مفاخر معالمها يعتزّ به الغرناطيّون.

أمّا عن غراسة الزّيتون والأشجار المثمرة فحدّث ولاحرج.فقد أصبحت بساتين أريانة وما حولها من روابي جعفر وكرش الغابة وفجّ الرّيح غابات شاسعة من أشجار الزّيتون زاحمت عديد المناطق المختصّة في إنتاج الزّيت إلى جانب الشّهرة التي أحرزتها كامل منطقة أريانة في تونس وخارجها، كما سنبيّن ذلك، في تميّزها بالهواء النّقيّ الشّافي للمعتلّين الذين يقصدونها في الصّيف والرّبيع. وقد نوّه بذلك الرّوائي الشّهير «قوستاف فلوبار» الذي قدم إليها مرّتين للاستشفاء في القرن التّاسع عشر.وكانت بساتين أريانة تزوّد



الناعورة طريقة معهودة في بساتين أريانة

الحاضرة تونس بشتّى أنواع الخضر والثّمار. وقد أطال المؤرّخون والوصّافون الحديث عن ذلك.ويكفى أن نشير إلى ما كتبه شارل منشكور CHARLES MONCHICOURT عن دور أريانة في إنتاجها الفلاحي في نهاية القرن التّاسع عشر في كتابه «منطقة تونس» سنة (1904 ص 166):

LA RÉGION DE TUNIS . ANNALES DE GEOGRAPHIE

ولابدّ أن نذكر هنا أنّ يهود الأندلس قد سبقواأهلها المسلمين في هجرتهم إلى مدينة تونس وإلى أريانة، فبنوا بيعتهم فيها وسمّوها «الغريبة» وهي إلى الآن موجودة في المدينة العتيقة في زقاق ضيّق قبالة السّوق البلديّة.ويعود بناء «الغريبة» حيث يقيم السّكّان اليهود طقوسهم الدّينيّة في أريانة حسب أسطورة يتناقلها اليهود الأريانيّون إلى اكتشاف لفّة من ورق البرديPAPYRUS كتبت عليها القوانين العشرة الموسويّة حملها البحر على شاطئ روّاد فعثر عليها بعضهم وحفظت في هذه البيعة التي سمّاها يهود أريانة «الغريبة» (انظر في ذلك مقال جاك طيّب :إحدى ضواحي تونس: أريانة).

Une Banlieue de Tunis L'Ariana-Cahier de Tunisie n°32, 4 ème trimestre 1960

ويثبت صاحب المقال أن البيعة اليهوديّة التي تحمل اسم «غريبة»توجد في العديد من المدن التّونسيّة أشهرها الغريبة في جربة.ولها زيارة سنويّة موسميّة من اليهود في الدّاخل والخارج، والغريبة في الكاف، وأخرى في تونس،وأخرى في عنّابة (صفحة 40 من مقال جاك طيّب).

ومن الميزات الخلقيّة للسّكّان الأندلسيّين بأريانة أنّهم كانوا بيض البشرة شقرا، في كلامهم غنّة وتكثر في لهجتهم إمالة لبعض الأصوات مع فأفأة عند بعضهم أو تشتشة تميّزهم عن غيرهم من سكّان مدينة أريانة وأريافها.ويلبس الرّجال منهم جلبابا فضفاضا يسمّونه «بلوزة».وتعلو رؤوسهم الشّاشية القرمزيّة يحيط بها «الشّاش» المزركش، وهو عبارة عن قلنسوّة غليظة أو مفتوحة (غير ملويّة).

أمّا النّساء فيخرجن مؤتزرات «بالفرّاشيّة» المنسوجة من الصّوف الأبيض قد تزّينها خطوط ملوّنة في الأطراف، وهي من حياكة مختصّات حاذقات على الأنوال المنزليّة والصّانعات من ساكنات أريانة.وقد أصبح لا يخلو بيت أرياني من نول، فكلّ النّساء يزردن الكبّوس الذي تصنع منه الشّاشيّة وتصبغ بالقرمز في مصنع قرية البطّان الشّهير،وهو غير بعيد من أريانة،فيتولّى تجّار الشّاشيّة تقديم الصّوف لزرده بمقابل مالي يقدّر بخمس فرنكات عن الكبّوس الواحد. وتقوم الأريانيّات بهذه الصّناعة اليدويّة في منازلهنّ. وأصبح بذلك للمرأة الأريانيّة دوركبير في المشاركة في ازدهار الحركة الاقتصاديّة للبلاد، وفي جانب هامّ من اقتصاد الأسرة أيضا. وزرد الكبّوس قد اختصّت به نساء أريانة دون غيرهنّ.ونحن نعلم دور صناعة الشّاشيّة في الاقتصاد التّونسي خاصّة في القرن التّاسع عشر.

ونتج عن وظيفة أريانة الأساسيّة، وهي الفلاحة في زراعة شتّى الباكورات وغراسة الأشجار المثمرة وخاصّة الزّياتين، وظيفة ثانية تأكّدت خاصّة في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر هي السّياحة أو لنقل النّزهة وقضاء فصل الرّبيع بين أحضان طبيعة غنّاء.وتأصّلت عادة سكّان العاصمة في قضاء الرّبيع أو جزء منه في أرحاب مدينة أريانة وفي أكناف ريفها الجميل بين الخضرة والماء العذب على غرار ما يقع اليوم لجميع السّكّان في تونس في فصل الصّيف.فأصبح قضاء الرّبيع في أريانة من فرضيّات حياة سكّان العاصمة من جميع الفئات، وخاصّة من اليهود الذين ضاق بهم حيّ الحفصيّة قرب ضريح سيدي محرز بالعاصمة.

ويثبت جاك طيّب في بحثه السّالف الذّكر(صفحة 44) «أنّ وظيفة أريانة كمركز للنّزهة قد تأكّد كما لاحظنا ذلك منذ بداية القرن التّاسع عشر.وأصبح من الثّوابت المحمودة لدى الطّبقة الأرستقراطيّة المتموّلة من سكّان الحاضرة تونس سواء كانوا من المسلمين أومن اليهود امتلاك بيت فخم في مدينة أريانة لقضاء فصل الرّبيع. وإنّ أقلّ النّاس حظوة ماليّة يكتفون بكراء بعض المنازل أو الغرف من الأريانيّين. وتواصل الالتجاء إلى هذه النّزهة الرّبيعيّة بصفة مكثّفة إلى حدود الحرب العالميّة الأولى (1914 - 1918).وتمادت الجالية اليهوديّة في هذه العادة كلّ أيّام السّبت والأعياد فيحيون مهرجان التّنكّر بالأزياء أو الكرنفال في عيدي الفصح وبوريم. ويقبل الزّوار على المطاعم وباعة الأكلات الجاهزة بنهم وشراهة، وينعمون بالنّزهة بين بساتين الورد، ويشربون ماء بئر بلحسن، ثمّ يعودون إلى حاضرة تونس.ولم تنقطع هذه العادة رغم زوال البساتين والورود، فأصبح وجودها في عداد الذّكريات. ويعود إليها المتنزّهون إلى حدّ الآن

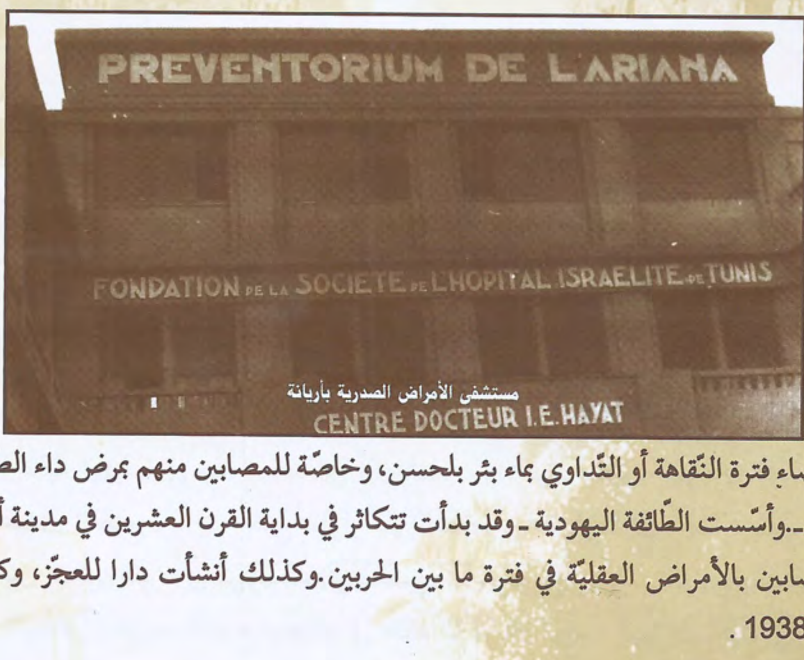
في أمسيات الصّيف بعد الرجوع من شاطئ البحر.وإنّ ارتفاع عدد المقاهي ودكاكين الشّوّائين يبرّره كما يبدو ازدحام الزّائرين الذي ما يزال في تواصله.

وأصبح لمدينة أريانة، إلى جانب ما ذكرنا، وظيفة هامّة أخرى هي ارتقاؤها إلى مركز استشفائي.وتأكّدت هذه الوظيفة في نهاية القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين.فلقد اشتهر هواء أريانة



الدكتور حياة مع معينيه - رائد مقاومة مرض السل بتونس

ومناخها الجافّ السّليم لدى الخاصّ والعامّ في داخل البلاد وخارجها بنفعه للأبدان وخاصّة للعليلة منها حتّى جرى في ذلك مثل تردّده الألسن «لوكان أريانة فيها بحر ما يمشي أحد للقبر».وزاد النّاس يقينا بما للعيش في مدينة أريانة من النّفع للأبدان والأرواح عندما صار العديد من أطبّاء الحاضرة تونس ينصحون



مستشفى الأمراض الصدرية بأريانة

مرضاهم بقضاء فترة النّقاهة أو التّداوي بماء بئر بلحسن، وخاصّة للمصابين منهم بمرض داء الصّدر أوالسّلّ ـ عفاكم اللّه ـ.وأسّست الطّائفة اليهودية ـ وقد بدأت تتكاثر في بداية القرن العشرين في مدينة أريانة ـ مركزا للرّاحة للمصابين بالأمراض العقليّة في فترة ما بين الحربين.وكذلك أنشأت دارا للعجّز، وكذلك مراكز للوقاية سنة 1938 .

وفي سنة 1956 أنشأت كتابة الدّولة للصّحة العموميّة والشّؤون الاجتماعيّة مستشفى الأمراض الصّدريّة للأطفال، بقمّة ربوة تطلّ على مدينة أريانة وسط غابة الزّياتين الشّاسعة غير بعيد عن مركز الأمراض العقليّة.

ولابد أن نلاحظ أنّ الإحصائيّات السّكّانيّة للمدينة تثبت أنّ هجرة مكثّفة لليهود إلى مدينة أريانة بدأت تظهر بعد الحرب العالميّة الأولى (1914 ـ 1918)من الحارة بمنطقة الحفصيّة بالعاصمة قرب زاوية الوليّ الصّالح محرز بن خلف حتّى أصبح عددهم يفوق السّكان الأصليّين (انظر الخريطة السّكانيّة).وتعود أسباب انتقالهم من العاصمة إلى ضيق الحارة وتدهور الأحوال الصّحيّة فيها لضيق المساكن وخراب البيوت.وتلت هجرة اليهود هذه إلى أريانة رغبة الأوربيّين منذ نهاية الحرب العالميّة الثّانية سنة 1945 في السّكن في مدينة أريانة وذلك من أجل أزمة السّكن في العاصمة تونس.

وأدخلت هذه الهجرات المتتالية تبدّلا في المظهر السّكّاني لمدينة أريانة نوعا وعددا. وتكوّنت بسبب هذا الضّغط السّكّاني مؤسّسات جديدة تستجيب لتطوّر الخدمات الاجتماعيّة داخل البلدة.من ذلك بعثت إدارة مشيخة المدينة وأنشئت سوق قارّة للخضر وأسواق أسبوعيّة في بعض أحياء المدينة.وأدخلت وسائل النّقل العموميّة بين أريانة والعاصمة لنقل الموظّفين والعمّال الّذين اختاروا مقرّ إقامتهم وسكناهم طوال السّنة في هذه الضّاحية الجميلة.وقد استفادوا من طيب هوائها واعتدال مناخها واستلذّوا هدوء العيش في أكنافها وبين بساتينها ربيعا وكذلك صيفا.

وليس غريبا أنّ نرى الطّبقة الأرستقراطيّة في العاصمة تونس تستجيب لما لمدينة أريانة من المغريات الطّبيعيّة والمناخيّة فتختارها مربعا وتبذل من أجل ذلك نفقات باهضة في ابتناء منازل فخمة حول مدينة أريانة العتيقة أو تنشئ أبراجا في وسط المزارع والبساتين المترامية الأطراف في ريف المدينة سواء في سكرة أو شطرانة أو جعفر.وهذه الأبراج هي منازل فخمة تجمع بين الطّابع الحضريّ بما فيها من المرافق كالغرف الكثيرة والحمّامات وبيوت الجلوس، كما يضاف إلى هذه المرافق المتأنّقة ما يصل ساكني البرج بالحياة القرويّة، من ذلك الاصطبلات للخيول الجارّة لأصناف من العربات ووسائل النّقل كالكرّوسة الّتي تنقل أفراد العائلة من الحريم إلى العاصمة، أو الكاليس الذي يستعمله صاحب البرج والضّيعة لمراقبة أعمال الفلاّحين على عين المكان في مواطن العمل سواء عند الحصاد أو جني الثّمار والزّيتون.كما تخصّص فضاءات أخرى حول البرج لخزن المحاصيل الزّراعيّة وأعلاف الحيوانات من تبن وبرسيم وحبوب بمختلف أنواعها.هذا إلى جانب حوش الطّيور المتنوّعة وإصطبلات الأبقار الحلوب والخرفان وسائر الأنعام الدّاجنة الأخرى.وبهذه الصّفة تجمع العائلة بين الحياة المدنيّة والقرويّة في فترة اعتدال الطّقس وخاصّة طوال فصل الرّبيع.



مدينة أريانة تحدّث أخبارها
أو أريانة مع الزّمن الآتي

المعالم والمواقع بأريانة: القصور والأبراج.

جلبت مدينة أريانة وأحوازها منذ نهاية القرن الثّامن عشر وبداية القرن التّاسع عشر الطّبقة الأرستقراطيّة والطّبقة المتموّلة من سكّان الحاضرة تونس لقضاء فصلي الرّبيع والصّيف في البساتين المجاورة للبلدة أو في منطقة سكرة وضيعات ريف سيدي عمر بوخطيوة وهضاب النّحلي وسهل روّاد حيث أجنّة برج الطّويل وبرج كريمة.فأنشأ المتموّلون منهم وأهل اليسار والنّعمة سواء كانوا من الموظّفين السّامين في دولة الباي أو من التّجّار المسلمين واليهود، أنشأوا منازل فخمة هي أقرب إلى القصور منها إلى الدّور العاديّة يتوسّط كلّ واحد منها بستان شاسع تحيط به الأشجار الباسقة، منها ما جعل للزّينة ولأزهارها الجميلة،ومنها ما هي أشجار مثمرة.وكثيرا ما يكون بجوار هذا البيت الفخم في أحد أفنية البستان البئر الّتي تعلوها النّاعورة، وتحاذيها الجابية الفسيحة، وتتصدّر مدخل البيت الذي تظلّله أشجار عالية نافورة الماء من الرّخام الورديّ ذات طبقتين أوثلاث تزيد هذا البيت رونقا وبهجة. وقدأسّس هذا البيت وما حوله لغاية النّزهة وطلبا للهواء النّقيّ الذي عرفت به مدينة أريانة ومنطقتها وكذلك لمائها العذب وقد آشتهر بنفعه للأصحّاء والمعتلّين.

وجلبت هذه المساكن الفخمة انتباه بعض الدارسين للفنّ المعماري التّونسيّ، فتعرّض إليه جاك ريفو (Jacques Rivault) ـ على سبيل المثال ـ في كتابه «الإقامات الصّيفيّة الثّانوية في تونس» ووصف طابع الفنّ المعماري لبيوت النّزهة بأريانة.ويرجع هوالآخر بناء هذه الدّور الفخمة في ريف أريانة وفي البساتين المجاورة للبلدة على امتداد عهدي أحمد باي المشير الأول (1837 ـ 1855) والصّادق باي المشير الثّالث (1859 ـ 1882).

ويثبت هذا الباحث أنّ مدينة أريانة وأريافها الشّاسعة حولها قد استهوت بمباهجها الطّبيعيّة العديد من وزراء الباي ومن كان في خدمته من موظّفي المخزن وهم رجالات الدّولة الذين شغلوا المناصب الإداريّة المرموقة والمراكز العسكريّة السّامية في الدّولة سواء في الحاضرة تونس أو فيما سمّي بالعمالات وهي الشّبيهة في دولة الباي بالولايات في التّقسيم الإداريّ اليوم. فكانت هذه الشخصيّات في دولة الباي تملك دورا فخمة لقضاء الاستراحة في الصّيف في مدينة المرسى بشاطئ سيدي عبد العزيز أو سيدي أبي سعيد أو سلامبو.ودفع سراة الدّولة منهم إلى زيادة بناء منازل فخمة أخرى في أريانة جمال موقعها وريع بساتينها ونقاء هوائها ـ كما أصبح ذلك شائعا عند القاصي والدّاني ـ وثانيا قربها من الحاضرة. وقد آستهوت من جانب آخر الباي نفسه، فأصبح يتردّد على أريانة.وممّا يذكر إلى عهد قريب أنّ وليّ العهد محمّد الحبيب باي كان يسكنها طوال السّنة.

ونذكر من الأسر المرموقة في القرن التّاسع عشر ممّن شيّدت قصرا أو برجا في أريانة أو محاذيا لها: أسرة الزّاوش وابن عيّاد والبكّوش وابن عاشور ونسيم شمّامة، دون أن نغفل عن خال أحمد باي الكونت رافّو Raffo الذي آبتنى لنفسه قصرا يضمّه اليوم المعهد الثّانوي خير الدّين بمدخل مدينة أريانة. وجلّ هذه الأسر تملك دورا فخمة معروفة في الحاضرة وفي ضاحيتها الشّماليّة كالمرسى وسيدي أبي سعيد.ولكنّ أريانة ببساتينها الغنّاء وجمالها الفائق ـ كما بيّنّا ـ قد استقطبت هذه الطّبقة المتموّلة ففضّلتها على غيرها

من المرابع ومواطن الاصطياف.

وسنرى أنّ هذه الإقامات الثّانويّة، وخاصّة ما كان منها في وسط مدينة أريانة،تصبح بعيد الاستقلال ملكا للدّولة التّونسيّة، وتتحوّل إلى مراكز إداريّة جهويّة تابعة لبعض الوزارات، أو يصبح بعضها مدارس



قصر الوزير رفّو تحوّل إلى مدرسة للمهن منذ زمن قريب

عموميّة تابعة لوزارة التّعليم. وأبرز مثال على ذلك قصر عبد الرّحمان بن عياد ـ في مدخل مدينة أريانة ـ وهو الذي تحوّل إلى مدرسة ابتدائيّة بعد أن كان مقرّا لعجزّ الحرب العالميّة، ثمّ أصبح منذ سنة 1983 مقرّ البلدّية وإدارتها المركزّية، وما تزال تشغله إلى اليوم. وهذا القصر قد بني حوالي 1860. ورغم ما أدخلت عليه من تغييرات في الدّاخل والخارج فهو لايزال يحتفظ ببعض المظاهر التي تعطينا فكرة واضحة عن مباهج هذه المنازل الفخمة.ولنا أن نقدم وصفا عن بعض هذه القصور أو الأبراج التي تشهد على مدى ما لمدينة أريانة ومنطقتها من المنزلة الرّفيعة عند سكّان الحاضرة مهما اختلفت طبقاتهم الاجتماعيّة.

شواهد عن ماض عريـــق:

إنّ كتب التّاريخ والدّراسات التيّ تعرّضت لمدينة أريانة من قريب أو من بعيد ـ وقد حرصنا على أن نقدّم منها بعض الفوائد التي رأيناها جديرة بالذّكر ـ تثبت أنّ هذه المدينة الشّهيدة طورا والمناضلة أطوارا أخرى تعدّ مركزا عريقا ومحورا أساسيّا دارت فيه وحوله أحداث جسام قلقلت البلد وحيّرت السّاسة والحكّام وأضنت سكّانها الطّيّبين على مدى أزمان من تاريخ تونس. ذلك لأنّ مدينة أريانة كانت الدّرع الواقية للحاضرة في الوقائع الجليلة والأزمات العصيبة ـ وقد بسطنا الحديث في هذا المضمار فيما سبق.

وينتظر أن نجد في أرجاء أريانة معالم ومواقع أثريّة كثيرة ومتنوّعة. ولكنّنا ـ في واقع الأمر ـ لا نظفر بشواهد متميّزة عن هذا الماضي التّليد للمدينة. فأقصى ما نحصل عليه يتمثّل في صفحات ضنينة وموجزة وصف فيها بعض من زار أريانة من الرحّالين مشاهد قديمة في المدينة أو قريبا منها. كما نعثر أيضًا خلال بعض المقالات القديمة على صور فوتغرافيّة أو مخطّطات تشهد بوجود معالم كانت موجودة وأتت عليها يد

الهدم عند بناء عمارات وأحياء سكنيّة عصريّة.

فلم يبق حينئذ من أريانة القديمة ذلك السّور القديم الذي كان يحيط بالمباني والدّور والأسواق في المدينة العتيقة. ويذكر بعض الدارسّين أن هذا السور كان قائما في أوائل القرن الثّامن عشر (راجع ما كتبه ليون الإفريقي في كتابه «وصف إفريقيا»).

ويذكر لنا أنّ بابا واحدا للمدينة فتح في هذا السّور يخرج منه جميع السّكّان يقابل زاوية سيدي عمّار ويواجه المسجد الحفصيّ الوحيد آنذاك في المدينة. ومن المؤرّخين من يثبت أن المسجد هو من العهد الصّنهاجي زمن وجود الشّيخ الصّالح محرز بن خلف طيلة شبابه إلى حدّ كهولته في مدينة أريانة.



المسجد الجامع بأريانة أسس في العهد الحفصي

ويحدّثنا الباحث جان دانتوار (Jean d'Anthouard) عن الآثار والمعالم خارج ما يزعم أنّه سور كان يحيط بالبلدة في زمن غير بعيد. ويقدّم لنا وصفا مشفوعا ببعض الصّور في مقاله: «بلدة أريانة وقصورها» صادر في المجلّة الاقتصاديّة والاجتماعيّة لتونس سنة 1951 في عددها الثّاني، ويعتمد على العديد من المراجع، وخاصّة على البحث الميداني الذي قام به المهندس جان مرسال سولنياك (J.M.Solignac) «أشغال السّقاية والرّيّ في العهد الحفصي». ويثبت المنزلة التّاريخيّة التي احتلّتها أريانة وجهتها حضاريّا وعمرانيّا عندما جعلها المستنصر باللّه الحفصي مقرا لسكناه، فبنى قصوره الضّخمة وأحاطها ببستان أبي فهر الذي كان آية للنّاظرين خضرة ورونق أشجار ونوّار حتى جلب إعجاب الوصّافين ومن بينهم مؤرّخنا ابن خلدون كما ذكر ذلك آنفا. وقد طبّقت شهرة هذه المباني الآفاق. ويذكر أنّ هذا البستان كان يمتدّ من رأس الطّابية قرب باب سعدون إلى حدود برج الوزير اليوم، ويذهب بعضهم إلى القول إنّ قصور حاشية السّلطان الحفصي ربّما امتدت إلى روابي قمّرت. ويعتمد جان دانتوار في بحثه على بعض المراجع، ومن أهمّها «كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر» لعبد الرّحمان بن خلدون (1332 ـ 1408م) في

جزئه السّادس، وكذلك على ما أخذه مباشرة بذكر المرجعيّة في ذلك من معلومات منقولة عن المرحوم عثمان الكعّاك،المؤرّخ التّونسيّ المعاصر. فماذا بقي من بستان أبي فهر بالجنوب الشّرقيّ من مدينة أريانة ؟ وماذا انتهى إلينا من المعالم الحفصية وما بعدها؟

ويمكن أن نلخّص الإجابة عن هذين السّؤالين فيما يلي - وقد كنّا عرضنا للمظاهر الحضاريّة والعمرانيّة طيلة العهد الحفصي قرابة ثلاثة قرون ونصف في الفصول السّابقة من هذا الكتاب. وقد نالت أريانة وجهتها الحظّ الأوفر من ذلك - فنقول إجمالا لذلك إنّ «المستنصر باللّه الحفصي» أتمّ ترميم ساقية الحنايا من زغوان إلى أريانة سنة 1252م. مهملا بقيّتها الواصلة إلى خزّانات المعلّقة بقرطاج أي حوالي ستة عشر كيلومترا من مائة وإثنين وثلاثين امتدادها الكامل من زغوان إلى قرطاج. وأسّس لأوّل مرّة فرعيها من باردو إلى القصبة لتزويد جامع الزيتونة والحاضرة تونس بالماء الصّالح للشّراب ومن وادي قرب (حيّ النصر اليوم) إلى بستان أبي فهر وجابيته العجيبة في مدينة العلوم اليوم.

وساقية الحنايا العجيبة هي التي بناها الامبراطور «هدريان» **Hadrien** بين سنتي 120 و138 للميلاد وقطعها «حسّان بن النّعمان» عند حصاره لمدينة قرطاج والتّغلّب على الدّولة البيزنطيّة فيها التي كان يرأسها «البطريق يوحنّا» سنة 78 هـ/ 698م. وأجرى المستنصر باللّه الحفصي (1249 ـ 1277) عن طريق ساقية الحنايا كما أسلفنا ماء زغوان إلى الجابية العجيبة التي أطال في وصفها عبد الرّحمان بن خلدون وأطنب في الحديث في نقل ما شاهده حولها من ريع البستان والأشجار البواسق بمختلف أنواعها وذكر أنّ الفلك تحمل الحسان من الجواري للنّزهة عبر هذا البستان، فتسبح كأنها في اليمّ العريض.

واعتبر هذا المعلم الذي تظهر آثاره في مدينة العلوم من المعالم الرّسميّة سنة 1912كما أكّد ذلك مارسال سولنياك **Solignac** في بحثه. وقد عثر عليه الباحثون قبله. ويثبت مزيّة ذلك إلى الباحث كوكلار **M.Gauckler** مدير مصلحة الأثار بالبلاد التّونسيّة،وكذلك المهندس لويس درابيي **M.Louis Drapprier** وتمتدّ هذه البركة محاذية الطّريق عدد ,31 على 200 متر في جنوبها بين أريانة وتونس، مرورا بالمدرسة العليا للفلاحة وقصر البكّوش.

وبقي من هذه البركة ـ حسب هذا المقال ـ جدارها الغربيّ وجدارها الجنوبيّ. ولها من الطّول 209 أمتار على عرض 80مترا ونصف متر، فتكون مساحتها حوالي 16.824 مترا مرّبعا. وإذا كان لها من العمق متر فحسب، إذ بقي ذلك غير محدد بسببب الأتربة التي ملأتها، فتكون كمّيّة الماء فيها حوالي 33.648 مترا مكعّبا ويمكن أن نقارنها ببركة الأغالبة قرب قصر رقّادة على ثمانية كيلو مترات من القيروان، وهي التي تمسح 19.000 مترا مربّعا ويمكن أن تكون تعبئتها 38.000 متر مكعّب من الماء).

ومن المعالم الحفصيّة التي أصبحت أثرا بعد عين بسبب الزّحفة الإسبانيّة على تونس وأريانة توجد آثار برج العلوج الذي يمثّل موقع ثكنة الحرس الخاصّ للسّلطان الحفصي، وهم من المرتزقة من أصل مسيحيّ من جزيرتي كورسيكا وسردينيا خاصّة، وهم مكلّفون بحراسة القصور والإقامة الرّسميّة. والعلوج (جمع علج ومؤنثه علجيّة) هو كلّ أجنبي من غير المسلمين، وعادة ما يطلق على الجنود القادمين من جنوة أو سردينيا أو إيطاليا). ويوجد برج العلوج على بعد كيلومترين في الجهة الغربيّة للبركة في غابة الزّيتون

جنوب جبل النّحلي.

وغير بعيد من بركة بستان أبي فهر وعلى مائتي متر تقريبا عثر باحثو الآثار على بقايا قصر كان يدعى في زمن غير بعيد بقصر ابن عمّار، فرأى بعضهم أنّه جزء مما بقي من إقامة المستنصر باللّه الحفصي. ويذكر أنّ قصر ابن عمّار هذا قد كان ملكا لعائلة «سانتو روشيو» Santo Rouccio مدّة 54 سنة. وكانت



آثار قصر ابن عمّار

آثاره قائمة منذ عهد قريب محاذية للمدرسة العليا للفلاحة على الطّريق عدد 31 الرّابطة بين تونس وأريانة.

ويوجد العديد من القصور في ضواحي أريانة نذكر منها قصر البكّوش وقصر رفّو Raffo، وقد كان وزيرا لدى الباي، وقد وجدنا صورة له بريشة أحد الرسّامين في قصر باردو - مجلس النّوّاب اليوم - ويوجد قصر رفّو في مدخل أريانة من جهتها الجنوبيّة و قد أصبح في سنة 1951 مدرسة صناعيّة ويضمّه اليوم المعهد الثّانوي خير الدّين في أريانة.

كما يوجد في نفس الطّريق قصر «إيليّا شمّامة» وهو محافظ الخزينة العامّة للبلاد التّونسية في عهد أحمد باي سنة 1850 م ولم يبق منه إلى حدود 1951 سوى ساريّتين حجريّتين لمدخل بستانه يعلوهما مشبّك حديدي يحمل العلامة S.D 1873 في إطار بارز.

وإلى جانب هذه المعالم القديمة تسترعي انتباه كلّ زائر مدينة أريانة العتيقة المكوّنة من دور متلاحمة تتوفّر فيها مرافق الحياة القرويّة البسيطة إلى جانب قصور بعض العائلات الأرستقراطيّة الموسرة القادمة إلى أريانة من حاضرة تونس، وقد اختارت الإقامة فيها رغم أنّها تملك بيوتا على جانب من الفخامة والأبّهة في المرسى وسيدي أبي سعيد. ومن هذه العائلات نذكر: المستيري، والزّاوش، ورفّو، والقائد، ونسّيم، و شمّامة، وإبن عيّاد، والسّنوسي.

وتحيط بهذه القصور جميعا الأجنّة الجميلة والأشجار المثمرة، وفيها الآبار ذوات النّواعير حسب التّقنيّات الأندلسيّة في الرّيّ. وأقدم هذه القصور حول مدينة أريانة يعود إلى النصّف الثّاني من القرن الثّامن عشر. ويغلب على بنائها الطّابع الإيطالي من حيث الهيكل وشكل المعمار والتّزويق والنّقوش من الخارج وفي الدّاخل، وكذلك التّأثيث وتوزيع الفضاءات وانفتاحها على الخارج وتواصل المباني الإضافيّة



حول المبنى الأصليّ وسبل ارتباطها بالقصر.

و من الملاحظ أنّ جلّ هذه القصورقد خلت بعد من أهلها وساكنيها ودبّ فيها البلاء والخراب، ثمّ أصبحت ملكا للدّولة بعد الاستقلال، فجعلتها مؤسّسات للتّدريس أو مراكز إداريّة لبعض المصالح، أو أصبحت صنفا من المساكن الجماعيّة لفائدة العائلات الفقيرة من المسلمين واليهود تسمّى الواحدة منها وكالة فيما قبل الاستقلال بزمن قليل دون أن يدخل عليها أي إصلاح أو ترميم. وكانت هذه المباني التي احتفظت ببعض مباهج ماضيها التّليد مرتعا لعيون المعجبين الذين كانوا يتوافدون على مدينة أريانة في الرّبيع أو الصّيف فيكترون الدّور والمساكن المنتشرة في غابات الزّياتين الشّاسعة لقضاء فترة من الرّاحة أو لطلب العافية واسترجاع القوّة والصّحّة بشرب ماء بئرها المعروفة وهي «بئر بلحسن».

بئر بلحسن بأريانة:

تقع هذه البئر على طريق تونس في مدخل أريانة وقد طبّقت شهرة مائها الآفاق. وعرف هذا الماء عند القاصي والدّاني أنّه صالح للتبوّل ومن ذلك فهو يخرج الحصى من الكلى. وتتوسّط البئر بستانا يعرف بسانية القريقي عند العامّة وذلك لأنّ مالكها هو السيد «كوفوبولو» Couvopolo وأبناؤه وهو من أصل يونانيّ (إغريقي). وقد عثرنا في كتاب التّقويم التّونسي لسنة 1939 عن ترجمة لبعض أفراد عائلة كوفوبولو وهذا ما ورد فيه:

«كوفوبولو نيكولا كنستنتان» - أريانة 1900 - (ابن السيّد ديميتري كوفوبولو وهو أحد المستشارين البلديّين بأريانة وتوفّي هذا الأب في 1918 ونيكولا هو ملاّك وفلاّح ومستشار بلديّ أيضًا بأريانة منذ سنة 1929 يحمل أحد أنهج أريانة اسم أخيه جورج الذي مات مناضلا في الحرب الكبرى) وبحثنا عن نهج جورج كوفوبولو في



بئر بالحسن و سانية القريقي (Couvopolo)

مخطّط قديم لأريانة وهوالنهج الذي يحمل اسم قوتنبرق (Guttenberg) اليوم.

وعثرنا في «الحوليّات التّونسيّة» لسنة 1937–1938 على معلومة تفيد أنّ كوفوبولو كنستنتان كان عضوا في المجلس البلدي بأريانة من سنة 1935 إلى سنة 1938 برئاسة «الحبيب الجلّولي» الذي أصبح فيما بعد وزيرا أكبر لدى أحمد باي الثّاني (1942) وهوالذي اعتلى سدّة الحكم من سنة 1929 إلى وفاته في 19 جوان 1942. وقد أهدى نيكولا كوفوبولو بئر بلحسن إلى بلديّة أريانة فأصبحت بئرا عموميّة للسّقاية والاستشفاء بمائها شربا واغتسالا.

وهكذا اشتهرت أريانة من أجل مائها ونقاوة هوائها فجاءها القاصي والدّاني وخاصة في فصلي الرّبيع والصّيف وأصبحت مركز استشفاء بعدما أنشئت فيها موّسّسات خاصّة بذلك. وسنتعرّض لكلّ ذلك مفصّلا فيما سيأتي. فكان يقصدها خاصّة يهود الحاضرة حتّى فاق عددهم السّكّان الأصليّين لبلدة أريانة العتيقة. وتطوّر جمعهم فيما بعد، ثمّ وتناقص لظروف تاريخيّة كنّا تعرّضنا إليها ولخّصناها في الجدول السّكّاني العامّ حسب الأدلّة الإحصائيّة التي سجّلناها منذ نهاية القرن التّاسع عشر إلى الاستقلال في سنة 1956 (انظر الجدول الموضّح لكلّ ذلك).

ولم نعثر فيما بحثنا فيه من المراجع عن تاريخ حفر هذه البئر، ولكن ما يمكن أن نثبته أنّها قديمة. وقد ذكر نفع مائها لأمراض الكلى منذ نهاية القرن التّاسع عشر في بعض الكتابات الأدبيّة التي سنتعرّض لها في فصل أريانة في عيون الأدباء. وإنّ ما يمكن أن نقوله تخمينا عن بئر بلحسن أنّها قد تكون موجودة منذ العهد الحفصي إذ يتبيّن لنا من دراسة مارسال سولينياك عن السّقاية والرّيّ في العهد الحفصي أنّ هذه البئر تقع غير بعيدة عن فرع ساقية الحناية المتوجّهة إلى بستان أبي فهر وفسقيّتها في موقع مدينة العلوم اليوم حيث بئر البطّوم التي نالت شهرة بئر بلحسن في بداية القرن العشرين خاصّة. ويوجد قرب بئر بلحسن فسقيّتان واسعتان تستمدّان ماءهما من ساقية الحنايا (انظر الخريطة الموضّحة للمواقع المائيّة ولساقية الحنايا الفرعيّة المتوجّهة لبستان أبي فهر في الجهة الجنوبيّة لمدينة أريانة) كما توجد فسقيّة ثالثة في الجنوب الغربيّ

في فرع ساقية الحنايا المتوجّهة لبستان أبي فهر. ولسنا ندري هل تتزوّد بماء السّاقية على غرار السّاقيتين السّابقتين الملتصقتين مباشرة بهذه السّاقية الحفصيّة الفرعيّة التي أسّسها المستنصر باللّه الحفصي.

وخلاصة القول أن الجهة الجنوبيّة الغربيّة لمدينة أريانة كانت غنيّة بالآبار على غرار جهة سكرة ممّا يجعلنا نرجّح قدم بئر بلحسن. ونذهب إلى الجزم أنّها من الآبار التي وجدت منذ العهد الحفصي. وهي ليست الوحيدة في هذه الجهة الفلاحية حيث تمتدّ غابات الزّيتون التي مازالت بقاياها حول مستشفى الأمراض الصّدرية رغم الاكتساح العمرانيّ لكامل هذه الجهة. وقد أصبحت منطقة سكّانيّة شاسعة تجاوزت حدود أريانة الجديدة وكلّ الجهة المحيطة ببئر الرصّاع وهي بئر مشهورة في هذه المنطقة بمائها العذب ويمتدّ قريبا منها حيّ اليسمينة مرياح. وفي غربه أحياء النّصر التي اكتسحت روابي كرش الغابة حيث كانت المساكن القصديريّة لأولاد عيّار.

بئر الصّفصاف:

من منابع السّقاية والماء العذب في أريانة نذكر بئر الصّفصاف وهي أقرب إلى المدينة العتيقة من بئر بلحسن. وبئر الصّفصاف تضمّها اليوم البناية الحاملة لاسم الصّفصاف وتتوسّط المدينة العصريّة يقابلها برج السّاعة الضّخمة في السّاحة العموميّة. وتقع هذه البناية في شارع بئر حكيم قبل الاستقلال وهو اليوم شارع 18 جانفي 1952 .

وتضمّ هذه البناية مقهى في الهواء الطّلق على غرار مقهى بئر بلحسن اليوم وقاعة سينما وحمّاما وكذلك مضخّة للبنزين. كلّ هذا قبل الاستقلال (انظرمخطّط أريانة القديم). واعتمدنا على شهادات من تردّدوا على هذا المكان وعرفوه عن كثب.

فبئر الصّفصاف كانت تعلوها ناعورة يديرها جمل مغمض العينين على غرار بئر الصّفصاف بالمرسى أو بئر برّوطة بالقيروان. وممّا يروى عن هذه البئر أنّها كانت لصيقة بالمقهى، بل هي جزء من مساحتها يتهافت الزّائرون على الشّرب منها ممّن يأتون إلى أريانة من الحاضرة أو من مواطن أخرى للاستشفاء. وممّا يذكر أنّ ماء بئر الصّفصاف تزيد ملوحة على ماء بئر بلحسن ولكنّها تعرف ببرودتها وقضائها على العطش، خاصّة في فصل الصّيف اذ يشربها المرتادون على مقهى الصّفصاف بمجرّد استخراجها من البئر. وممّا يذكر أيضًا أنّ مقهى الصّفصاف كانت في الهواء الطّلق وتقام فيها سهرات للغناء والطّرب إلى الفجر. ومن أشهر من يحييها في الخمسينات الفنّانان علي الرّياحي وراوول جورنو. وكانت مقهى الصّفصاف وحمّام الصّفصاف على ملك ديدة حدّاد.

وما من شكّ أنّ بئر الصّفصاف قديمة تتوسّط بستانا محاذيا لسانيّة سيدي عمّار الممتدّة الأطراف أو قد تكون جزءا منها. وسنعدّد العقّارات الأخرى التي كانت مجاورة لها اعتمادا على ما بقي في ذاكرة شيوخ الأريانيّين الذين تطارحنا معهم الحديث في بحثنا الميداني عمّا كانت بلدة أريانة بعيد الحرب العالميّة الثانيّة. ونوضّح كلّ ذلك في مخطّط دقيق للمدينة الحديثة كما سنستعرضه فيما سيأتي.



قصر ابن عيّاد (مقرّ البلدية حاليّا)

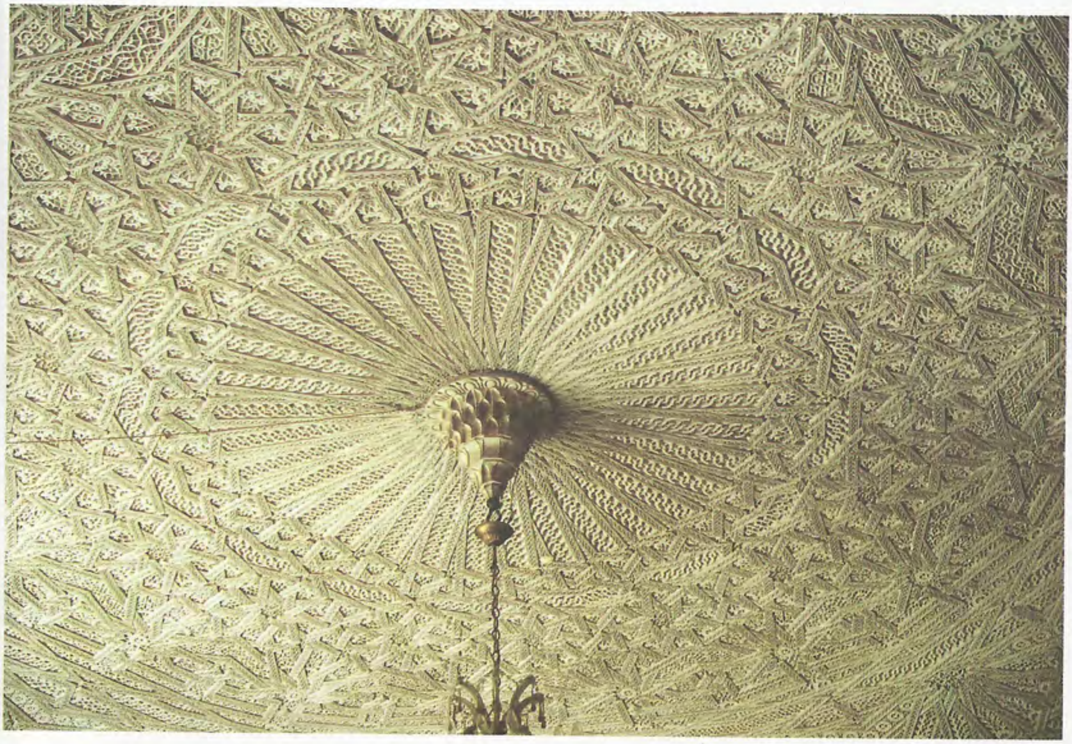




قصر ابن عيّاد (منظرداخلي)



مدخل قصر ابن عيّاد بنقش حديدة في السقف وخزف حائطي





قصر ابن عيّاد (مكتب رئيس البلديّة) بخزف حائطي


ركن من مدارج قصر ابن عيّاد



قصر ابن عيّاد : سياج حديدي داخلي جزئي

قصر ابن عيّاد : منظر جزئي للخزف الجداري ـ صناعة يدويّة







ركن من مدارج قصر ابن عيّاد



برج البكوش (مقرّ اللجنة الثقافيّة) في حالة ترميم





حديقة داخليّة ببرج البكّوش (منظر واجهي)


حديقة داخليّة ببرج البكّوش (جزئية على اليمين)



حديقة داخليّة ببرج البكّوش (جزئية على اليسار)



سقف خشبي مزخرف ببرج البكّوش

زخرفة سقف ببرج البكّوش





برج البكّوش : غرفة المرايا

ومثّلت بناية الصّفصاف بمقتضى موقعها مركزا يستقطب العديد من سكّان أريانة طلبا للتّرفيه والمرح. فقد ضمّت إلى جانب المقهى حسب من حدّثونا عنها من الشّيوخ والسّكّان القدامى قاعتي سينما: واحدة في الهواء الطّلق تشتغل صيفا من العاشرة ليلا إلى منتصف اللّيل وتعرض فيها في جلّ السّهرات الأفلام المصريّة، والسّينما الثّانية توجد داخل بناية الصّفصاف وتعرض في بقية السّنة من يوم الجمعة إلى يوم الاحد وكذلك أيّام العطل ثلاث حصص متتالية: الأولى في الثّانية بعد الزّوال،والثّانية في الرّابعة، والثّالثة في السّادسة. والأفلام فيها متنوّعة: منها الفكاهي أو البوليسي أو المأسوي... وممّا يذكر أنّه توجد في أريانة سينما في الهواء الطّلق اسمها اللّيدو LIDO وتعرض في أرض واسعة بنهج قرطاج إلا أنّها لم تشتغل إلاّ طيلة صيف سنة 1950. وكان آخر عرض لها شريط النجاح **La réussite** قبل إفلاس صاحبها.

من أشهر قصور أريانة اليوم:

(قصر ابن عياد: مقر البلدية حاليّا)

إنّ أبرز شاهد على الفنّ المعماري للقصور وإقامات الصّيف بأريانة وما حولها من الدّور في البساتين الجميلة إنّما هو قصر عبد الرّحمان بن عيّاد مقر البلديّة منذ سنة 1983 وقد بني هذا القصر في النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر، وخصّه الباحث جاك ريفو بوصف شامل في كتابه «قصور وإقامات الّصيف في أحواز تونس» سنة 1974.

إنّ هذا المعلم هو أحسن إقامة تمثّل الخصائص المعماريّة في بداية القرن التّاسع عشر من حيث التّصميم للبناء والتّزويق الخارجي والدّاخلي بالزّليج والرّخام. فهو يجمع بين تصميم البناء العصري المستوحى من النّمط الإيطالي السّائد حينئذ ومن توزيع الفضاءات الدّاخليّة المتّبعة في قصور البايات وأشراف المخزن من حاشية الباي والمقرّبين منه.

فمن هو عبد الرّحمان بن عيّاد صاحب هذا القصر وبانيه ؟

يترجم له «أحمد ابن أبي الضّياف» في الجزء الثّامن من كتابه «إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان» بقوله في ص 23: «عبد الرّحمان بن عيّاد، أبو زيد عبد الرّحمان بن محمد بن حميدة بن قاسم بن عيّاد.نشأ هذا الوجيه في خدمة الدّولة مع أبيه وتدرّج في الأعمال والمناصب، كولاية جربة وسوسة والأعراض. وسافر بمحالّها على فخامة لا عهد بمثلها لمثله، وأركبه الباشا أبو عبد اللّه حسين باي على فرسه يوم سفره، ونشر عليه من أردية التّقريب والحرمة ماأعانه على قضاء أوطاره، والوزير يومئذ أبو محمّد شاكير صاحب الطّابع، فبالغ في إعانته. وكان جوادا كريم النّفس عالي الهمّة وجيها، ينحو منحى عمّ أبيه رجب بن عيّاد المتقدّم ذكره،(وردت ترجمته في الجزء السّابع من كتاب الإتحاف ص 37 و38) محبّبا عند الباي ورجال دولته،ليّن العريكة، يقي عرضه بماله، ويجنح إلى ما يحمد من حاله، مثابرا على مرضاة أبيه، لا يرى لنفسه اختيارا معه.ولم يزل بالغ الأمنية، وآثار السّعادة واردة إليه من كلّ ثنيّة، إلى أن صدمته مغيرات المنيّة، في سنة 1251 هـ / 1836 م في حياة أبيه، وأعقب أولادا هم من الأعيان، وأكبرهم فارس هذا الميدان، وجده جدّه لما كبا جواده كما تقدّم».

ويستنتج من ترجمة أحمد بن أبي الضّياف في كتابه «إتحاف أهل الزمان» لهذه الشّخصيّة المرموقة من المخازنيّة الذين كانوا في خدمة البايات أنّ عبد الرّحمان بن عيّاد، وهو من بنى القصر المعروف باسمه إلى اليوم

في مدخل مدينة أريانة ويمثّل قصر البلديّة حاليّا، قد توفّي في نهاية الثّلث الأوّل من القرن التّاسع عشر أي في سنة 1836 للميلاد. وهذا التّاريخ يثبت لنا أنّ قصر ابن عيّاد فد شيّد في بداية القرن التّاسع عشر وليس لنا وثيقة تثبت تاريخ الانتهاء من بنائه. ولعلّنا نعثر على ذلك بالتّدقيق في مستقبل الأيام إذ مازلنا منكبّين على مواصلة السّعي في إماطة اللّثام عن العديد من الحقائق المتعلّقة بمدينة أريانة ومعالمها وقد غفل عنها الباحثون.

ونسوق ملاحظة نراها هامّة في هذا الصّدد وهي أنّ قصر ابن عيّاد الذي اتّخذته بلدية أريانة مقرّا لها منذ سنة 1983 لم يتغيّر في نمط بنائه لا من الخارج ولا من الدّاخل،وبقي بصفة عامّة محافظا على هيئته الأولى وأشكاله المعماريّة الأصليّة في جملتها. هذا إذا تحدّثنا عن القصر. أمّا فيما يخصّ البستان الذي كان يحيط به أو بعض البناءات الاضافية حوله فما من شكّ أنّها كانت محلّ تغيير بل تقويض كامل حسب ما عثرنا عليه من نصوص تصف القصور ومستلزماتها الخارجيّة من النّافورة المائيّة والبئر والنّاعورة والاسطبلات ومجارى المياه والأحواض والبطائح والأرحبة المخصّصة للورود والأزهار وهي المتمّمة لغرض النّزهة وقضاء الرّبيع لأسرة صاحب القصر وخاصّته وأتباعه.

وصف قصر ابن عيّاد اعتمادا على فصل جاك ريفو في كتابه «إقامات الصّيف في تونس»:

إنّ ما سجّله جاك ريفو في وصفه لقصر ابن عيّاد وخاصّة لما كان حوله من بناءات إضافيّة ومن توزيع للمزروعات والأشجار والفسقيّات يساعدنا على تصوّر ما كان عليه الوضع الأصليّ لبستان القصر الذي دخلت عليه تغييرات كبيرة بالحذف والتّبديل بعدما تغيّرت صبغة هذا المعلم منذ الاستقلال إلى اليوم حتّى أصبح مقرّا لإدارة بلديّة أريانة. أمّا بناية القصر فيبدو أنّها حافظت على طابعها المعماري من الخارج وخاصّة من الداخل من حيث توزيع الغرف وتزويق جدرانها بالجليز وسقوفها بنقش حديدة وهي طرق من تزيين المباني على غرار قصور البايات سواء في مدينة باردو أو في الضّاحية الشّماليّة لتونس العاصمة في كلّ من مدينة المرسى أو سيدي أبي سعيد.

وصف قصر ابن عيّاد في وضعه القديم في مستهلّ القرن العشرين:

يبدو المدخل الأساسي لبستان القصر عالي السّمت، مشتبك القضبان الحديديّة يشاهد من خلالها ممرّ ممتدّ تحيط بجانبيه أشجار السّرول، ينتهي إلى باب القصر. ويشقّ هذا الممرّ ساحة يحيط بها النّخيل وتتوسّطها بركة تعلو ناعورة تملأها باستمرار من بئر عذبة الماء مغطّاة، وتشرف عليها أربعة حنايا من البناء السّميك. وقد زرع في بستان القصر أشجار البرتقال وأشجار مثمرة أخرى. وتوجد في هذا البستان بقايا لدور قديمة كانت قائمة في هذا المكان قبل بناء قصر ابن عيّاد.

أمّا القصر ذاته فهو مزيج بين نمطين من البناء. إنّهما متداخلان تداخلا كلّيّا: النّمط المعماري الإيطالي من حيث الهيكل العامّ المعتمد على الزّاويا القائمة المستقيمة البعيدة عن الخطوط المنحنية كالأقواس والقباب، والنّمط التّونسي من جانب ثان وهو المتمثّل خاصّة في شكل النّوافذ في واجهة المعلم ذات المشبّكات الحديديّة المسطّحة أو في المشرفيّة المعروفة بالقنّارية في الطّابق الأعلى وهي المطلّة على المدخل ببابه المقوّس الفاخر الذي لا يختلف عن أبواب الدّور الفخمة ببلدة سيدي أبي سعيد في الضّاحية الشّماليّة.

مدخل القصــــر

يتركّب هذا المدخل من بهوين يسمّى البهو الأوّل «الدريبة» والبهو الثّاني«السّقيفة». وكلاهما قاعة مربّعة يغطّي أرضهما مربّعات كبيرة من الرّخام المجزّع قد وضعت معاكسة لأضلاع هاتين القاعتين المتقاربتين من حيث المساحة. ويكسو جدارنها جليز مستورد من مدينة نابلي الإيطاليّة بلونه الورديّ والأخضر. وتختلف أشكال الزّينة فيه في قوس الباب من الدّاخل وفي لوحات متجاورة من جدار إلى آخر. ويعلو القاعتين (الدريبة والسّقيفة) سقف من الجصّ المنقوش (نقش حديدة) على النّمط الأندلسيّ في شكل وردة كبيرة الأوراق. وتتجمّع في السّقيفة، وهي الفسحة الدّاخليّة، كلّ مداخل غرف الطّابق السّفلي للقصر.

وفي السّقيفة ينتصب مصعد الطّابق الأوّل بدرجاته الرّخاميّة البيضاء. ويحيط بالصّاعد على المدرج من جهة اليسار درابزين من الحديد الأهن المصبوب Fonte في زخارف حلزونيّة الشّكل قد طلي بالدّهن الأخضر فيتعارض بذلك مع الجليز ذي التّزويق الأزرق المغطّي للجدران التي تحاذي الصّاعد على هذا المدرج من جهة اليمين. وتأخذ اللّوحات الجليزيّة على جدران هذا المصعد الدائري أشكالا مستطيلة أو مربّعة بحسب المساحات المغطّاة. وطرافة التّزويق تتمثّل في اختيار الأشكال والألوان التي يغلب عليها الأزرق في أرضيّة بيضاء قد يضاف عليها البرتقالي لزيادة اللّون رونقا وبهاء.

قاعة الاستقبال:

تقابل الدّاخل في الطّابق العلوي أبواب ذات إطارات منقوشة. وتحيط بالمدخل مستطيلات من الرّخام الأبيض البرّاق. وتمكّن هذه الأبواب الزّائرين والمدعوّين من الدّخول إلى بيت الاستقبال وإلى شقق الضّيافة.

صحن الطّابق الأوّل:

نجد تشابها كبيرا بين صحن القصر في الطّابق الأوّل وبين صحن قصر باردو وقد نظّم بناؤه وترتيب شكله المستطيل، تحيط به المنحنيات تحملها السّماري على النّمط الإيطالي من حيث نقش الرّخام وزخرفة الجليز. وتفتح غرف هذا الطّابق الأوّل بنوافذها العالية على شرفة تدور بكامل القصر من خارجه يحفزها درابزين من الحديد المشبّك بزخارف نباتيّة أو أشكال حلزونيّة وهي تطلّ على بستان من كل جهة.

ويعتبر قصر ابن عيّاد من إقامات الضّيافة للأسرة الكبيرة،وكذلك للأصدقاء الذين ينتقلون من العاصمة إلى مدينة أريانة القريبة،خاصّة في الرّبيع على متن عربات تجرّها الخيول تعرف الواحدة منها بالكرّوسة.

الدّور والإقامات في بساتين سكّرة:

تغطّي بساتين سكرة منبسطا شاسعا من الأرض يمتدّ من جنوب مدينة المرسى وتحدّه شمالا سبخة أريانة. وتعرف هذه البساتين بخضرتها وجمال تنظيم أغراسها ورقّة هوائها وعذوبة ماء آبارها ذوات النّواعير على الطّريقة الأندلسيّة في السّقاية وطرق الرّيّ بالأحواض وترتيب السّواقي. وفي منطقة سكرة تكثر غراسة الأزهار من ورد ونوّار البرتقال ونسريّ. ومنها يستخرج ماء الورد خاصة الذي طبّقت شهرته الآفاق كإنتاج اشتهرت به مدينة أريانة. وتكثر في سواني سكرة خزّانات الماء والنّافورات التي تحمل بالذّكرى إلى الازدهار

المعماري في عهد الدّولة الحفصيّة. وقد بقي طابعه غالبا في تنظيم هذه البساتين والأجنّة وهي التي طالما نوّه بها الوصّافون والأدباء أمثال محمّد الصغيّر بن يوسف في أخباره عن الحياة التّونسيّة في القرن الثّامن عشر، فوصف لنا بيتا فخما في أحد بساتين سكرة بناه قاسم بن سلطانة،وهو أحد الموظّفين السّامين من حاشية الباي وقد أثرى من عائدات القرضة وبيع العبيد في عهد حسين باي وارتقى إلى رتبة مستشار لدى الباي وباش كاتب. وابتنى قاسم بن سلطانة ـ نتيجة إعجابه الشّديد بجمال بساتين سكّرة ـ بيتا فخما عرف ببرج الغطّاس، وذلك في أواخر القرن الثّامن عشر. وتعزى تسميته إلى أب وابنائه من حذّاق البنّائين تولّوا تشييد هذا البرج أو البيت الرّيفي.

قصر قاسم بن سلطانة أو برج الغطّاس:

من الصّدف المواتية أن يعتني الباحث جاك ريفو Jacques Revault بوصف بعض المعالم في مدينة تونس وأحوازها في كتابه «الإقامات الصّيفيّة في تونس» فيخصّ برج الغطّاس في بستان قاسم بن سلطانة بفصل شامل لمكوّناته. يشتمل هذا المعلم قبل أن تأتي عليه يد الزّمان على ثلاثة أقسام: الإقامة أو مكوّنات القصر الصّالحة للسّكن. والقسم الثّاني منه يتركّب من «المنافع» وهي متمّمات البناية وتتمثّل في الاصطبلات والمخازن والملحقات من غرف العملة والخدم وغيرها. والقسم الثّالث يتمثّل في البستان وما يضمّه من أشجار مثمرة ومظاهر الزّينة من ممرّات وأزهار أو فساقي ومجار للمياه ونافورات، وكلّ هذا يعرف بالسّانية.

بني برج الغطاس حسب بعض الوثائق في أواخر القرن الثّامن عشر محاذيا للطّريق الرّابطة بين أريانة وقرطاج. ويبرز هذا المعلم بمدخله الواسع ومنه ينطلق ممرّ طويل تحيط به من جانبيه أشجار «الكالتوس» العاتية، ويثبت الباحث جاك ريفو أنّ السيّد بيكوران M.Picoron قد اشتراه سنة 1895 وسكنه مع عائلته. والسيّد موريس جوزاف ألفراد بيكوران هو من مواليد 1880 بباريس، درس الفلاحة في المدرسة العليا للفلاحة بتونس التي استقرّ فيها في سنة ,1898 وكان من كبار الفلاّحين ورئيسا لجمعية المعمّرين بسكّرة، وكان مستشارا ببلديّة أريانة سنة .1922 وأصبح برج الغطّاس من أملاك الدّولة التّونسيّة فيما بعد هذا التّاريخ.

ويثبت جاك ريفو في دراسته لبرج الغطّاس أنّه عثر على قطع ذهبيّة أثناء أشغال ترميم القصر في سنة 1896 يعود تاريخها إلى السّنوات 1181 و1767 و1768 .وقد تمكّن هذا الباحث من الاطّلاع على هذا المعلم والحصول على تخطيط ضاف لكامل البناية عن طريق إبنة المالك الفرنسي الأنسة بيكوران Mlle .Pocoron. ويأسف جاك ريفو أنّه لم يبق من برج الغطّاس إلى حد كتابه دراسته سنة 1962 إلاّ جدران متهدّمة وأنقاض خربة.

بني البرج وعلى غرار كلّ الأبراج الموجودة في ضواحي العاصمة تونس فوق مصطبة كبيرة في نفس ارتفاع صحنه الذي يتوسّط المساكن ومجموع الغرف وكذلك في علوّ المساحات التي تحيط بالآبار الملاصقة للجابية. وغير بعيد عنها توجد المخازن ذات الأبواب المقوّسة. وفوقها توجد غرف الخدم ومرافق المؤن وكلّ ما يخزن من حبوب كالفول والقمح والشعير وأكياس الذّرة وغيرها.

مدخل البرج:

يفتح باب البرج على الجهة الجنوبيّة الشّرقيّة، والدّخول إلى البناية مرورا بالبستان يبدأ من السّقيفة

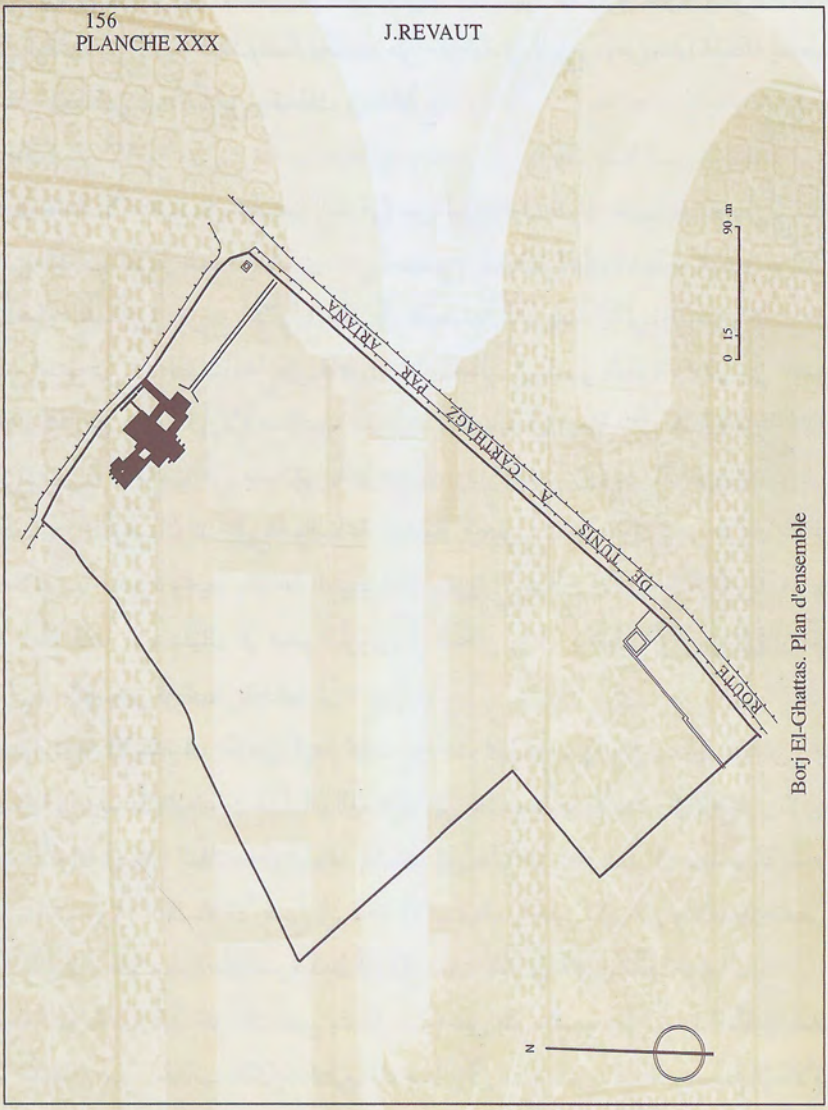


برج الغطّاس ما بقي من دار الضّيافة بعد زوال البرج

وبها دكّانة ولها سقف مقوّس ذو أضلاع من جهتين، محنيّ في الوسط. وتلي السّقيفة بعد الصّحن الدّاخلي غرفة بسقفها المقوّس هي غرفة السّقيفة. ومن الجهة المقابلة يوجد المدخل الأصليّ وهو مقوّس أيضًا في شكل غرفتين متلاصقتين ومتّصلتين. وبصعود بعض مدارج سلّم صغير في إحدى الغرفتين يفتح أمام الدّاخل الباب الخارجيّ فيوصله إلى صحن واسع أرضه من التّراب. وتحيط بهذا الصّحن جدران البرج وجدران السّياج الخارجيّ وينفتح عليها بابان كبيران يدخل منهما فيما مضى قطعان الحيوان وكذلك العربات وخيول صاحب البرج أو المدعوّين من ضيوفه.

صحن البرج:

إنّ المظهر العامّ لهذا الصّحن يذكّر الزّائر بما يوجد في قصر العبدليّة: تتوسّطه جابية الماء المربّعة ويحيط به البرطال الذي يمثّل رواقا وهو ممرّ مكشوف على حوض الماء مسقوف بعقود على أعمدة. وهذا النّوع من الصّحن معهود في الدّور العتيقة داخل العاصمة، ويوجد أيضًا في هذه المنازل الرّيفيّة المعروفة بالأبراج. ومن هذا المكان المركزيّ أي الصّحن تنطلق الممرّات أو المداخل إلى كلّ المرافق بالبيت. وتنفتح من البرطال على خارج البيت بعض النّوافذ التي تزيد هذا المكان الذّي يسمّى المقعد رونقا وهواء منعشا عند أيّام الحرّ، ويتمتّع الجالسون فيه برؤية الرّعاة وأغنامهم في الحقول أو الفلاّحين في أرجاء البستان الواسع.



ويلي المقعد بأروقته من جهته الشّرقيّة الشّقق وهي متعدّدة الغرف بمقاصرها. وأهمّ قاعة وأفسحها هي غرفة صاحب البرج وهي متصّلة بغرف أخرى أصغر منها ترتبط هي الأخرى بردحة تسمّى بيت القبو. ويضمّ هذه القاعة الوسطيّة الممرّ الذي تحيط به نافذتان كبيرتان تمكّنان صاحب المحلّ من الإشراف على الأروقة الجانبيّة من جهة ورؤية جانب من البستان من جهة أخرى.

الكشك:

هو عبارة عن غرفة مرتفعة في جهة من «القبو» يصل إليها مدرّج له بابان متتاليان. والكشك يطلّ على أفنية البرج وعلى كلّ مرافق القصر وهو شبيه بالمرقبة وبه «قبو» محنيّ به سرير ينام فيه صاحب البرج طلبا للرّاحة في أوقات من النّهار لبعده عمّا يحدث من حركيّة في البرج. ومن هذا المكان يسطيع صاحب البرج مراقبة كلّ العاملين في الدّاخل وكذلك في الخارج.

قاعة الاستقبال:

قد رتّبت قاعة الاستقبال في الجانب الشّرقيّ من البرج فوق أقباء المخازن. وتنفصل في مقدّم البناية على انفراد من القسم المربّع الشّكّل الذي يمثّل مجموع الغرف المجاورة لهذه القاعة. وتمتدّ مساحتها الدّاخليّة مستطيلة الشكل في توزيع ثلاثيّ فيطلق في تسميتها التّعريف التّالي: «بيت بثلاث قبوات وأربع مقاصر» . وقد آستوحى المخطّط بناءها من قاعات الاستقبال في قصر الباي بباردو وفي قصور الأثرياء بالحاضرة. وتجدر هنا ملاحظة ما أولاه صاحب البرج من العناية في تهيئة مثل هذه القاعة للاستقبال في مسكنه الرّيفي. فهي لا تختلف عن مثيلاتها بدار حسين ودار المستيري ودار الأصرم وداررمضان باي

ويحيط شبّاكان أرضيّان بمدخل هذه القاعة الفخمة. ويعلو باب الدّخول قوس مزوّق بالجليز المصنوع من معامل القلاّلين بالحاضرة وتحيط بالقاعة الوسطية المتساوية الأضلاع الأقبية الثّلاثة وقد هيّئت بجوانبها المقاصر. ويمتّد أمام قاعة الاستقبال ممرّ فخم التّزويق في شكل رواق يوصل الزّائرين إلى أروقة أخرى في البرج كالتي تحيط بالصّحن أو تحيط بالجابية.

إنّ فخامة قاعة الاستقبال تكمن فيما تحلّت به جدرانها وأقبيتها من زخارف نقش حديدة على الطّريقة الأندلسيّة والجليز بأزهاره ذات الألوان اللّمّاعة التي يغلب عليها الأخضر والأصفر والأزرق والبنّي، وهي من أنصع الألوان في هذا الطّلاء الخزفيّ وقد نظّمت كلّ هذه الزّخارف بذوق يجلب الانتباه ويدعو إلى الإعجاب إلى جانب رونق الكساء الأرضي في قاعة الاستقبال بالجليز الأبيض والأسود وبعض اللّوحات الحائطيّة ذات الأشكال الهندسيّة المتناضرة دون أن تكون متماثلة في الصّورة أو الخطوط.

إنّ ظلمة القاعة من الدّاخل تتناقص بتدفق النّور من باب البهو ومن نوافذ الأقبية المفتوحة على البستان وراء مشبّك من الحديد المكوّر. تمتلئ المقاعد والأرائك التي تستدير بجدران الأقبية بالزّوّار والضّيوف بمناسبة حفلات الاستقبال أو في سهرات الأعراس. وعند المساء توقد فوانيس الثّريّا المجلوبة من جنوة والمعلّقة في سماء القبو الرّئيسي فتضيء، في وسط المدعوّين العازفين والرّاقصات الذين استقدموا لإدخال البهجة والفرحة على الحاضرين في كامل اللّيل.

وهيّئت المقاصر في الجهات الأربع من قاعة الأستقبال حيث تفتح أبوابها في تناظر يزيد توازنا في تناسق الزّينة. ومن نوافذها ينبعث الضّوء والهواء سواء من الأروقة الأمامية أو من رحاب البستان القريب. وتزيد هذه المقاصر بجدرانها المغطّاة بالجليز المزّوق وبسقوفها الخشبيّة المزركشة على الطّريقة الايطاليّة في رونق المكان وفخامة تكامل مركّباته. وتستعدّ هذه المقاصر أو الغرف ومثيلاتها في طرف البرطال لاستقبال

الضّيوف. وهي تشتمل على جميع المرافق لراحة المدعوّين.

الآبار والفسقيّة:

يضمّ برج الغطّاس في بادئ الأمر أربعة آبار موزّعة بين السّانية ومحلاّت السّكنى والمرافق المشتركة. وهي تلبّي حاجات السّقاية والتّزويد بالماء. توجد البئران الأوليان في كلّ طرف من الضّيعة وتحتفظان بالطّريقة التّقليديّة في استخراج الماء، وهي المتمثّلة في دلو أو دلوين يجرّهما ثور أو جمل وقلّما يعوّضهما حمار. نراه ينزل ويصعد حتى يغيب تحت الأرض في منحدر في ساعات من النّهار. أمّا البئران الأخريان فملتصقتان بهيكل البرج وترتفع فوهتهما إلى حدّ مصطبة بناء الصّحن إحداهما تعضدها دعامتان تجاور باب الدّخول للبرج وتعلوها ناعورة مزدوجة، يديرها جمل كانت فيما مضى تملأ ببعض مائها الجابية الدّاخليّة في البرج، والباقي من هذا الماء يروي جزءا من الجنان حوله. أمّا الفضاء المسطّح الثّاني، وهو الأوسع في البرج، فانّه يخيّل للرّائى أنّه يمدّ في امتداد مساحته من الجهة الغربيّة ويوصل إلى هذا الفضاء درابزين يعتمد على بناء المرافق المشتركة في البرج. وتعتمد القاعدة الحاملة للنّاعورة وحوضها في اتّساعها على مساحة الماجل والاسطبلات المحاذية له. ومنها تتكوّن المصطبة العريضة. إن هذه البئر بتجهيزها المتمثّل في النّاعورة والجابية الدّاخليّة تضاف إلى البئر الرّابعة بناعورتها، وتتعاضدان جميعا وتتبادلان لتزويد البرج ومرافقه بالماء فضلا على سقاية الخضر والأشجار المثمرة التي يضمّها البستان.

المرافق المشتركة:

يمثل هذه المرافق المشتركة مجمّع من الأبنية اللّصيقة بالبرج، ويدخل في الحرم داخل سياجه. ويضمّ هذا المجمّع الحمّام أو المطهرة والمطبخ وسكنى الخدم، ومخازن المونة والعولة، ثم الاسطبلات ومرابض الخيول والحمير والجمال ويحاذيها مخزن آلات الرّكوب والسّروج وما والاها. ويجاورها فضاء خزّان الماء المسخّن وغرفة غسيل الأردية وكلّ الأثواب والملابس. وتحاذيها مساكن الخدم والمرافق التي يجدون فيها بعض الرّاحة أثناء أعمال النّهار.

إنّ وصف برج الغطّاس سقناه كمثال لنوع من المساكن الرّيفيّة التي كانت موزّعة في بساتين سكّرة في زمن غير بعيد قبل أن تكتظّ بالسّكّان وتفقد صفتها كمنتزه للطّبقة الأرستقراطيّة من سكّان الحاضرة تونس في فصل الرّبيع خاصّة. وقد توفّقنا إلى العثور على مخطّط كامل لهذا البرج يوضّح لنا أكثر مركّبات البرج الذي تعدّد ظهوره في بساتين سكّرة وريف منطقة قمّرت في القرنين الثّامن والتّاسع عشر. ويمثّل من جانب آخر صورة عن الحياة المترفة للطّبقة الموسرة من سكّان العاصمة في فترة من السّنة.

معلم آخر: برج التركي:

يقع البرج في غرب أريانة، كما وصفه جاك ريفو (Jacques Revault) في كتابه الصّادر في باريس سنة 1974. ويظهر كبرج منفرد على حافة درب ضيّق، قريبا من الجبل المقطوع الّذي تعلوه زاوية سيدي عمر بوخطيوة. ويعرف هذا البرج باسم مؤسّسة علي تركي ويسمّى أيضًا برج طويل، وهو الآن على ملك علي درويش. وعلى مقربة منه توجد ضيعة ومسجد لم يبق منه - اليوم - إلاّ بعض الآثار. ويوجد قريبا من

البرج قبر يعزى لعلي تركي، لا يزال مكرّما، ويزور بعض الورعين من النّاس هذا المقام.
(Jacques Revault: Palais et Résidences d'été de la région de Tunis.Paris, 1974)
وتوجد هنا وهناك بقايا تيجان لأعمدة رومانيّة وتركيّة في ضيعات قريبة لبعض الموسرين تؤكّد صلة هذا المكان بامتداد مدينة قرطاج وبساتينها.

وتوجد في الأراضي الشّاسعة آثار لآبار كثيرة وقع طمرها بالتّراب. ويعلّق جاك ريفو لاستقصاء سبب ذلك في الزّمن الماضي، قائلا «تجنّبا لدفع الأداءات الّتي كانت تضرب على الضّيعات بحسب عدد هذه الآبار».

ويبدو أنّ برج التّركي بني في أواخر القرن الثّامن عشر. وقد كان يضّم عمارة (أي ضيعة فلاحيّة) لصاحب القصر ومساكن ملحقة بها وموزّعة فيها للخدم والفلاّحين واصطبلات للماشية. ويلاحظ أنّ جزءا من المساكن قد أتى عليه البلى. وما بقي من الغرف يعود للقرن التّاسع عشر حسب شهادة بعض الفلاّحين. ويوجد في بعضها ما يمثّل السّرير المبنيّ في شكل دكّانة أوسدّة.

ويتأكّد أنّ برج التّركي، في وضعه الحالي البدائي، لم يكن من المساكن الّتي شيّدت للفرجة والتّنزّه، وإنّما هو منزل كبير يتوسّط ضيعة كبيرة (هنشير) كان على ملك أحد الأثرياء من سكّان الحاضرة تونس وكان يسمّى «تركي قارة برني درويش» وقد كان يتردّد على المكان في فترات من السّنة على بغلته ليراقب عمّال الفلاحة في ضيعته. ويبدو من بعض الوثائق أنّ ملكيّة هذه الضّيعة والبرج تعود إلى حبس، تصرف مداخيله الماليّة على بيت قديم وعريق هو اليوم: دار الدّرويش، الموجودة في زنقة غرنوطة بالمدينة العتيقة في تونس، قرب نهج الباشا، وقد أنشئت في القرن الثّامن عشر.

وخلاصة لكلّ ما قيل عن المعالم والمواقع والقصور والابراج في أريانة وضواحيها وبساتينها الغنّاء المترامية الأطراف في جهة سكّرة أو دار فضّال أو جعفر فانّنا لا ندّعي الاتيان على جميعها وصفا وتحديدا من حيث الهيئة والمعمار، وإنّما قصارى ما قدّمنا عن بعضها إنّما هو عيّنة أردنا بها تثبيت ما لهذه البلدة ونعني أريانة من المكانة عند سكّان الحاضرة تونس وخاصّة عند الطّبقة الموسرة منهم حين جعلوا من هذه الضّاحية الشّماليّة مربعا ومواطن للنّزهة وكذلك بساتين شاسعة للفلاحة وإنتاج مستلزماتهم من الغلال والخضر. وما قدّ مناه من وصف لبعضها يكون شاهدا لما كانت تنعم به مدينة أريانة ولا تزال من منزلة رفيعة في نفوس متساكنيها وزائريها ماضيا وحاضرا.

وفي نهاية المطاف في هذه الرّحلة السّريعة عبر معالم أريانة وما بقي من قصورها الشّهيرة، وما بقي لنا من وصفها بأقلام المؤرخين أو من زارها من الوصّافين والرّحّالة الّذين قدموا إليها للاستشفاء أو لطلب المتعة والرّاحة، نعود إلى المدينة العتيقة. فكلّ ما نعرفه عنها لا يعود بنا إلى أبعد من القرن الثّامن عشر. فنجد بعض الدّيار الّتي يرجع بناؤها إلى سنة 1700م. بنهج الحاج طبّوب وأخرى إلى سنة 1750 في نهج سيدي بوديب وفي سنة 1756 في زنقة الغربية وفي سنة 1792 في زنقة الجربي.

وإنّ ما يغلب على هذه الدّور العتيقة إنّما هو الطّابع القرويّ الظّاهر في شكل بنائها وتوزيع غرفها ووجود الإسطبل في بعضها لإيواء الأبقار، والمخزن بجوارها لإيواء العربة أو الأدوات الفلاحيّة عند العودة من الحقول بعد القيام بالأعمال الفلاّحية أو لخزن الحبوب وأكياس البذور.

وإنّ النّهضة السّكّانية الّتي سنطّلع عليها شيئا فشيئا، في أثناء عرضنا المتواصل لمختلف مخطّطاتها، وإنّ الدّواعي الاجتماعيّة الّتي ثبتت أسسها وتأكّدت جدواها قد فتحت آفاقا جديدة لمدينة أريانة في العصر الحديث للقيام بدور كبير كمدينة متكاملة المرافق تجاوزت - في حقيقة الأمر- كلّ التّقديرات من حيث التّوسع العمراني، فأصبحت اليوم من المراكز السّكانيّة المرموقة في كامل البلاد، تتكامل فيها المرافق يوما بعد يوم وتتركّز فيها المؤسّسات المواكبة لحياة عصريّة. وهذا الوجه الوضّاح لمدينة أريانة العصريّة سنعرض له في مكانه في الفصول القادمة من هذا التّأليف.

مدينة أريانة في عيون الأدباء

إنّ الطّبيعة الخلاّبة الّتي عرفت بها أريانة وما حولها من البساتين أحلّتها مكانة مرموقة من بين ضواحي مدينة تونس الحاضرة وجعلتها قبلة القصّاد لمختلف الزّائرين من جميع البلاد وجلبت إليها العديد من الشّعراء والأدباء،. فأطنبوا في وصف مرابعها الغنّاء المترفة الأنيقة وراقهم هواؤ ها المنعش وآستطابوا لذيذ العيش في أكنافها الخضراء البهيجة، واستعذبوا ماء آبارها الرّقراق وآستمتعوا بأزيز نواعيرها في كلّ منعطف من أجنّتها. فقالوا فيها وأطالوا، وكان العليل يجد فيها عافية ونشاطا والمتفسّح رونقا ومتعة للرّوح والبصر، والزّائر راحة ورغدا، والمقيم آطمئنان نفس وسكينة بال.

وليس غريبا أن تكون أريانة قد شغلت أذهان كلّ الذين مرّوا بها، وذاقوا حلاوة الإقامة فيها، منذ القديم، فلهجوا بمحاسن رياضها وجنّاتها المثمرة ومائها السّلسبيل المتدفّق. وشغل جمال طبيعتها الغنّاء النّفوس والأفئدة، ففاضت قرائح الشّعراء وتحرّكت همم الأدباء وتجنّدت أقلام الوصّافين للتّنويه بمحاسن مدينة أريانة وبقصورها، وبمباهج بساتينها الغنّاء ومرابعها الفيحاء.

واستهواهم ربيعها وأنعشهم هواؤها فبعث فيهم حبّ الحياة وأوقد مشاعرهم فقصدوها تحدوهم مشاعر الوجد والرّغبة في الآستزادة من متعة النّفوس وإشباع العيون برونق رياضها المنمّقة بشتّى الأزهار من ورد وياسمين ونسرين برعت في تصفيفه الأيادي الاندلسيّة في فتنة لا تضاهيها إلاّ جنّة العريف بمدينة غرناطة التّليدة.

ونقدّم باقة مختارة ممّا جادت به أقلام الوصّافين لمدينة أريانة ممّن نالتهم حظوة زيارتها والتّمتّع بما وجدوا فيها من روائع طبيعتها وروضاتها الرّيّضة وبساتينها ذات الأشجار المثمرة والزّياتين الباسقة تحيط كالسّوار بهذه المدينة البيضاء، العريقة بماضيها، المجيدة بأصولها التّليدة، وهي التي تفننّ المؤرّخ الكبير عبد الرّحمان ابن خلدون (1332 - 1406) في وصف جنّاتها من بستان أبي فهر الّذي بنى فيه المستنصر باللّه الحفصيّ (1249 - 1276م) قصوره وجعلها مركز إقامته. وضمّ هذا الوصف المستفيض لمؤلّفه الرّائع في التّاريخ الّذي جعل عنوانه «كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر، في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر» فيقول واصفا جمال بستان أبي فهر وهو جزء من جمال طبيعة أريانة الّتي تأنّقت الأيادي الأندلسيّة في تنميق ورودها وأزهارها وتصفيف أشجارها وعرائشها وشقّ سواقي المياه في أراضيها فسالت سلسبيلا: «وآتخذ أيضًا (يعني المستنصر باللّه الحفصي) بخارج حضرته البستان الطّائر الذّكر المعروف بأبي فهر، يشتمل عل جنّات معروشات وغير معروشات آغترس فيها من شجره كلّ فاكهة من أغصان التّين والزّيتون والرّمان والنّخيل والأعناب وسائر الفواكه وأصناف الشّجر، ونضّد كلّ صنف منها في دوحة، حتّى

لقد آغترس من السّرو والطّلح والشّجر البرّيّ، وسمّي دوح هذه بالشّعراء.

وآتّخذ وسطها البساتين والرّياضات بالمصانع والجرار وشجر النّور والنّزهة من اللّيم والنّارنج والسّدر والرّيحان وشجر الياسمين والخيريّ والنّيلوفر وأمثاله.

وجعل وسط هذه الرّياض روضا فسيح السّاحة صنع فيه للماء حاجزا من أعواد الحور جلب إليه الماء في القناة القديمة كانت ما بين عيون زغوان وقرطاجنّة، تسلك بطن الأرض في أماكن، وتركب البناء العالي الهياكل الهائلة والقسيّ القائمة على الأرجل الضّخمة في أخرى. فعطف هذه القناة من أقرب الثّمرات إلى هذا البستان، وأمطاها حائطا وصل ما بينهما حتّى ينبعث من فوهة عظيمة إلى جبّ عميق المهوى، رصيف البناء، متباعد الأقطار مربّع الفناء، مجلّل بالكلس إلى أن يعمّه الماء فيرسله في قناة أخرى قريبة الغاية، فينبعث في الصّهريج إلى أن يعبق حوضه وتضطرب أمواجه. ويترفّه الحضايا عن السّعي بشاطئه لبعد مداه، فيركبن الجواري المنشآت فيبـارى بهنّ».

إن وصف عبد الرّحمان بن خلدون لطبيعة بستان أبي فهر الحفصيّ يصوّر لنا جزءا من طبيعة أريانة الخلاّبة وقد برع قلم صاحب كتاب العبر في نقلها إلينا من وراء السّنين. ولا نشكّ في أن هذا الوصف هو لمشاهد عيان تأتّى ببراعة أدبيّة في نقله. وقد كنّا استشهدنا بهذا الفصل من الجزء السّادس من كتاب العبر الّذي عقده ابن خلدون في سياق الحديث عن آزدهار الحضارة الحفصية على عهد المستنصر باللّه الحفصي (1249 ـ 1277). وآعتمدناه في الحديث عن «السّقاية والرّيّ في العهد الحفصيّ» وترميم ساقية الحنايا الرّابطة قديما بين جبل زغوان (من عين العرائس وجقّار) إلى فسقيات المعلّقة بقرطاج مرورا بمدينة أريانة. ومن مآثر المستنصر باللّه الحفصي ترميمه لهذه السّاقية وإعادة مائها للجريان، وبناء فرعين جديدين لها، أوّلهما لتزويد الحاضرة وجامع الزّيتونة بالماء، وثانيهما وأهمّهما جنايا بستان أبي فهر. وقد تفنّن ابن خلدون فيما سبق من قوله في وصف وصول الماء إلى هذه السّاقية الّتي تحملها الحنايا فتصبّ من أعلى جدار في الجابية العظيمة الّتي ما تزال باقية إلى اليوم في وسط مدينة العلوم. ويصف ابن خلدون جواري السّلطان المستنصر باللّه الحفصي من بين حظاياه فيركبن المراكب ويتبارى الخدم بهنّ وأيّهنّ تصل بمركبها قبل الأخرى إلى مكان معلوم من الجابية ولا شكّ أنّها تنال جائزة السّلطان.

وهذا يفهم من قول ابن خلدون: «فيركبن في الجواري المنشآت ـ أي المراكب ـ فيتبارى بهنّ» وذلك تأكيدا لآتّساع هذا الحوض العجيب وبعد مداه على حدّ قوله.

ويمدنا هذا النّصّ لآبن خلدون بفوائد أخرى من بينها أنواع الأشجار ونباتات الزّينة والتّرصيف الّتي ضمّها هذا البستان. وتفنّن في ذكر أسمائها كما أورد وسيلة من وسائل السّقاية والرّيّ وأخال هنا النّاعورة الاندلسيّة حين يقول: «بالمصانع والجرار» وهي سلسة القوادس الفخاريّة الّتي حول العجلة الخشبيّة الضّخمة على غرار بئر الصّفصاف عندنا في مدينة المرسى أو بئر بَرُّوطة بالقيروان اليوم.

ومن الوصّافين لمدينة أريانة قديما نذكر ليون الافريقي (Léon L'Africain) وهو جغرافي ورحّالة عاش بين القرنين الخامس عشر والسّادس عشر للميلاد. فكان ميلاده في مدينة غرناطة بالأندلس سنة 1483 م، وهو دفين مدينة تونس سنة 1552.

فذكر أريانة في كتابه الّذي أتمّ تألفيه سنة 1550 وقد نشر في باريس باللّغة اللاّتينيّة سنة 1632 بعنوان «وصف إفريقيا» ويقول عن أريانة في صفحة 569: «تحيط بها حدائق باسمة، وتنتج ثمارا كثيرة، ويحيط بها سور متين، ويسكنها عدد كبير من الفلاّحين»:

Hortis amoenissimis maximeque fructeferis , cingitur, murum habet munitissimum, agricolarum maxime freqentiam

ويفيدنا هذا الرّحّالة الزّائر لبلادنا من أرض الأندلس أن أريانة كانت تنتج ثمارا كثيرةوكان يحيط بالبلدة سور متين. وإنّ شهادته هي الوحيدة التّي تثبت أنّ للمدينة هذا التّحصين الّذي لم نجد له أثرا يذكر على أرض الواقع وهو أمر يجلب استغرابنا اللّهمّ أن تكون يد التّخويب قد أتت عليه مدّة الاحتلال الإسباني لتونس بين سنتي 1535 و1574 للميلاد.

ونذكر أقوالا أخرى بأقلام من زار مدينة أريانة وأعجب بجمال طبيعتها واستهوته مباهجها. فلقد بلغت شهرة أريانة كمنتزه ومكان استشفاء، الأماكن البعيدة، ورغب في زيارتها والإقامة بين حقول الزّيتون وصفاء هوائها الجاف إلى جانب سكّان الحاضرة تونس، نذكر أيضًا كثيرا من الأجانب الّذين قصدوها قصد التداوي والاستشفاء. ومن أبرز من زارها في القرن التّاسع عشر، قبل الحماية الفرنسيّة، الرّوائي والكاتب الفرنسيّ الّذي طبّقت شهرته الآفاق قوستاف فلوبير (Gustave Flaubert) (1821 ـ 1880). فقد زارها مرّتين: الأولى سنة 1849 والثّانيّة سنة .1858

ويذهب الظّنّ ببعض الباحثين أنّه قدم إلى تونس في هذين التّاريخين وتوجّه إلى مدينة أريانة للاستشفاء بهوائها الجافّ ورغبة في النّقاهة من المرض العصبيّ الّذي ألمّ به سنة .1844 ويؤكّد من تحدّث عن فلوبير أنّه زارها ثمّ عاد إليها وخصّها بوصف في تأليفه: «الرّحلة إلى المشرق» (VOYAGE EN ORIENT)، الصّادر بباريس سنة 1950 فيقول عنها:

«إنّها لطيفة ورائعة وشيء ساحر! إنّ منازلها ذات السّطوح البيضاء والنّوافذ الخضراء، تبرز وسط الاخضرار، ويبدو جميعها من بين منفرجات الجبال التي تشرف عليها حقول من الزّيتون وأشجار الخرّوب العظيمة، تحوطها حواجز من تين الهند، قد أصبحت صفائحه المتقادمة شبيهة بالأغصان»

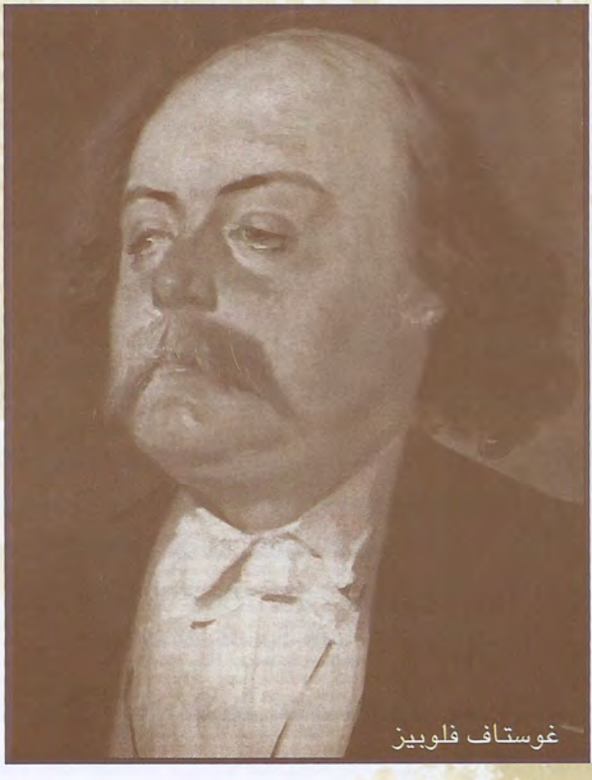
Charmante, délicieuse, enivrante chose ! les terrasses blanches des maisons à volets verts saillirent au milieu de la verdure. Le tout est dominé en échappée par des montagnes bleues. Champs d'oliviers, caroubiers énormes, des haies de napals où les feuilles, vieillissant, sont devenues des branches.
(G. FLAUBERT: Voyage en Orient. Les Belles lettres. Paris, 1950. T. II. P549)

ولكنّني أميل إلى آعتبار أنّ زيارتي قستاف فلوبير إلى تونس قد استهدفتا غايات أخرى. ففي الزّيارة الأولى سنة 1849 وقد صحبه فيهـــا صديقـه ماكسيـم دي كان (Maxime de Camp) .ومن تونس توجّه إلى مصر ولم يعد منها إلى فرنسا إلاّ سنة .1851 وكانت نتيجتها تأليفه «الرّحلة إلى المشرق». وفيها وصف مدينة أريانة وجولة في هضاب البلفيدير. أمّا زيارته الثّانية إلى تونس سنة

1858 فكانت مقصودة ومحدّدة. فقد جاء ليجمع المكوّنات الحيّة والواقعيّة فيما يشاهد من الاطار الحقيقي الّذي سيبني فيه أحداث روايته «صلمبو» Salammbô الّتي أصدرها سنة .1862 فلا ننسى أنّ فلوبير هو أب الرّواية الواقعيّة وباعثها للوجود، وهو حريص على وصف الإطار الواقعيّ لروايته التّاريخيّة «صلمبو». فرأى أنّ زيارته لقرطاج ولأحوازها ومنها بساتين أريانة هي أمر حتميّ لتحصل له الفكرة القريبة من واقع أحداث رواية صلمبو.

فنجد في هذه الرّواية جانبا مهمّا للإطار المكاني لما حول قرطاج من القرى والمجمعات السكَنيّة والبساتين. وتتراءى لنا بساتين أريانة وسكّرة في عينىّ هذا الأديب الفرنسيّ وكأنّنا نراها في النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر مثلما صوّرها لنا يان فرماين Jan Vermeyen بريشته سنة 1535 عندما صاحب ملك إسبانيا شارل الخامس Charles Quint في زحفته على تونس دخولا من حلق الوادي. وتبقى رواية «صلامبو» لفلوبار مرجعا أدبيّا هامّا لوصف بساتين أريانة الغنّاء والطّبيعة الخلاّبة للضاحيّة الشّماليّة للحاضرة تونس في القرن التّاسع عشر وفي نصفه الأوّل بصفة خاصّة.

وتحظى بساتين أريانة في هذا التّاريخ بالذّات بعناية الوصّافين من الشّعراء أيضًا ونجد صورتها في عيون بعض الشّعراء التّونسيّين ممّن أوقد قرائحهم جمالها الخلاّب ومن بينهم شاعر عاش في القرن التّاسع عشر وهو الباجي المسعوديّ (1810 ـ 1880)، وكان كاتب السّرّ لدى وزير القلم أحمد أبي الضّياف



غوستاف فلوبير

صاحب التّاريخ المشهور «إتحاف أهل الزّمان، بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان». والباجي المسعودي هو الجدّ للأمّ للشّاعرالصّادق مازيغ مترجم القرآن الكريم للفرنسيّة. والباجي المسعودي ناثر ومترسّل ومؤرّخ

وأهمّ آثاره: ـ 1 ديوان شعر جمعه ابنه عبد العزيز وتوجد منه نسخة خطيّة في المكتبة العاشوريّة ـ 2 الخلاصة النقيّة في أمراء إفريقيّة وطبع في تونس سنة 1866 ـ 3 عقد الفوائد في تذييل الخلافة وفوائد الرّائد وطبع في تونس سنة 1905. وهذه القصيدة الّتي نورد مختارات من أبياتها استهلّها بتشوّقه إلى تونس الحاضرة ووصف للضّواحي الشّماليّة، ضاحية بعد أخرى. ثم يخصّ أريانة ومرابعها بذكر ما حرّك سواكن مشاعره من جمال فياض ثمّ يتخلّص لمدح وليّ نعمته أحمد بن أبي الضّياف قائلا:

حذوت حذو أبي العبّاس أحمد في ... نسيم تونس حيّاني ويحييني
فخري وذخري وأستاذي الشّهير ومن ... وجدي به في تجاويف الشّرايين
مثنى الوزارة من سيف ومن قلم ... ومنصف غير محتاج لتبيين
يدوم في العزّ فذّا لابسا أبدا ... سعادة من إله الكاف والنّون

ويتأكّد لنا مرّة أخرى ـ من قصيدته ـ قيمة مدينة أريانة كمنتزه ومربع عند سكّان الحاضرة تونس من جانب، وما تتميّز به عن جميع الضّواحي للعاصمة من جهة أخرى. فيقول عن تونس وأرايانة:

حيّ نسيمك حتّى كاد يحييني ... ياتونس الأنس ياخضرا الميادين
سرى عليلا ووافى بالسّلام إلى ... مضنى بحبك نائي الدّار مغبون...
قم يا نديي فبارك روضها سحرا ... فالسّعد نادى بنا من باب سعدون
أهدى لنا الرّبيع ظرفا وتكرمة ... شميم أنفاسه ضمن الرّياحين
أما ترى أعين الأزهار شاخصة ... للّهو والأنس والأفراح تدعوني
ساعد أخاك إلى أريانة فبها ... روض توشّى بورديّ ونسرين
وأغنم بها أنفس الأزهار مصطحبا ... من خمرة عتّقت في دير عبدون
ومل لشطرانة عند الغبوق وقف ... وأشرط بها ما تشا يأتيك في الحين
وجعفر لاذوت أغصانه وسقت ... ثغور أزهاره بنت الزّراجين
ظلّ ظليل وماء كالسّلاف على ... رجع النّواعير ربّات التّلاحين
وأرتد لنفسك في روّاد منزلة ... واخلع عذارك فيه خلع مأمون

إنّ العديد من الشّعراء المعاصرين قد نوّهوا بربيع أريانة وورودها ومياهها العذبة، وجادت قرائحهم بشتّى الأوصاف تنويها بالمباهج الخلاّبة في هذه البلدة الآمنة الحالمة في بساتينها الرّائقة الغنّاء، فكتبوا القصائد والموشّحات وترنّموا في شتّى الاوزان وعلى مختلف الأوتار بأعذب الكلام وبثّوا ما في نفوسهم من الأحاسيس الرّقيقة والمشاعر المتأجّجة أمام هذه المباهج الرّائعة من طبيعة أريانة. فنذكر من موشّح للهادي المدني هذه الابيات وهو بعنوان «الربّيع»:

ألا باكر لروض جاده الوسميّ في الفجر
وناد الصّحب والظّبي الغرير وربّة الخدر

وجئ بالنّاي محفوفا بكاسات من الخمـر

فذا فصل الرّبيع الغضّ أحيانا وحيّانا فقم باللّه غنّ القوم يوم السّعد وافانا

ألا آقطف وردة فيها بقايا من ندى اللّيـل

كخـدّ فيـه قـد جالت دموع التّيه والـدّلّ

وناولها فتاة من ذوات الأعين النّجـــل

فدع عنك الكرى هيّا لنقطف ورد أريانا وقم آنشد لإخوان الصّفا الورد أحيانا

وهذا موشّح للشّاعر الطّاهر القصّار، وهو ملحّن وموثّق في تسجيل بالإذاعة الوطنيّة التّونسيّة تؤدّيه المجموعة الصّوتيّة للرّشيديّة. وجاء فيه التّنويه بورود أريانة وبمائها السّلسبيل الّذي «يسعد به العليل» فيقول:

مـنـزه بـآلحســن يـزهـــو و نسيـــم مستـطـــاب

***

يمّـم ريـاض الـورود ظـهـــرا وآجعـل بـأريانة المقيـــل

وآنشـق زمـان الأصيـل نشـرا في ظـلّ زيتـونها الظّليـــل

***

الأفـــق بـاســـــم والجـــوّ نــــاعـــم

والـطّـيــر تشـــــدو بـــلا وتـــــــر

***

والطّـلّ قــد كلّل الرّوابـــي وطـــرّز الزّهـر بالـــدّرر

ومن الشّخصيّات اللاّمعة في العلم والأدب ممّن أقاموا في أريانة للتّداوي وطلب شفاء الأبدان بهوائها ومائها نذكر واحدا من شيوخ الزّيتونة المرموقين قدم إلى أريانة طلبا للصّحّة والاستشفاء وهو الشّيخ محمّد النّخلي (1869 ـ 1924) وهو أصيل مدينة القيروان. يقول في مذكّراته عن المرض الّذي ألمّ به:

«فكّرت فظهر لي إيقاف الأدوية وترك الطّبيعة تحارب المرض إن كانت لها قوّة، والتّنقل إلى الهواء النّقيّ، فاخترت مناخ أريانة لحسن هوائها ونفع مائها إذ يوجد بها ماء معدنيّ صالح للمعدة جدّا. فانتقلت إلى هذا المناخ.

وكان يسكنها الأمير محمّد الحبيب باي وليّ عهد الأمير محمّد النّاصر باي متربّعا بها كلّ سنة (وكان النّهج المحاذي لزاوية سيدي عمّار جنوبا يحمل اسمه إلى عهد قريب) فاقتضى الحال أن أزوره وان أقدّم له قصيدة مدح على ما جرت به عادة هؤلاء الأمراء من الارتياح للثّناء والإطراء بالحقّ والباطل. وقد كانت إجازة هذه القصيدة الملعونة أن أوصى طبيبه اليهوديّ شالوم بمعالجتي وفرط الاعتناء بشأني.

وقد زارني هذا الطّبيب وشاهدت فيه من عجائب الجهل والطّيش ما هو عبرة لأولى البصيرة». عن كتاب: «آثار الشّيخ محمّد النّخلي (1869 ـ 1924) سيرة ذاتيّة وأفكار إصلاحيّة».جمع وتحقيق عبد المنعم النّخلي وتحقيق ومراجعة حمّادي السّاحلي. ونشر دار الغرب الإسلامي .1995

وقد حظي منّا الشّيخ محمّد النّخلي بمحاضرة بعنوان «موقف الشّيخ محمّد النّخلي مصلحا بين النّزعة الاتّباعيّة والنّزعة التّجديديّة» وذلك في النّدوة الّتي نظّمتها وزارة الشّؤون الدّينيّة بمناسبة المولد النّبوي الشّريف لسنة 1417 هـ بالقيروان تحت عنوان «الشّيخ محمّد النّخلي وإسهامه في حركة الاصلاح والتّجديد» في يومي 22 و23 جويلية .1996 ونشرت هذه المحاضرة ضمن بقيّة محاضرات النّدوة في

الكتاب العاشر من سلسلة آفاق إسلاميّة التي تصدرها وزارة الشّؤون الدينيّة في سبتمبر 1997

وأكرمت بلدية أريانة الشّيخ محمّد النّخلي بتسمية أحد أنهجها باسمة.والشّيخ محمّد النّخلي هو غنيّ عن التّعريف فهو على غرار الشّيخ«سالم بوحاجب» قطب من أقطاب الحركة التّجديديّة الإصلاحيّة في تونس في نهاية القرن التّاسع عشر والرّبع الأوّل من القرن العشرين. وهو أستاذ الشّيخ الطّاهر ابن عاشور صاحب «التّحرير والتّنوير في تفسير القرآن الكريم». وقد مدح هذا الشّيخ أستاذه بقصيدة موجودة في الكتاب الّذي جمع بعضا من آثاره.وتخرّج على الشّيخ محمّد النّخلي ثلّة من شيوخ أجلاّء كان لهم صيت مذكور في تجديد التعليم بجامع الزيتونة المعمور.

ومن أبرز من استطاب الإقامة في أريانة من شعرائها المعاصرين صاحب ديوان «إرادة الحياة» أبو القاسم الشّابي. وقد سكنها في أخريات حياته القصيرة، وهو في حالة صحيّة حرجة. ولعلّه سكنهاطلبا لهوائها النّقيّ مستجيبا في ذلك لنصيحة أطبّائه. يقول عنه أبو القاسم محمّد كرّو في كتابه: «الشّابي حياته وشعره» (في صفحة 52 من الطّبعة الثّالثة لسنة 1960):«ثمّ هو ينحدر من توزر إلى تونس يوم1934/8/26 وينزل أوّلا ببعض فنادق العاصمة ثمّ يستقرّ في سبتمبر بضاحية أريانة. أقول يستقرّ وفي الحقيقة نجده في نفس تلك الصّائفة مصوّرا بحمّام الأنف مع السيّدين مازيغ والسّنوسي».

ولم تطل إقامة شاعر الحبّ والحياة، أبي القاسم الشّابي في أريانة الجميلة فيدخل المستشفى الإطالي (الحبيب ثامر حاليّا) في 3 أكتوبر 1934 وهو مصاب بمرض القلب إذ كان يألم من ضيق الأذينة القلبية، أي أنّ دوران دمه الرّئويّ لم يكن كافيا. ثمّ يوافيه الأجل المحتوم في فجر الثّلاثاء التّاسع من أكتوبر 1934.

ولم نعثر في ديوانه «إرادة الحياة»في تاريخ شهر سبتمبر1934 الّذي قضّاه في مدينة أريانة عن قصيدة يصف فيها بساتين أريانة أو يسجّل فيها إعجابه بما رآه فيها من طبيعة زاهية غنّاء. فالقصيدة الأخيرة المؤرّخة في ديوانه هي «فلسفة الثّعبان» الّتي قالها في 1934/2/8 ويستهلّها بقوله:

كان الرّبيع الحيّ روحا حالما   غضّ الشّباب معطّر الجلباب
يمشي على الدّنيا بفكرة شاعر   ويطوفها في موكب خلاّب
والأفق يملأه الحنان كأنّه   قلب الوجود المنتج الوهّاب...

أمّا القصيدتان اللّتان تتمّمان مجموع قصائد الدّيوان، فهما بغير تاريخ وقد عنونهما الشّاعر، الأولى ««قال قلبي للإله»، والثّانية: «زئير العاصفة».

فلا نجد أثرا لمدينة الورد في شعر الشّابي بصفة صريحة وقد يكون ذلك مرتبطا بالظّرف الحرج الّذي كانت عليه حالته الصّحيّة، وربّما كان ذلك يعود لانعكاسات المرض على حالته النّفسيّة أيضًا فتعطّلت قريحته الشّعريّة قصرا، ثمّ إنّ الأطبّاء نصحوه ودعوه إلى ترك الشّعر إلى حين لما كان لذلك من تأثير على أعصابه الّتي أصبح توتّرها ظاهرا في الأيّام الأخيرة من حياته.

وخلاصة القول فإنّ الأدباء الّذين سخّروا قرائحهم لوصف هذه المدنية الجميلة وهذا المربع الخلاّب، لا يمكن حصرهم. وقد اقتصرنا على ذكر بعضهم وأوردنا مختارات من أقوالهم. ولا يفوتنا أن نلفت الانتباه إلى الأغاني الّتي ترنّمت فيها الأصواف المطربة لكبار الفنّانين، بمحاسن مدينة أريانة.

ويمكن أن نخصّص سجلاً أدبيّا كاملا نفرده بما حظيت به هذه المدينة وبساتينها الرّائقة من الوصف والمديح وما دار فيها من المنتديات الأدبيّة وقد يطول بنا الحديث في هذا الموضوع. وما من شكّ أنّ هذا الاطار الطّبيعيّ الخلاّب قد نبّه المشاعر وأرقص عرائس الشّعر على رنّة الأوتار، وشحذ القرائح واستلهم الفنّانين بالقلم والفرشاة. والرّصيد في هذا الميدان كبير ومتنوّع الطّبوع والألوان. وهذا إنّ دلّ على شئ فانّما يؤكّد منزلة مدينة أريانة من حيث طبيعتها ويثبت القيمة الفنيّة الّتي حظيت بها مع الزّمان إلى جانب ما عاشه ساكنوها، في تنوّعهم وأثناء تردّدهم عليها، من أحداث يمكن أن نؤرّخ بها للبلاد كاملة.

ومن أبرز من سكن مدينة أريانة في سانية غير بعيد عن ساحة سلا حاليا شيخ جامع الزّيتونة محمّد الطّاهر ابن عاشور الجدّ. وقد خصّه أحمد بن أبي الضياف بالتّرجمة عدد 394 بالجزء الثّامن من كتاب «إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان» وهذا نصّها:

محمد الطّاهر بن عاشور:

أبو عبد اللّه محمّد الطاهر بن محمد بن الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور. نشأ هذا الذكي في حجر أبيه وتربية أخيه. وهو من بيت شرف وصلاح وترجم لجدّهم الوزير في تاريخه وكذلك حسين خوجة. ولما حفظ القرآن بمكتب حوانيت عاشور أقبل على العلم ونبذ ما سواه، فأخذ عن أخيه أبي عبد اللّه محمّد بن عاشور وعن شيخنا أبي عبد اللّه محمّد بن ملوكه، وكان يستنجبه ويقدمه، وعن شيخنا العلامة أبي عبد اللّه محمّد بن الخوجة، وعن شيخ الشيوخ أبي إسحاق إبراهيم الرياحي وعن شيخ الإسلام أبي عبد اللّه محمّد بيرم الثالث، وعن الشيخ المفتي أبي عبد اللّه محمد معاوية وكان ذلك عند التفات الهمة من المشير أبي العباس أحمد باي إلى العلم وأهله، بترتيب المدرسين وإجراء جرايتهم، ووقف الكتب العلميه بالجامع على الطلبة.

فحبس على طلب العلم شبابه، ولازم أبوابه، ولم يلبث ان اقتحم على الفحول أعلالها، وطمح إلى الغايات البعيدة فنالها، وفاض العلم حوضه، وأثمر روضه، فتصدّر للتدريس في النحو والبيان والأصول وغيرها من علوم الأدب، فانثالت إليه النّاس من كل حدب، وجرى منه بالجامع الأعظم سيل الإفادة، وسعد به سوق العلم أي سعادة، يقدم الإفادة على سائر لذاته، بداع قوي من ذاته، إذا تصدر للتدريس رأيت الدرّ الفاخر من البحر الزاخر، ومصداق «كم ترك الأول للآخر».

وانتفع به أعيان من أهل المملكة أي انتفاع، ولم تزل رتبهم في ارتفاع، فلم يرعهم إلا تقديمه لخطة القضاء فانطووا على أحر من جمر الغضى، وذلك أن الرجل لما علا كعبه واشتهر في العلم صيته في قليل من الزمن، وتحقّق المشير أبو العباس أحمد باي أن تحصيله كان في دولته ومن ثمرات عنايته قال في مجلسه: «هذه ثمرة غرسي نريد الانتفاع بها في حياتي» واستشار فيه صاحبنا شيخ الإسلام أبا عبد اللّه محمد بيرم فلم يعبه إلاّ بصغر السن، فقال له: «هل تعلم أعلم منه ممن نقدمه بالسّن ؟» فأجاب بعدم العلم، فقدمه للخطة في 25 رجب من سنة 1267 (الاثنين 26 ماي 1851) وكان يومئذ في الفنون المعقولة أحسن منه في الفقه .

وللرجل همّة حملته على الانقطاع إلى الدواوين الفقهية، وعمّر بها أوقاته، حتى تدارك في قليل من

الزّمن ما فاته، وجرى مع فحول الفقهاء في مضمارهم، ومعارك أنظارهم، يحذو في الفقه حذو العلامة أبي الفداء إسماعيل التميمي من مشاركة الأصول بالفروع، لا يذكر فقها وترجيحا إلاّ بحديثه ويقول: «لايعجبني أن أقول هكذا قال الفقهاء، وما يمنعني أن أعلم الدليل مثل ما علموه ؟».

وباشر الخطة إذ ذاك بميزان عدل، لا يلتفت إلى خوف ولا عزل، وشرد أهل الزور، وغلّ أيدي الملدّين وأهل الفجور.

ولباي ذلك العصر عناية بأخباره، واستحسان لآثاره، وأطلق يده في أخذ أوامر المنتصبين للإشهاد إنْ رأى ريبة ويبعث بالأوامر له. وكان كثيرا ما يقول لي: «ما فعل القاضي الشريف»؟، فأحكي له ما يبلغني عنه من غريب منازعه وجيّد مباحثه، فنرى السرور بوجهه. وعلى ثقل الخطة كان يريح نفسه بالتدريس في بعض الأحيان.

ورغب منه أعيان من تلامذته ان يكمل لهم شرح المحلي لجميع الجوامع فأجابهم لذلك بين العشاءين. وله حاشية على القطر، وتقاييد على حاشية عبد الحكيم في البيان، وشرح على بردة البوصيري. هذا ما يتعلق بترجمة الرجل في العلم وثقوب الفكر ومباشرته خطة القضاء.

ثم انتقل في دولة المشير أبي عبد اللّه محمّد الصادق باي إلى خطة الفتوى ونقابة الاشراف والاحتساب على فواضل الأحباس في طرق البر العامة، والنظارة على بيت المال، على خلاف نص المحبّس وقصده بمقتضى التحبيس المعلق عند باب الشفاء من الجامع. وبذلك سلقته الألسن الحداد من الأكفاء والحساد.

ثم انتقل إلى مجلس الباي الخاص والمجلس الأكبر للشورى الحامي لحقوق المملكة والدّولة والسّكان، فلم يكن عند الظّنّ في مصلحة البلاد والعباد، وربما أعان شراع الوحدة بالاستبداد لما رأى في ذلك من المصلحة بالاجتهاد.

وكان عالي الهمّة، زكيّ النّفس، لم يقنع بشرف النّسب، حتّى أضاف له الشّرف المكتسب من نور الفهم والتّضلّع بالعلم، وهما نعمتان وكلّ ذي نعمة محسود. وعلى وجود حسّاده وتظاهر أضداده، لم يجدوا في قضائه موضعا لانتقاده.

وكان سليم الصّدر، حسن الأخلاق، عذب البيان، كاتبا شاعرا بليغا، أبيّ الضيم، ثابت الجنان، طيّب المعاشرة، بعيدا عن التصنّع في الزي الذي هو رأس مال المفلس، يلتحف في الشّتاء بالحولي، ويقول لمن يعذله دونك وقولي، ماشئت من محاضرة تتحف المجالس والمحاضر، ويسبي النواظر زهرها النّاضر.

وعلى كل حال فقد عاش مملّأ الأغراض، غير مكترث بما في أيدي الحسدة من سهام الاعتراض. ومن نقص الهمّة الحسد على النعمة.

ولم يزل في هذه الدّار يدأب على أسباب الحظوة والارتقاء، إلى أن رحل إلى جوار جده بدار البقاء، نهار يوم الاثنين الحادي والعشرين من ذي حجة سنة 1284(13أفريل 1868) ببستانه بأريانة. وحمل جسده الشريف إلى داره بتونس، ومن الغد دفن بزاوية جدّه مع آله الطيبين. وحضر جنازته الباي واخوته

ورجال دولته، واشتدّ عليه أسفه بالبكاء وكاد ان لا يتخلّف عن جنازته أحد. وأعقب ابنا صغيرا تلوح عليه النّجابة. ورثاه شاعر العصر أبو الثنّاء الشيخ محمود قابادو بقصيدة كلّها عيون: مطلعها:

خطب له الدين أرنى لحظ مذعور   والنّاس ما بين مبهوت ومبهور

(راجع الدّيوان ص 137 جزء 1)

شخصيّة لا تنسى في أريانة: الأميرة نازلي فاضل، رائدة النهضة في مصر وتونس:

من أبرز الشخصيات المرموقة التي عرفتها مدينة أريانة الأميرة نازلي فاضل (1853 ـ 1913)، سليلة البيت الخديوي في مصر. يقول عنها الأستاذ أبو القاسم محمّد كرّو في كتابه «الأميرة نازلي فاضل رائدة النّهضة في مصر وتونس» في صفحة 12: «تنحدر الأميرة نازلي فاضل من الأسرة العلويّة المصريّة... التي أسّسها محمّد علي باشا، فهو رأسها الأوّل ومنه تواصل الأبناء والحفّاد وفروعهم إلى نهاية الملك فاروق المعروفة.»

ويحدّثنا صاحب الكتاب عن الخلاف الّذي حدث بين الخديوي عبّاس وأخيه ووليّ عهده الامير مصطفى فاضل، والد الأميرة نازلي، وذلك بسبب حرمانه من ولاية العهد التي كانت بالوراثة للأكبر في الأسرة. فسعى الخديوي إسماعيل لدى الباب العالي ليصبح وليّ العهد الابن الأكبر للحاكم، فظفر بفرمان من الباب العالي عام ,1866 وغيّر به نظام الوراثة في مصر. وفعلا تولّى ابنه توفيق بعده الحكم سنة ,1879 وأصبح أخوه مصطفى فاضل وليّ العهد السّابق مجرّد أمير وحرم قصرا من منصبه. هاجر الأمير إلى تركيا غاضبا مع عائلته وهنالك ظفرت ابنته الأميرة نازلي بثقافة عالية وأتقنت من اللّغات: العربيّة والفرنسيّة والانكليزيّة والتّركيّة، كما تكلّمت الإيطاليّة والألمانيّة إلى حدّ كبير.

وأمّا الشّيخ الفاضل ابن عاشور فينوّه بفضائلها ويجعلها من روّاد الاصلاح التّونسيّ في الثّلث الأوّل من القرن العشرين ومن أركانه القويّة فيقول عنها في كتابه «من أعلام تونس في الثّلث الأوّل من القرن العشرين»:

«وكانت كثيرة التّردّد على فرنسا وإيطاليا، قويّة الميل إلى الحياة السّاسيّة التي قامت فيها بأدوار هامّة بين السّلطان عبد الحميد وبين الوطنيّين الأحرار. وبوفاة والدها رجعت إلى مصر وبقيت كثيرة التّرداد على تركيّا وأروبا. وقد تزوّجت سفير تركيا بايطاليا(جاء زواج نازلي الأوّل سنة 1873 من خليل باشا شريف، وزير خارجيّة الدّولة التركيّة ثمّ أصبح سفيرا بايطاليا حتى وفاته في يناير 1879).»

وكان أخوها الأمير حيدر مقيما في باريس ومعدودا من كبار أدباء اللّغة الفرنسيّة... وقد أتيحت للأميرة نازلي في رحلاتها إلى أروبا فرص التّعرّف برجال من أعلام الحركة الإصلاحيّة بتونس مثل الوزير حسين والشّيخ محمد بيرم وتوثّقت صلتها بالشّيخ بيرم وأبنائه بعد استقرارهم بمصر... كما مكّنتها من التعرف بأفراد من نخبة الشّباب التّونسي الّذين زاولوا دراستهم الثّانوية بالمدرسة الصّادقية بتونس ثم واصلوا دراستهم العليا بكلّيّات جامعة باريس. وكثير من هؤلاء الشبان كان تعرّفها بهم عند السيد جمال الدين الأفغاني وفي مركز العروى الوثقى.

قصدت تونس سنة 1314 هـ (يوافق 12 / 6 / 1896)، بوصاية آل بيرم. ويلاحظ الأستاذ أبو القاسم محمد كرو في كتابه عنها (ص84)،أن زيارتها الأولى كانت في مايو سنة 1899 حسب خبر طويل عنها في جريدة الحاضرة.

ويواصل الشيخ الفاضل ابن عاشور: » واتصلت أوّل مقدمها بالشّيخ سالم بوحاجب وابنيه عمر وخليل، ونخبة من الشّباب التونسي العاملين في حركة الإصلاح القائمين على جريدة الحاضرة، (ومن أهم مؤسّسيها علي بوشوشة، والبشير صفر ومحمّد بن الخوجة وخليل بوحاجب (زوجها) والعربي بن عمر ويونس حجّوج وصالح البكوش...)

ويقول محمد فريد (1868 ـ 1919)،وهو رئيس الحزب الوطني، أيام الاحتلال البريطاني بمصر، في ما كتبه عن نازلي فاضل: «تربت تربية أروبية ثم تزوجت بخليل شريف باشا أخ علي باشا شريف، سفير الدّولة العليّة بباريس، وعاشت معه سنين بها، عيشة أروبية بحتة. ولما توفي عادت لمصر وبقيت مدة بلا زوج،صاحبت في أثنائها الكثيرين من الإفرنج والمصريين. وكانت تتردّد على تونس لزيارة أختها رقيّة هانم زوجة القائد الطاهر بن عياد. فتعرفت بالسيد خليل بوحاجب وتزوجته وبقيت معه إلى أن ماتت في (28 / 12 / 1913).

وقد كان لها صالون أدبي عند عودتها إلى مصر قرّبت فيه كبار رجال الفكر والسّياسة أمثال جمال الدّين الأفغانّي ومحمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين ومحمد فريد وأحمد فتحي زغلول وإبراهيم الهلباوي وإبراهيم المويلحي وحسين رشدي وغيرهم.

وفي هذا الصّالون كان الحاضرون يتدارسون مسائل الإصلاح الاجتماعي وأحوال المرأة المصرية (وكانت نازلي تدعو إلى تعليمها وترى أنّ المجتمع لا يرتقي إلاّ بالأرتقاء بها لذلك كانت المحرّضة على نشر كتابي قاسم أمين: «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، كما كان المقبلون على ناديها يتدارسون العلوم والآداب والفنون الجميلة، ويتحسّسون أسس الفكر الرّاقي وسبل التّنوير عن طريق العلم قصد السّمو بالمجتمع وتخليصه من التّأخر والجهل. وكانوا يناقشون الكتب الأروبّية الّتي كانت تهاجم مصر والحضارة العربيّة. وفي صالونها دافعت عن عرابي وثورته الّتي شنّها على الاستعمار الإنكليزي. وفي هذا المنتدى الرّفيع لأبرز المثقّفين في مصر ومن البلاد العربيّة كالشّيخ بيرم من تونس تولّدت المشاعر القومية بعد فترة من الكبت السّياسيّ والتردّي الفكريّ والأدبيّ.

وكان للأميرة نازلي فاضل الأثر الكبير على مثقّفي عصرها من ذلك أنّها استحثّت قاسم أمين على الرّدّ على«الدّوق داركور» سنة 1894 وعلى نفقتها، فنشر كتابه «المصريون» وبرهن فيه للدّوق «داركور» على قدرة المصريّين على النهوض ونفض غبار التّخلّف عنهم.وكان لها صداقة متينة بالزّعيم الوطنيّ المصريّ سعد زغلول، فبخبرتها أدركت فيه جوانب القوة ورشحته زوجا لصفيّة هانم ابنة مصطفى فهمي رئيس الوزراء.

كما أقنعته بضرورة تعلّم اللّغة الفرنسيّة وكذا فعلت مع صديقها الشّيخ محمّد عبده. وكان لها التأثير الإيجابيّ على التّطوّر الفكريّ لروّاد صالونها وكان لهم منزلة ثقافية متميزة في ذلك العصر وثراء ذهنيّ واسع ومن أبرزهم الشيخ محمد عبده الّذي بدأت علاقته بها منذ عودته من المنفى سنة 1888. وكان لها أيضًا الأثر فيما عرف به من نظرة تقدّميّة في تحرير المرأة وقدّم لها اثنين من تلاميذه المرموقين سعد زغلول وقاسم أمين.»وفي صالونها، سحرت كل من حضره بثقافتها العميقة وبهرتهم بحصافتها وتمكنها



الأميرة نازلي فاضل



مصطفى بهجت فاضل



الخديوي إسماعيل



الخديوي توفيق

فزادت من مشاعرهم الوطنية وعمّقت تعلقهم بالتّقدم والتّطور وخاصة تجديد الإسلام وبعثه قويا متطورا من جديد رغم تظاهرها بالميل إلى الزّوايا كمعظم رجال عصرها».

وإنّ صلة هذه الأميرة المصلحة بمدينة أريانة تعود إلى سنة 1899 حيث نزلت بقصر آل البكوش

كإقامة أولى لها في تونس قبل أن تنتقل إلى قصر زوجها خليل بوحاجب(1280-1358هـ) بالمرسى فأقامت ناديها الجديد في تونس بعد القاهرة. وضمّت إليه نخبة من المثقّفين، وفي هذا القصر استقبلت صديقها القديم الشّيخ محمّد عبده في زيارته الثانية من 9 إلى 22 سبتمبر 1903 . وممّا يذكّر أنّه جاء خصّيصا لزيارتها. أما زيارته الأولى التي التقى فيها بشيوخ جامع الزّيتونة فكانت من 6 ديسمبر 1884 إلى 4 جانفي .1885

ونختم القول عن هذه السّيدّة القادمة إلى تونس وعن إقامتها بقصر محمد البكوش بأريانة إذ الحديث عن دورها في الحركة التّنويريّة الإصلاحيّة وخاصّة ما قامت به للنّهوض بالمرأة وتغيير وضعها متّسع ويستدعي تبسّطا أكثر لشمول سيرة هذه المصلحة. ويكفي أن نعطي صورة عن نشاطها في تونس بنقل فقرة ممّا كتب عنها بجريدة الحاضرة في العدد 548 ليوم 30 مايو 1899: «وليلة الأحد الفارط تناولت دولتها الطّعام بدار الفاضل البارع الوجيه صديقنا السيد علي بن أحمد، رئيس الجمعية الخلدونيّة. فشرّفت منزله في الساعة السابعة مساء ثم حضر نخبة من شبّان الأهالي وخاصّة أحباءنا من مجلسها لشرب الشاي والتأنّس بمذاكرتها، فتجاذبت أعنّة الحديث مع الحاضرين في مواضيع شتّى بين أدبية وتاريخية وسياسية دلّت على تحنّك البرنسس وكريمتها وسعة آطلاعهما وغزارة معلوماتهما وتوقّد فطنتهما وخصوصا تفقّههما في مقتضيات الأحوال الرّاهنة ممّا لا يسع المقام بإفاضة القول فيه... ولاقت من جميع الحاضرين كل تجلّة وإكرام وحسن مؤانسة واحترام، ودامت تلك المؤانسة إلى نصف الليل، حينها توجهت دولة الأميرة لمحل نزولها ببستان السّيدّ البكوش بأريانة».



أريانة
في مسار الحداثة

تنظيـم إداري جديـد

تعود مدينة أريانة بالنّظر إداريّا في العهد الحسيني إلى قائد الاحواز يعيّنه الباي. ويكون القائد في نفس الوقت رئيسا للبلدية ومشرفا على ميزانيّتها ومنظّما للحياة العمرانيّة فيها. وأحواز مدينة تونس العاصمة التي تعود بالنّظر الاداري إلى مسؤول واحد هو قائد الاحواز هي على التّوالي بحسب الأهميّة السّكّانيّة: حلق الوادي وحمّام الانف وأريانة وباردو ومنّوبة والمرسى ورادس وقرطاج وابن عروس ومقرين وسان جرمان (الزّهراء اليوم) وسيدي بوسعيد.

وبمجرّد بداية عهد الاستقلال عن الحماية الفرنسيّة سنة 1956 أصبحت هذه الاحواز تنتمي إلى إقليم تونس الكبرى وتعود بالنّظر إلى والي تونس.

ثمّ اقتضى التّوسّع العمراني في هذا الاقليم وكذلك التّنظيم الاداري الجديد في كلّ ما يسهّل تعامل المواطنين مع مختلف المصالح الاداريّة تقسيما جديدا نتج عنه بعث ولايتين جديدتين في نفس الاقليم سنة 1983 هما ابن عروس وأريانة.

وتمّ تنصيب أوّل وال على أريانة في 16 مارس 1983 (انظر الجدول المصاحب عن تتالي الولاة في هذه المسؤوليّة إلى يوم 20 جويلية 2002).

واختير مركز الولاية عند نشأتها في مقرّ بلديّة أريانة. وقد كان هذا المقرّ كنيسة في عهد الحماية استرجعته حكومة الاستقلال مع بعض المواقع الدّينيّة الأخرى ضمن اتّفاقيّة رسميّة مع الفاتكان، وهو مقرّها الحالي. وقد



مقرّ ولاية أريانة في مكان (الكنيسة القديمة)

أدخلت عليه اليوم تحسينات وظيفيّة وجماليّة كبيرة. وهذا المقرّ قد تركّزت فيه البلديّة منذ سنة 1963 إذ كان مقرّها الاصلي غير بعيد عن زاوية سيدي عمّار، محاذيا للمدينة العتيقة.

وعند نشأة الولاية سنة 1983 انتقلت إدارة بلديّة أريانة إلى مقرّها الحالي وهو قصر عبد الرّحمان بن عياد.
وبسبب التّطوّر العمراني المطّرد انبثقت عن ولاية اريانة في 29 جويلية سنة 2001 (الرائد الرسمي عدد 62 صفحة 2024 بتاريخ 4 أوت 2001) ولاية جديدة هي ولاية منّوبة. وبذلك أصبح عدد الولايات 24 ولاية بالجمهوريّة.

ولاية أريانة

الولاة الّذين تعاقبوا على ولاية أريانة منذ إحداثها

الاسم واللّقب المباشرة المغادرة

أحمد بن جميع 16/03/1983 27/07/1984



كمال الحاج سلسي 27/07/1984 03/02/1988



عبد اللّه الكعبي 03/02/1988 25/10/1990



عبد الرحمان بوحريزي 25/10/1990 02/07/1991



نجيب الدّريسي 02/07/1991 19/05/1994



محمّد الحبيب براهم 19/05/1994 13/09/1996



منذر الفريجي 13/09/1996 07/07/2000



علي الطّرابلسي 07/07/2000 20/07/2002



فائز عيّـــاد 20/07/2002



التطوّر العمراني والنشاط البلديّ في الإيالة التونسية

اقتضى التّطوّر العمرانيّ والتّوق إلى التّمدّن وتنظيم الحياة اليوميّة في المدن التّونسيّة بعث أوّل بلديّة في البلاد هي بلديّة الحاضرة (أو عاصمة تونس) وكان ذلك قبل الحمايّة الفرنسيّة، في 30 أوت 1858 .وأوّل من ترأسها الجنرال حسين، إلى شهر سبتمبر .1865 وهو من المماليك مثل خير الدّين التّونسي ومن خرّيجيّ المدرسة الحربيّة بباردو، ومن موظّفيّ الباي المرموقين في القرن التّاسع عشر، شغل مناصب متعدّدة وهامّة في الدّولة (أنظر ترجمته في كتاب «أسس الحماية الفرنسية صفحة 83 طبعة ,1959 لجان قانياج»). وكانت وفاة الجنرال حسين في 27 جويلية .1887

وتواصل إرساء البلديّات في مختلف مدن البلاد التّونسيّة، وهي مرتّبة في ثلاثة أصناف حسب الأهميّة ونوعيّة العمل:

1 ـ البلديات les municipalités

2 ـ لجان البلديات les commissions municipales

3 ـ لجان الطرقان les commissions de voirie

والملاحظ أن الأعضاء المشرفين عليها والمسيّرين لأعمالها يعيّنهم الباي من الاعيان والموظّفين السّامين بأوامر تصدر في الرّائد التّونسي إذ لم يطبّق النّظام الانتخابي إلا بمقتضى القانون الانتخابيّ في سنة .1957

ونذكر هذه البلديات واللّجان البلديّة مرتّبة في أصنافها الثّلاثة إلى تاريخ تأسيس لجنة الطّرقات

بأريانة في أوّل جويلية 1908 بأمر من محمّد الناصر باي (1855 ـ 1922).
وباعلان النّشر والتنفيذ للوزير المفوّض، المقيم العام الفرنسي قبريال ألابتيت، Alapetite Gabriel (1907 ـ 1918).

Municipalités

البلـــديّـــات:

1 ـ تونس 30 أوت 1858

2 ـ حلق الوادي 10 جوان 1884

3 ـ الكـاف 8 جويلية 1884

4 ـ بنزرت 16 جويلية 1884

5 ـ صفاقس 16 جويلية 1884

6 ـ سوسة 16 جويلية 1884

7 ـ المهديّة4 نوفمبر 1884

8 ـ القيروان 20 فيفري 1895

9 ـ باجة 22 ديسمبر 1895

10 ـ سوق الاربعاء7 جــوان 1898

11 ـ قابس1أفريـل 1905

Commissions municipales

لجان البلديّـــات:

1 ـ المنستير 24 جانفي 1887

2 ـ نابــل 30 جويلية 1887

3 ـ جربـة 13 سبتمبر 1887

4 ـ حمام الأنف 9 مــارس 1899

5 ـ رادس 9 مـــارس 1899

6 ـ قفصـــة 8 جويلية 1903

7 ـ طبربة 19 مــارس 1904

8 ـ ماطر 10 مارس 1905

9 ـ فرّيفيل (منزل بورقيبة) 11 مارس 1905

10 ـ تبرسق 2 جويليـة 1905

11 ـ مجاز الباب 20 ديسمبر 1905

Commissions de Voirie

لجـان الطّرقـات:

1 - توزر23 جويلية 1888

2 - زغوان18 مـارس 1891

3 - عين دراهم27 جـوان 1892

4 - طبرقة27 جـوان 1892

5 - سيدي بوزيد5 فيفـري 1893

6 - جرجيس24 ديسمبـر 1893

7 - تالـة 5 فيفـري 1904

8 - سوق الخميس25 جويليـة 1905

9 - غر الدّماء 20 نوفمبـر 1905

10 - بن قردان 13 ديسمبـر 1906

11 - أريانة 1 جويليـة 1908

12 - متلوي 11 نوفمبر 1908

أريانة بين الحاضر والزمن الآتي.

إنّ سنة ,1956 وهي سنـة تخلّص البلاد التّونسيّـة من ربقة الحمـايـة الفرنسيّة، تعتبر العتبة الفاصلة بين مرحلة النّشأة والتّأسيس لبلديّة أريانة، ومرحلة الانبعاثة الجديدة. وفي هذه المرحلة بالذّات بدأت تتأكّد مسؤوليّة المتساكنين، أوّلا في إعانة المجلس البلدي أثناء القيام بما له من أدوار هامّة تتمثّل في تنظيم الشّؤون الاقتصاديّة والحياة الاجتماعيّة في كامل المساحة البلديّة وثانيا في حسن اختيار المستشارين البلديّين للاضطلاع بالوظيفة التي سخّروا لها مجهودات كبيرة كالإشراف على إنجاز المشاريع العمرانيّة لتركيز البنية الأساسيّة للمدينة انطلاقا من هيكلها القديم ثمّ تحديد مخطّطات لأحياء سكنيّة جديدة. فكان من نتائجها اتّساع المساحة البلديّة في تواصل مطّرد جعل مدينة أريانة تحتلّ مكانة متميّزة من حيث الكثافة السّكانّية ومن حيث نسبة السّرعة في التّطوّر والتّهيئة العمرانيّة.

وهذا النّموّ العمرانيّ الكبير في حجمه والسّريع في تطوّره استلزم هيكلة ملاءَمة في نوعها وتنظيمها لإدارة بلديّة تستجيب في صلوحيّتها وخدماتها لمناطق سكنيّة مترامية الأطراف، كلّها جديدة متفرّقة لبنية أساسيّة لحياة مجتمعيّة ومدنيّة متطوّرة في مثل هذا النّسق السّريع.وسنأتي على هذه الجوانب بالدّرس والتّحليل، في المكان المناسب من الفصول الآتية في هذا التاليف.

ومن أهمّ ما يمكن أن نسجّله هنا أنّ ممارسة العمل الانتخابي للمتاسكنين، في مباشرة اختيار أعضاء المجلس البلدي، لم تقع إلا في حدود سنة 1957 أي بعد الاستقلال بسنة واحدة. وعلى سبيل الحصر ضبطنا في الجدول الموالي أسماء رؤساء بلدية أريانة وحدّدنا المدّة النّيابيّة الّتي اظطلعوا فيها بمسؤوليّة القيام بالعمل البلدي، وهو عمل تمتّنت أسسه شيئا فشيئا مع الأيّام،وهو كذلك متواصل في إتقانه وجدواه.

رؤساء بلدية أريانة منذ تطبيق القانون الانتخابي

الاسم واللقب — المدّة النّيابيّة

مصطفـــى الحجيّـج 1957 - 1966 (ثلاثة دورات)



محمّود المستيـــري 1966 - 1967 / 1985 - 1986 / 1990 - 1995

عبد الرحمّان الخبثاني 1967 - 1969 / 1972 - 1975





محمّـد مـزالـــي 1969 - 1972

المنصـف درغـوث 1975 - 1980





عيســى البكـّوش 1980 - 1985

عبد الرؤوف سعّيـد 1986 - 1990





علــي خلبـــــوس 1995 - 2000 صلاح البلطـــــي 2000 - 2005





و من الملاحظ أنّ رئاسة البلديّة قبل الاستقلال كانت موكولة إلى قائد الاحواز الّذي يعيّنه الباي مسؤولا للاشراف على كامل إقليم تونس الكبرى عدا الحاضرة تونس وضمّ حمّام الانف وأريانة وباردو ومنّوبة والمرسى وقرطاج وابن عروس ومقرين وسان جرمان اليوم (الزّهراء) وسيدي بوسعيد. (مرتّبة حسبَ الكثافة السّكّانيّة).

وتفوّض الأعمال البلديّة إلى مساعد الرّئيس. وكان آخر من تولّى هذا المنصَب في بلديّة أريانة نيكولا كوفوبولو(وهو المالك لسانية القريقي المشتملة على بئر بلحسن وقد أهدى هذه البئر للبلديّة). وكان آخر من أشرف على الاحواز القايـد خير الدّين عزّوز بين سنتـي 1949 و 1953

وانطلاقا من سنة 1956 ـ سنة الاستقلال ـ تولّى رئاسة المجلس البلدي، لفترةٍ النّيابة الخصوصيّة من سنة 1956 إلى ,1957 السّيّد مصطفى الحجيّج.

وبمجرّد صدور القانون الانتخابي جرت بأريانة الانتخابات الأولى لاختيار المجلس البلدي الجديد المنتخب في 5 ماي ,1957 ووقع تنصيبه في 17 ماي 1957 برئاسة السّيّد مصطفى الحجيّج وعضويّة: محمّد الشّعّار وعبد الرّحمان الخبثاني وجورج صرفاتي ومحمّد النّمري ومحمّد القريتلي ومحمّد شبيل والشّاذلي الغرياني والبشير الغربي وبنجمان بورجال.

تواريخ تنصيب المجالس البلدية من استقلال تونس إلى اليوم إثر صدور القانون الانتخابي

18 مـــاي 1957 تنصيـب المجلس البـلـديّ الأوّل لبلديّة أريانة

18 مـــاي 1960 تنصيب المجلس البلديّ الثّاني لبلديّة أريانة

21 مـــاي 1963 تنصيب المجلس البلديّ الثّالث لبلديّة أريانة

18 مـــاي 1966 تنصيب المجلس البلديّ الرّابع لبلديّة أريانة

10 مـــاي 1969 تنصيب المجلس البلديّ الخامس لبلديّة أريانة

18 مـــاي 1972 تنصيب المجلس البلديّ السّادس لبلديّة أريانة

27 مـــــاي 1975 تنصيـب المجلـس البـلـديّ السّابع لبـلـديّة أريانة
07 جـــوان 1980 تنصيـب المجلـس البـلـديّ الثّامن لبـلـديّة أريانة
05 جـــوان 1985 تنصيـب المجلـس البـلـديّ التّاسع لبـلـديّة أريانـة
05 ديسـمبر 1986 جلسة استثنائيّة لتسديد شغور منصب الرّئيس
30 مـــاي 1990 تنصيـب المجلـس البـلـديّ العـاشر لبـلـديّة أريـانة
30 مـــاي 1995 تنصيب المجلـس البـلـديّ الحادي عشر لبلديّة أريانة
06 جــوان 2000 تنصيب المجلس البلديّ الثّالث عشر لبلديّة أريانة

أريانة المدينة الواعــدة

تفتّحت «مدينة الورود» على حاضر جديد واعد في العقد الأوّل من هذا القرن. فأصالتها المتجذّرة أعطتها انطلاقة عمرانيّة بدت مظاهرها في نشأة أحياء جديدة أخذت تتسّع يوما بعد يوم وتكتسح الحقول والبساتين على حساب الأراضي الفلاحيّة التي تقلّص انتاجها بصفة ملحوظة. وكان لا بدّ لهذا التّطوّر العمراني السّريع من مستلزمات اقتصاديّة واجتماعيّة تستجيب للحياة العصريّة وما تقتضيه من الخدمات. وأهمّ هيكل تأكّدت جدواه مع الأيّام يتمثّل في المؤسّسة البلديّة التّي تسهر على تنظيم الحياة في المدينة بمختلف متطلّباتها والاستجابة إلى حاجيات المتساكنين في مختلف مشاغلهم اليوميّة. فتأسّست في أوّل جويليّة



الفصل الثالث

وزيرنا الاكبر مكلف باجراء العمل بما تضمنه امرنا هذا وكتب في ٢ جمادى الثانية سنة ١٣٢٦ وفي ١ جويليه سنة ١٩٠٨

نسخة امر علي نصه بعد فاتحته

من عبد الله سبحانه المتوكل عليه المفوض جميع الامور اليه عبده محمد الناصر باشا باي صاحب المملكة التونسية سدد الله تعالى اعماله وبلغه آماله الى من يقف على امرنا هذا من الخاصة والعامة اما بعد فانه بعد اطلاعنا على الامر العلي المورخ في غرة افريل عام ١٨٨٥ الصادر في تشكيل المجالس البلدية وعلى الامر المورخ بيوم التاريخ الصادر في جعل لجنة طرقات باريانة وعلى ما عرضه وزيرنا الاكبر اصدرنا امرنا هذا بما ياتي

الفصل الاول

سمينا المرعي ولدنا مصطفى الدفترلي عامل الاحواز رئيسا للجنة المذكورة

والسيو دلسل والسيو بريسون والسيو بوتاي والسيو كركسي والسيو بالسي ريمون وسي سالم اللمسي شيخ اريانة والنجي البكوش وبلعيش شموئيل والطيب بن عياد اعضاء



محمّد النّاصر باي

سنة 1908 (الثاني من جمادى الثّانية 1326) بلديّة أريانة بمقضى أمر محمّد النّاصر باي (1855 ـ 1922)، وباعلان النّشر والتّنفيد للوزير المفوّض، المقيم العام لفرنسا بتونس قابريال ألابيتيت (Gabriel Alapetite) (1854 ـ 1932) (انظر في وثيقة الرائد الرّسمي النّصّ الكامل لهذا الأمر)


مصطفى الدنقزلي

ووقع التّنصيص على أعضاء المجلس البلدي الأوّل لمدينة أريانة وهم المعيّنون بمقتضى هذا الأمر السادة:

ـ مصطفى الدنقزلي (1865 ـ 1926)، وهو قائد الأحواز بصفته رئيسا لكلّ بلديات أحواز العاصمة كما جرت به التراتيب الإداريّة قبل استقلال تونس.

ـ الأعضاء:

1ـ دلصول Delsol

2 ـ بريّون Barrion

3ـ بوتاي Bouteille

4ـ كركسّي Carcassé

5 ـ فلنزي (ريمون)Valensi (Raymond

6 ـ سالم اللّمسي، شيخ أريانة

7 ـ منجي بكوش

8 ـ بليش(سمويل)

9 ـ الطيب بن عيّاد

وأكّد أمر الباى في فصله الأوّل أنّ هذا المجلس البلديّ الأوّل لمدينة أريانة يتركّب عدا الرّئيس الّذي هو عادة قائد الأحواز، من خمسة أعضاء أوروبيّين وأربعة أعضاء تونسيّين.

أريانة منتزه مدينة تونس

قامت أريانة ببساتينها الغنّاء بوظيفة المنتزه لسكّان مدينة تونس على امتداد القرن التّاسع عشر. وواصلت هذه الوظيفة إلى حدود الحرب العالميّة الأولى 1914 ـ 1918. وكان المتفسّحون في أرجاء هذه الحقول الخضراء وبين بساتين الورد اليهود بصفة خاصّة من حيّ الحارة المعروفة اليوم بالحفصيّة في المدينة العتيقة من العاصمة تونس، يتردّدون على أريانة أيّام السّبت وفي اليومين الأخيرين من عيد الفصح، ويقيمون فيها كرنفالا متميّزا في عيد «بوريم»، ويتردّد المتفسّحون على بساتين الورد وعلى بعض المطاعم التي تخصصّت في الدّجاج المشويّ والاستسقاء من بئر بلحسن، ثمّ تكون العودة إلى تونس بعد هذه النّزهة الرّائقة.

وتواصلت هذه العادات للنّزهة وتناول هذه الأكلات المخصوصة إلى عهد غير بعيد. ثمّ اضطلعت أريانة بوظيفة أخرى جديدة وهي أن أصبحت مركزا استشفائيّا. ويعود ذلك إلى أواخر القرن التّاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وذاع صيت أريانة منذ الحين بما يجده فيها العليلون ومن توعّكت صحّتهم من شفاء عاجل بسبب هوائها النقيّ في حقول الزّيتون الشّاسعة وشرب ماء بئر بلحسن الّذي يتداوى به من أمراض الكلى. وشاع في النّاس شرقا وغربا ذلك المثل السّائر: «لو كان أريانة فيها بحر ما يمشي أحد للقبر».

والقول يشير إلى أنّ هذه البلدة تتوفّر على بيئة سليمة الهواء ونقيّة إلى حدّ أنّه لا ينقصها إلا البحر لتصبح في منتهى الكمال إلى جانب ما توفّر لها من كمال الجمال. ولقد حازت الكمال في كلّ شيء.

وزادتها شهرة أن أصبح الأطبّاء يرسلون إليها من المرضى من أصيبوا بالأمراض الصّدريّة وليس من باب الصّدفة أن ينشئ فيها يهود تونس العاصمة مارستان للأمراض العقليّة، وأضيفت إليه سنة 1938 دار العجّز. ثمّ أسّست فيه كتابة الدّولة للصّحّة العموميّة والشؤون الاجتماعيّة سنة 1956 مستشفى للأمراض الصّدريّة، خاصّا بالأطفال. وكان ذلك على مرتفعات الجهة الشّماليّة الغربيّة من مدينة أريانة. ويمثّل المستشفون مع عائلاتهم قرابة خمسمائة، قبيل الحرب العالميّة الثّانية، يضافون إلى السّكّان الأصليّين للمدينة. ويمكن القول إنّ أريانة مثّلت مركزا استشفائيّا هامّا لسكّان تونس خاصّة من اليهود. وقد تفشّى فيهم مرض ذات الصّدر إثر الحرب العالميّة الثّانية وذلك قبل استحداث العلاج بالأدوية الحديثة والمضادّات للجراثيم.

ودون أن تفقد أريانة وظيفتها كمنتزه وكمركز استشفائي وهي الّتي بدأت تتقلّص شيئا فشيئا، فانّها استبدلت ذلك بوظيفة جديدة وهي أن أصبحت ضاحية سكنيّة تتّسع يوما بعد يوم لتحتضن لا الموسرين من سكّان العاصمة ممّن بنوا القصور والدّور الفخمة فيها فحسب إنّما انضاف إليهم أعداد أصبحت تتكاثر مع الزّمان لتجعل من أريانة، بانتهاء الحرب بدءا من سنة 1945 ضاحية مترامية الأطراف قصدها للاستقرار فيها عائلات كثيرة من الموظّفين الأروبيّين والأسر التّونسيّة التي ما كان لها لتغادر العاصمة لولا ضيق المساكن فيها وغلاء الكراء وتداعي المنازل في أكثرها للسّقوط إثر الحرب.

وبمقتضى هذه الهجرة العارمة لسكّان العاصمة إلى الضّاحيّة القديمة الجديدة أصبحت مدينة أريانة تتطلعّ إلى مستقبل جديد أيضا، وتتشكّل ضمنه وظائف اجتماعيّة جديدة لهذه المدينة النّاهضة لتحوي مجموعة سكنيّة متنوّعة الآفاق من جهة، ومتعدّدة الحاجيات من جهة أخرى. وأصبحت مدينة أريانة تتصدّر لمسؤوليات جديدة وثقيلة الوطأة؛ فكان لا بدّ من إرساء إدارة مركزيّة تشرف على تنظيم حياة المتساكنين في هذه المدينة الّتي تبدو وكأنّها قد بعثت من جديد، وكان لا بدّ من بعث أسواق متنوّعة الاختصاصات لتلبية حاجيات المواطنين ومن إقامة مصالح إداريّة ومؤسّسات تربويّة وصحيّة واجتماعيّة. وتشهد سنوات ما قبل الاستقلال (1956) انبعاث مدينة اكتملت فيها كلّ المرافق لحياة عصريّة منظّمة يجد فيها كل المتساكنين على مختلف أعمارهم جميع ما يساعدهم على الارتقاء والعيش الكريم.

وتواصل نفس الارتقاء لمدينة أريانة منذ ذلك التّاريخ ولا نخاله قد تمّ إلى اليوم إذ نرى إلى حدود هذا التّاريخ ميلاد أحياء جديدة تزيد في اتّساع رقعة المساحة البلديّة وقد بلغت 118.000 هكتارا ولا يمكن أن نقول انّ هذه المساحة قد بلغت منتهاها.

ومن المعلوم أن مدينة أريانة قد تهيأت إلى هذه الوظيفة السّكّانية الجديدة منذ بداية القرن فقد تزوّدت المدينة بالنّور الكهربائي منذ 1912 عن طريق الخطوط الواصلة إليها من المولّد بحلق الوادي. ووصلها أنبوب الماء سنة 1920 بمجرّد أن وضعت الحرب العالميّة الاولى أوزارها، وقد بني للغرض خزّان للماء في أعلى رابية تطلّ على المدينة، وتتزوّد في بادئ الأمر من ماء زغوان الذي لم يعد يغطّي حاجيات السّكان. وبمجرّد انتهاء سدّ وادي اللّيل استكملت المدينة مستلزماتها من الماء بقناة جديدة وإن واصل بعض السّكّان التزوّد من بئر بلحسن التي أصبحت من ممتلكات البلديّة بعد أن أهداها صاحبها من عائلة «كوفوبولو» Covoupoulo اليونانية الأصل والفرنسيّة الجنسيّة، وكان واحد من هذه العائلة نائبا لرئيس البلديّة المساعد السيد «موتّان» Moutton (من سنة 1935 إلى سنة 1938)، وكان رئيس البلديّة كما جرت عادة الحكومة التّونسيّة آنذاك، قائد الاحواز السيّد الحبيب الجلولي الذي أصبح وزيرا أكبر للباي فيما بعد.

وتسديدا لحاجيات سكّان مدينة أريانة من اللّحوم بني المسلخ البلدي في جهتها الشّرقيّة سنة 1934 وقبل نشأته كان الذّبح يقع في أرض مهملة بمكان يدعى برج الدّنّوني أوفي محلاّت خاصّة هيّئت بصفة عرضيّة للغرض.

وفي سنة 1936 أصبح لمدينة أريانة قنوات لتسريب الفضلات والمياه المستعملة. ولكن إلى حدود سنة ستّين وتسعمائة وألف، لم يصلها الغاز من معمل فرنس فيل بالعمران.

وفي سنة 1910 أصبح لمدينة أريانة خطّ التّراموّاي (Tramways) يصلها بمدينة تونس العاصمة، وقد كان السّكّان يتنقلون بعربات ضخمة تجرّها خيول (Omnibus à chevaux) وبدءا من شهر فيفري 1960 عوّضته الحافلات الّتي تنقل السّكّان ذهابا وإيّابا بين تونس وأريانة وزال خطّ التّراموّاي.

وكان لا بدّ من إيجاد مرافق لتزويد السّكّان الذين أصبحوا يتزايدون مع الأيّام، بكلّ ما يحتاجون إليه من الخضر والغلال، فأسست مصالح بلديّة أريانة السّوق المركزيّة سنة 1945 وسط ساحة متّسعة من المدنية العتيقة. ومن الملاحظ أنّ السّكّان الأصليّين لمدينة أريانة لم يكونوا في حاجة إلى هذه السّوق لولا قدوم هذه الأسر الكثيرة التي عمّرت أريانة ووسّعت في طاقتها العمرانيّة، ذلك لأن هؤلاء السّكّان الأصليّين كانوا في جلّهم من ملاّك البساتين التي كانت تزوّد العاصمة بشتّى أنواع البقول والثمار والحبوب، وإنتاجهم الفلاحي مرغوب فيه لجودته المتميّزة ونكهته المعروفة لدى سكّان العاصمة، ويكفي أن نذكر بطيخ جعفر الذي طبّقت شهرته البلاد.

تحول نوعي في العمل البلدي بأريانة

وجّه **سيادة رئيس الجمهوريّة زين العابدين بن علي** عنايته بالعمل البلدي وركّز في العديد من المناسبات على دعوة المسؤولين، في جميع مستويات الدّولة، لإيلاء وظيفة البلديّة كل ما تستحقّه من تنظيم وتطوير، إذ بها يضمن المتساكنون حياة أفضل ويتحقّق الرقّي المطّرد في الميادين الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة للمجتمع في كامل أنحاء البلاد التّونسيّة. ونقتطف فقرة تبرز هذه النّظرة التّقدّميّة الّتي توضّح مسار برنامج السّياسة الإنمائيّة الحكيمة الّتي ارتآها سيادته في العمل البلدي ووضّح نتائجها المخطّطة في صلب النّماء الشّامل للبلاد. وقد وردت كلمته في الخطاب الّذي اختتم به ندوة الولاة في يوم السّبت 14 ديسمبر 1996:

«إنّ العمل البلدي من أسس التّقدّم بمقوّمات حياة المواطنين ومشاركتهم في رسم معالمها وتجسيم الدّيمقراطيّة المحليّة. وقد حقّق هذا القطاع تحوّلا نوعيّا عميقا بفضل الإجراءات والمبادرات المتتالية التي شملناه بها، فتمّ التّخفيف من الإشراف المباشر على البلديات وتطوير طرق التّصرّف بها وتعصير وسائل عملها. كما مكنّاها من تنمية مواردها البشريّة بالتّكوين والرّسكلة ودعم إمكانيّاتها الماليّة بما يخدم الأهداف ويحقّق المرونة والعدالة والموضوعيّة».

إنّ العمل البلدي في مدينة أريانة انصهر في هذه السّياسة الإنمائيّة الشّاملة، وشهدت المساحة البلديّة على امتدادها تطوّرا كبيرا في جميع المجالات، وهذا لا يخفى على كلّ من تجوّل في أرجائها. واعتمد هذا العمل البلدي أساسا على الإعلام وتبادل الخبرات وتكاثف المجهودات قصد النّجاعة في تحقيق الأهداف المرصودة. والقاعدة المثلى للنّجاعة الّتي تحقّقت مرحليّا في بلديّة أريانة ارتكزت على تكثيف اتّصالات أعضاء المجلس البلدي بالمواطنين في زيارات ميدانيّة وإطلاعهم على مخطّطات البلديّة ومشاريعها، واتّسمت هذه الاتّصالات بروح الانسجام والتّعاون. واستدعى إنجاز المشاريع البلديّة ـ في هذه الفترة النيابيّة ـ ضبطا دقيقا للأولويّات في تلبية الحاجيات الّتي يتطلّع إليها المواطن.

وأشرف أعضاء مجلس بلديّة أريانة على تأطير النّقلة النّوعيّة في ظروف عيش المواطن بدءا من ترقية محيطه وتعصير الخدمات المقدّمة إليه المتمثّلة في:

- تعبيد الطّرقات وترصيفها
- تحسين مداخل مدينة أريانة ومواصلة تجميلها
- إحداث المناطق الخضراء
- تركيز شبكات التّطهير
- توسيع التّنوير العمومي
- مدّ قنوات الماء الصّالح للشراب
- إحداث المرافق الشبابيّة (من رياضيّة وثقافيّة)
- إنجاز المشاريع الاقتصاديّة وتنظيم الأسواق القديمة وفتح أسواق جديدة تلبية للطّلبات المتزايدة وتخصّص المبيعات.

وتبقى قاعدة العمل لدى كلّ أعضاء المجلس البلدي خدمة المواطن الّتي هي أساس نشاطهم ومحوره. وتبقى النّظرة السائدة عند المسؤول البلدي في أخلاقيّاته وفي سلوكه هي تحقيق الأولويّات وتلبية الحاجيات التي يتطلع إليها المواطن في تفان بغير حدود وبتطوّع لا يعرف التّوقف.

ولكنّ المواطن في هذا المضمار مدعوّ من جهته إلى المبادرة بالمشاركة مباشرة في العمل الميداني. ومن وجوه المشاركة الانضمام إلى حملات التّنظيف والعناية بالبيئة بدءا من مسكنه وحيّه.

وشهدت المساحة البلديّة بأريانة تطوّرا عمرانيّا لم يسبق له نظير منذ بداية المدّة النيابيّة الحاليّة (2000 ـ 2005) تمثل خاصّة في امتداد أحياء جديدة ونذكر على سبيل المثال أحياء النّصر والأندلس وأريانة العليا. وتطلب ذلك إرساء التّجهيزات الأساسيّة للمدينة المتمثّلة في الحاجيات العمرانيّة الضّروريّة من تعبيد الطّرقات والتّنوير والنّظافة والتّطهير... ولتحقيق هذه الإنجازات الكثيرة في آن والمتنوّعة في تصنيفها استلزم الأمر تعصير المعدّات البلديّة الخاصّة بكلّ قطاع، وكذلك إدخال الهيكلة اللاّزمة من حيث تنظيم الإدارة وتركيز المصالح. وذلك قصد «تطوير طرق التّصرّف وتعصير وسائل العمل» من جهة، وكذلك بدافع إدخال الطّرق الملائمة للعمل العصري مستهدفين في ذلك الجدوى والسّرعة في الإنجاز مع ضمان الجدوى والإتقان. ونذكر على سبيل المثال إدخال الاعلاميّة في أجهزة الإدارة.

وزيادة في إحكام الجدوى في التّحكم في المدّ العمراني وقع الحرص على إعداد مثال التّهيئة العمرانيّة درءا لمشاكل الملكيّة العقّاريّة وما ينتج عنها من تأخّر في تسليم رخص البناء لطالبيها في المواعيد القانونيّة وحسما من جانب آخر للبناء دون مخطّطات بلديّة مسبّقة ممّا يعقّد الحياة المنّظمة ويدخل الفوضى في المشاريع الإنمائية للبلديّة. وأصبح لأريانة قدرة مشهود بها في حسم هذه المشاكل العمرانية وتجاوز كلّ تعقيد ظهرت بوادره في النّظام البلدي.

وشاركت بلديّة أريانة مشاركة فعلية في البرامج الوطنيّة القطاعيّة في ميادين النّظافة والعناية بالبيئة وتهذيب الأحياء وتطهيرها وخاصّة الشعبيّة منها. والبرامج في تواصل مطّرد ونذكر من أهمّها ـ وهو بصدد

الإنجاز دون توقّف ـ برنامج تجميل المدينة.

والمجلس البلدي الحالي ثابت العزم على إقرار أسباب نجاح التّوجّه الجديد الّذي أقرّته الدّولة وهو المتعلّق بالانتقال من مرحلة الإصلاح للمؤسّسة البلديّة في نطاق الإصلاح الشّامل قصد إدراك مرتبة الامتياز. وينتج عن هذا التّوق الجديد إلى الأفضل الارتقاء بحياة المواطنين إلى عيش متطوّر وملائم لتطلّعاتهم إلى نسق النّموّ في القرن القادم.

وارتكزت هذه النّظرة الجديدة في التّوجّه البلدي لسلطة الإشراف على إقرار العديد من التّراتيب والإجراءات منها ما يرتكز على إصدار العديد من القوانين التنظيميّة ومنها ما يتعلّق ببعض التّعديلات المتتاليّة لتسهيل العمل الإجرائي.

ونذكر من كلّ ذلك على سبيل المثال:

أ ـ تطوير صندوق القروض ومساعدة الجماعات المحلّيّة،

ب ـ إثراء القانون الأساسي للبلديّات بتنقيحات عمليّة أكثر التصاقا بالواقع الخصوصي للمناطق

ج ـ تعصير وسائل التّصرّف والإذن بتعميمها في جميع القطاعات،مع تكثيف العناية بالعنصر البشري وحسن تسيير الأرصدة والقدرات.

د ـ مراجعة التّنظيمات الهيكليّة بالبلديّة.

هـ ـ إصدار تشريع جديد تمثّله أحسن تمثيل مجلة الجباية المحلّيّة ومجلة التهيئة التّرابيّة والتّعمير.

و ـ إقرار مخطّطات بلديّة للاستثمار تنصهر ضمن المخطّط الوطني للتنميّة الاقتصاديّة والاجتماعيّة

ز ـ بعث الجامعة الوطنيّة للمدن التّونسيّة التي جمعت في عضويّتها كافّة بلديّات الجمهوريّة. ومن الأعمال الّتي تسهر على تحقيقها:

* الحثّ على إنجاز برامج مشتركة ومتوازية لتحقيق الرّقي الاجتماعي في الجهات ويندرج في البرامج الوطنيّة القطاعيّة في ميادين النّظافة والعناية بالبيئة.

* إيجاد التكامل والتّفاعل والتّناغم مع سلطة الاشراف على جميع مستواياتها وطنيّا وجهويّا.

* الدّعوة إلى مزيد البذل والتّفاني من جميع البلديات لتكريس الخيارات الوطنيّة فيما يخصّ المحافظة على المكاسب المنجزة والمزيد من خطوات النّجاح.

ومن مكاسب عهد التّغيير الّتي مكّنت بلديّة أريانة من التّوق إلى آفاق جديدة في مستوى طريقة العمل وضبط مخطّطات الإنجاز يمكن أن نذكر:

* إقرار مخطّط الانتدابات وتنفيذه بحسب حاجياتها العمليّة التي تستوجبها التّدخّلات الآنيّة القارّة أو الأعمال الظّرفيّة للمشاريع الكبرى في كلّ ما تستلزمه من الإطارات والأعوان سواء في السلك الإداري أو في المراكز الفنّية.

* إيجاد مرونة التّصرّف بين البلديّة وسلطة الإشراف فيما يتعلّق بالانتداب لجميع أصناف البلديين، فخوّل

2.أ صنف حدّ إلى الأعوان انتداب البلديّة لرئيس للبلديات الأساسي للقانون المنقح الجديد القانون

* عزم بلديّة أريانة على إدخال الإعلاميّة تدريجيًا في مجالات متعدّدة من الخدمات البلديّة مثل الحالة المدنيّة والتّصرّف في الأجور والتّصرّف في الميزانيّة والتّصرّف في المخزونات وفي مكتب الضّبط وفي الجباية المحليّة.

* تطوير العمل المستقبلي للبلديّة في نطاق تعصير الأساليب وطرق معالجة التّصرّف المالي وتدقيق المصاريف بإحداث المحاسبة التحليليّة.

* اعتماد بلديّة أريانة خوصصة خدمات التّنظيف ورفع الفضلات المنزليّة. وقد أدّى هذا التّعامل إلى نوعيّة جديدة في الخدمات البلديّة بدأت تتأكّد جدواها في التّقويم الأوّل لها. وأعضاء المجلس يواصلون متابعتها واستقصاء منافعها للمتساكنين بالتّشاور معهم وتقبّل مقترحاتهم.

* تدخّل المجلس البلدي في مراجعة مشمولات الدّوائر البلديّة السّبع الممثّلة لبلديّة أريانة والنّظر في طرق تسييرها مع إسنادها مشمولات جديدة تمكّن من تقريب الخدمات من المواطن كتكوين قباضة ماليّة. كما تمّ اتّخاذ العديد من الإجراءات من أجل التّخفيف في عدد الوثائق بالنّسبة إلى الخدمات التي يطلبها المواطنون وذلك قصد اختصار الأجال وتطبيق المخطّطات العمرانيّة في المواعيد المحدّدة إذ البلديّة مقدمة في عيدها التّسعين على الدّخول في مشروع طموح وشامل يتعلّق بتجميل المدينة. وقد ظهرت بوادر هذا العمل تتضح في تهيئة مداخل المدينة وتنظيم حركة المرور بعد بناء المحوّلات الجديدة للطّرقات المتوسّطة والسّريعة. ووفّرت هذه الإنجازات سهولة التّنقل خاصّة عند توظيف الطّريق السّريعة الحزاميّة التي سهّلت حركة المرور بمداخل المدينة من جهاتها الأربع وخفّفت هذه الطّرقات من ضغط المرور واحتباسه في مختلف ساعات النّهار.

انطلاقة جديدة للحياة البلدية بأريانة

عملا بمنشور السّيّد وزير الدّولة وزير الدّاخليّة عدد 46 المؤرّخ في 26 أوت 1992 والمتعلّق بالتّنظيم الهيكلي النّموذجي للإدارة البلديّة، واستجابة للتّطوّر الّذي شهدته الجماعات العموميّة المحليّة من حيث حجم العمل ومتطلّباته سعى المجلس البلدي الحالي إلى إقرار تنظيم هيكلي متطوّر ووافق عليه خلال دورته العادية الرّابعة لسنة 1995 المنعقدة يوم الخميس 21 ديسمبر 1995 وحظي هذا التّنظيم الهيكلي لبلديّة أريانة بمصادقة وزارة الماليّة بتاريخ 16 مارس 1996 وبمصادقة وزارة الدّاخليّة في 25 مارس 1996 .وهذا الهيكل البلدي متطوّر يستجيب لنظرة مستقبليّة في العمل البلدي بأريانة والمخطّطات التنمويّة الجديدة ويتضّمن الأبواب التّالية:

1 ـ الكتابة العامّة وتشمل :

* مصلحة التنظيم والإعلاميّة والأساليب

❖ مصلحة العلاقات الخارجيّة والإعلام

❖مصلحة شؤون المجلس والمكتب واللّجان

❖ مصلحة مكتب الضّبط المركزي

❖ مراقبة التّراتيب والشّرطة البلديّة

2 ـ خليّــــة التفقّــد

3 ـ إدارة الشؤون الإداريّة والماليّة والموارد:

وتشمل إدارتين فرعيّتين:

أ)الإدارة الفرعيّة للشؤون الإداريّة وفيها:

❖ مصلحة الموظّفين والعملة

❖ مصلحة التكوين والرّسكلة

❖ مصلحة السّلامة المهنيّة

❖ مصلحة الحالة المدنيّة والانتخابات

ب) الإدارة الفرعيّة للشؤون الماليّة وفيها:

❖ مصلحة الميزانيّة والقروض

❖ مصلحة الأداءات والاستخلاصات والموارد

❖ مصلحة المغازة

❖ مصلحة الشراءات والصّفقات

4 ـ إدارة الشؤون الاقتصاديّة والقانونيّة وتضمّ:

أ ـ الإدارة الفرعيّة للشؤون الاقتصاديّة وتشمل:

❖ مصلحة الأملاك المختلفة

❖ مصلحة الأسواق والتنميّة الاقتصاديّة

❖ مصلحة مستودع الحجز

ب) الإدارة الفرعيّة للشؤون القانونيّة وتشمل:

❖ مصلحة العلاقات العامّة وشؤون المواطن

❖ مصلحة الدراسات والاستشارات القانونيّة

❖ مصلحة النّزاعات والقضايا.

5 ـ إدارة الشؤون الاجتماعيّة والثقافيّة وتضمّ:

❖ **الإدارة الفرعيّة للثّقافة والرّياضة والشؤون الاجتماعيّة** وتشمل:

❖ مصلحة الطفولة والشّباب والتّربية

❖ مصلحة الرّياضة

❖ مصلحة التّنشيط الثّقافي والمهرجانات

❖ مصلحة الشؤون الاجتماعيّة والدّينيّة.

6 ـ الإدارة العامّة للمصالح الفنيّة وتضمّ ثلاث إدارات:

أ ـ إدارة الصّحة والنظافة وحماية المحيط وتشمل ثلاثة إدارات فرعيّة:

❖ **الإدارة الفرعيّة للتنظيف** وفيها:

❖ مصلحة التّنظيف

❖ مصلحة تسيير المصبّ

v**الإدارة الفرعيّة للوقاية وحفظ الصّحة** وفيها:

❖ مصلحة الوقاية الصّحيّة

❖ مصلحة مراقبة الموادّ الغذائيّة والمحلاّت العموميّة

❖ مصلحة البيطرة ومراقبة الإنتاج الحيواني

❖ مصلحة مقاومة التّلوّث

❖ **الإدارة الفرعيّة للبيئة والعناية بالمحيط** وفيها:

❖ مصلحة المناطق الخضراء

❖ مصلحة المنابت

❖ مصلحة العناية بالشّواطئ

ب ـ إدارة التهيئة والبنية الأساسية وتضمّ إدارتين فرعيّتين:

❖ **الإدارة الفرعيّة للدراسات والتّهيئة** وفيها:

❖ مصلحة الدراسات المعماريّة

❖ مصلحة رخص البناء والتّقاسيم وشهائد انتهاء الأشغال

❖ مصلحة التّهيئة العمرانيّة

❖ **الإدارة الفرعيّة للتجهيزات الأساسية** وفيها:

❖ مصلحة تعهّد الطّرقات والمرور

❖ مصلحة الأشغال الجديدة للطّرقات

❖ مصلحة الإنارة

❖ مصلحة الشّبكات التّحتيّة والتّطهير

❖ مصلحة المعدّات والورشات

ج ـ إدارة الأشغال وتضمّ إدارتين فرعّيتين:

❖ **الإدارة الفرعيّة للبناءات وفيها:**

❖ مصلحة الورشات وتعهّد البناءات

❖ مصلحة الأشغال الجديدة للبناءات

❖ مصلحة التّجهيزات الرّياضيّة

❖ **الإدارة الفرعيّة للتخطيط والمشاريع الكبرى وفيها:**

❖ مصلحة التّخطيط والدّراسات والتّنسيق

❖ مصلحة المشاريع الكبرى.

الخدمات البلدية وتقريبها من المواطن:

الدوائر البلدية

إنّ الهدف من إرساء هيكلة متطوّرة للإدارة البلديّة بأريانة منذ المصادقة عليها من سلط الإشراف في 16 مارس 1996 هو إدخال دفع جديد للعمل البلدي وتنظيم الخدمات في شتّى الميادين والسّهر على إنجازها بامتياز والارتقاء بحياة المواطنين اجتماعيّا وثقافيّا.

وإجتهد أعضاء المجلس الحالي في تمكين المتساكنين من الخدمات التي هم في حاجة إليها وذلك بتقريبها منهم والتّحكّم في القيام بها في أتمّ الظّروف عن طريق الدوائر البلديّة الّتي وقع تعصير العمل فيها ودعم إدارتها بالاطارات اللاّزمة من موظّفين وعملة. وكلّف بالإشراف على تسييرها عضو من المجلس البلدي يترأس مجلس الدّائرة الّذي يشارك فيه مواطنو المنطقة للتّباحث في جلسات دوريّة تنتظم لتدارس المخطّطات في ما يعود بالفائدة على الجهة.

وعدد هذه الدّوائر سبعة وهي على التّوالي بحسب تاريخ إنشائها:

دائرة المنــــازه	لمنـــــــاطق التّابعة لهــا
تاريخ إحداث الدائرة: 1982/9/24 تاريخ فتحها للعموم: 1983/3/10 عـــدد السّكّان: 24.615 عـدد المساكن: 7258 المساحة التّرابيّة: 891 هكتارا.	منطقة المنزه الخـــامس منطقة المنزه الســّادس منطقة المنزه السّـابع منطقة المنـزه الثـامن

دائرة روّاد	المنـــــاطق التّابعة لهـا
تاريخ إحداث الدائرة: 1982/9/24 تاريخ فتحها للعموم: 1985.8.01 عـــدد السّكّان: 16.507 عـدد المساكن: 4108 المساحة التّرابيّة: 2597 هكتارا.	روّاد - روّاد الشاطئ سيدي عمر - حيّ اليمامة- جعفر 1 و2 - الغـــزالة 2- النخيـــلات -حي الاذاعة حيّ ابن رشيق - حيّ النّصر

دائرة سكّرة	المنـــــاطق التّابعة لهـا
تاريخ إحداث الدائرة: 1982/9/24 تاريخ فتحها للعموم: 1983.5.3 عـــدد السّكّان: 23.174 عـدد المساكن: 5066 المساحة التّرابيّة: 1902 هكتارا.	سكّرة البريد - دار فضّال شطرانة 1 - سيدي صالح- شطرانة 2 - سيدي فرج- شطرانة 3-الزوايدية- جامع الرّوضة - سيدي سفيان

دائرة أريانـــة المدينة	المنـــــاطق التّابعة لهـا
تاريخ إحداث الدائرة: 1987.12.24 تاريخ فتحها للعموم: 1988.4.15 عـــدد السّكّان: 29.396 عـدد المساكن: 6396 المساحةالتّرابيّة: 578 هكتارا.	أريانة المدينة - أريانة الجديدة الجهة اليمنى من مدخل أريانة - الحي الشعبي - حيّ النزهة - حيّ المستقبل برج البكوش - حيّ النور- حيّ التعمير طريق روّاد كلم 1 طريق بنزرت حيّ الياسمين - حيّ ابن سيناء

دائرة بــرج الوزيــر	لمنـــــاطق التّابعة لهـا
تاريخ إحداث الدائرة: 24ـ12ـ1987 تاريخ فتحها للعموم: 4ـ3ـ1989 عــدد السّكّان: 29.772 عـدد المساكن: 6091 المساحة التّرابيّة: 852 هكتارا.	حيّ جيرة ـ حيّ المنصورة حيّ الفتح ـحيّ النسيم 1و 2 حيّ التعمير الخامس ـحيّ سيدي سفيان ـ حيّ الصّحة ـ حي المطار ـ حيّ ابن كيلاني ـ حيّ الحرة ـ حيّ الهناء ـ حيّ ستار ـ حيّ المنطقة الصناعية2ـ حيّ المرابط ـ حيّ السعادةـحيّ الورود.

دائرة أريانــة العليــا	لمنـــــاطق التّابعة لهـا
تاريخ إحداث الدائرة: 24ـ12ـ1987 تاريخ فتحها للعموم: 7ـ4ـ1988 عــــددالسّكّان: 16.683 عــدد المساكن: 4081 المساحة التّرابيّة: 852 هكتارا	أريانة العلياـ رياض الاندلس أريـانــة الجديـدة ـ الجهـة اليسرى من مدخل مدينة أريانة ـ برج التركي ـ الحيّ الشعبي الجهة اليسرىـ الغزالة 2 ـ المحرزية ـ النحليـ حيّ النقر 1-2

دائرة الغزالـــة	لمنـــــاطق التّابعة لهـا
تاريخ إحداث الدائرة: 16ـ12ـ1991 تاريخ فتحها للعموم: 31ـ3ـ1992 عــــدد السّكّان: 12.541 عــدد المساكن: 3303 المساحة التّرابيّة: 500 هكتارا.	الغزالة 1 و2 و3 ـ حيّ الجامع حيّ الأمل ـ حيّ النصر ـ حيّ السعادة 1 و2 ـ حيّ الصحافةـ جعفر 2 ـ النخيلات ـ تتقسيم بلخوجة ـ تتقسيم النسيم ـ تقسيم المواصلات ـ تقسيم ابن عثمان ـ حي السلام ـ وادي المخزن ـ تقسيم المرابط ـ وادي الخياط

معطيات جملية عن بلدية أريانة

ـ 1 عدد السّكان: 152,694

ـ 2 عددالمساكن: 36,303

ـ 3 المساحة الترابية للدوائر السّبعة: 8,172 هكتارا.

ـ 4 المساحة الجمليّة للبلديّة: 18,000 هكتارا.

أهم الإنجازات البلدية

في نطاق النّهضة الشاملة المتميّزة للعمل البلديّ وضمن النّشاط المكثّف الّذي أشرف على منطلقاته وإتمام أعماله أعضاء الحكومة، شهدت بلديّة أريانة حركة دائبة في إنجازاتها وتحقيق مشاريعها الإنمائية بلا هوادة ولا فتور. وفي نطاق هذا العمل الدّؤوب الّذي لم يسبق له نظير دبّت حركة نشيطة لكثير من البرامج، يستهدف منها أعضاء المجلس البلدي تحقيق البرنامج الإنمائى لمدينة أريانة على امتداد مساحتها البلديّة وفي كلّ دوائرها السّبع قصد إسعاد المواطنين في محيط تكتمل فيه ـ مع الأيّام ـ كلّ صفات التميّز من حيث نظافة البيئة وتعبيد الطّرقات وتبليط الأرصفة وبعث المنتزهات الخضراء وتنوير كلّ رقعة من المنطقة البلديّة وتهيئة المساحات العمرانيّة بكلّ ما تستجيب إليه الحياة الرّاقية وتقريب الخدمات من المتساكنين وتلبية ما يحتاجون إليه في أعمالهم أو في أوقات ترفيههم في مختلف الأنشطة ثقافيّة كانت أو رياضيّة أو غيرها.

ويمكن أنّ نذكر أهمّ الإنجازات الّتي استهدفها المجلس البلدي قصد الإرتقاء بحياة المواطنين وإسداء الخدمات الّتي تليق بالرّقي الذي وصلته بلادتا في عهدها السّعيد:

- بناء سوق بلدية ببرج الوزير، التكاليف 47.500 دينار
- تهيئة حي جميل بالمنزه السادس وتجميله بنافورة ماء، التكاليف 80.000 دينار
- تهيئة مدينة أريانة بتبليط الممرّات في المساحات الخضراء وإدخال التنوير، التكاليف 25.000 دينار
- تهذيب مدرسة النخيلات، التكاليف 10.500 دينار
- بناء محلاّت تجاريّة بالمركّب التّجارى والثّقافي بالمنزه الخامس، التكاليف 47.500 دينار
- بناء مركّب إداري وتجاري بحيّ الغزالة، التكاليف 155.000 دينار
- صيانة وتهذيب مقرّ البلديّة، التكاليف 150.000 دينار
- بناء دار الشباب بأريانة، التكاليف 16.000 دينار
- تسييج سوق الدّواب ببرج سيدي صالح، التكاليف 22.000 دينار
- بناء مكتبة عموميّة بشارع الطيب المهيري، التكاليف 85.000 دينار
- بناء سوق بلديّة بأريانة الجديدة، التكاليف 175.000 دينار
- توسيع روضة برج البكّوش، التكاليف 59.000 دينار

• بناء مقهى بمنتزه بئر بلحسن وتهيئة قاعة الاجتماعات وتهيئة جناح إداري وممرّ مغطىً يربط قاعة الاجتماعات الحالية ببناية القبّة ببئر بلحسن، التكاليف 242.000 دينار

• تهيئة القاعة العليا ببئر بلحسن وتجهيزها بمكيّفات هواء لتخصيصها للندوات والاجتماعات وذلك خلال سنة 1996, التكاليف 85.000 دينار

• تهيئة مدخل منتزه بئر بلحسن وإتمام السياج الخارجي وإحداث رواق خارجي وإنجاز قاعة الشطرنج وكان ذلك سنة 1997, التكاليف 30.000 دينار

• بعث متحف لورد أريانة، التكاليف 30.000 دينار

• تكوين منبت قار للورد والنباتات المتميّزة يمسح 3000 متر مربّع، التكاليف 160.000 دينار

• تجميل المدخل الشّمالي لمدينة أريانة وهو مشروع رئاسي، التكاليف 445.000 دينار

• إعادة بناء ضريح سيدي عمّار المعروفي بوسط المدينة في سنة 1994, التكاليف 90.000 دينار

• إنجاز مشروع ساحة سلا وتوأمتها مع مدينة «سلا» المغربيّة (قرب الرّباط)، التكاليف 160.000 دينار

وساهمت البلدية في إنجاز منتزه النحلي:

• تهيئة فضاء الاستراحة بمخيّم الصّنوبر
• بناء كراسي وطاولات ثابتة داخل المخيم
• تهيئة مركّب صحّي بجانب ساحة الألعاب
• إقامة سياج حول البحيرة الجبليّة.
• إيجاد مسلك صحّي داخل المنتزه
• تركيز عشرين وحدة ضوئيّة

التكاليف 60.000 دينار

• تهيئة شارع الحبيب بورقيبة بأريانة (القسط الأوّل)

• تبليط الأرصفة
• التنوير العمومي
• إحداث مناطق خضراء

التكاليف 200.000 دينار

• تهيئة شارع الحبيب بورقيبة بأريانة إلى ساحة مقر لجنة التنسيق بأريانة (القسط الثاني)

• تبليط الساحة وبقيّة الأرصفة بالجليز
• مدّ خطوط التّنوير
• إثبات حوافز الطريق
• أحواض الورود
• سلاّت المهملات على الجدران والأعمدة

التكاليف 100.000 دينار

• تجميل ساحة سيدي عمّار
• إحداث نافورة مياه

* تبليط الأرضية بالجليز
* تنوير الساحة
* مأوى مغطى للسيّارات

التكاليف 30.000 دينار

* بناء دار ثقافة بشطرانة، التكاليف 30.000 د
* تهيئة روضة عزيز تاج، التكاليف 17.000 د
* تهيئة مقبرة سيدي الجبالي
* تسييج المقبرة
* تركيب باب حديدي
* تعبيد الممرّات في الجبّانة
* إتمام بناء فضاء مغطّى لمواكب الدّفن
* إحداث نقاط إنارة داخل الجبّــانة
* تثبيت التّربة بجدار من الإسمنت المسلّح

التكاليف 80.000 دينار

* حديقة رياض المنازه بمساحة 3,5 هكتارات، بالمنزه السادس:
* صيانة الحديقة وتعهدها بصفة مستمرّة بواسطة المناولة
* تهيئة ملعب رياضي
* تشجير الحديقة
* تسبيح الحديقة
* المسالك الدّاخليّة
* النقط الضوئية
* أرضيّة الحديقة
* حاويات للنّظافة
* المقاعد العموميّة.

تكلفة المشروع 300.000 دينار

لا يخفى على أحد أنّ المشاريع البلديّة تواصلت في نطاق المخطط الإنمائي الشّامل وحسب القرارات التي اتخذها المجلس البلدي للنّهوض بأريانة إلى المستوى الأرقى وتماشيا مع سياسة الامتياز الّتي أذن بها سيادة رئيس الجمهوريّة في مؤتمر الامتياز. وتواصل تحقيق المشاريع المبرمجة في مواعيدها المحدّدة وبالدّقة اللاّزمة.

وفي نطاق البناءات البلديّة المبرمجة نذكر:

1 ـ بناء مستودع بلدي ببرج سيدي صالح. وتقدر تكاليفه بـ 700.000 د

2 ـ بناء مسلخ بلدي ببرج سيدي صالح. وتقدر تكاليفه بـ 1.050.000 د

3 ـ بناء مقرّ الدّائرة البلديّة بأريانة المدينة، بكلفة 250.000 د

4 ـ بناء مقرّ الدائرة البلديّة بالمنازه بكلفة 250.000 د، وتمّت الأشغال في الموعد المحدد خلال سنة 1998 .

أمّا فيما يتعلّق بالمشاريع البلديّة الأخرى فالعناية موجّهة إلى:

1 ـ إنجاز سوق الجمعة، بكلفة 200.000 د

2 ـ تهيئة ضريح سيدي عمّار، بكلفة 120.000 د

3 ـ تهيئة الملعب البلدي القديم، بكلفة 192.000 د

4 ـ تهيئة الملاعب بالأحياء التّالية:

ـ الغزالة
ـ أريانة العليا } التكاليف 210.000 د
ـ المنازه

5 ـ تجميل المناطق الخضراء، بكلفة 70.000 د

6 ـ تجميل المدينة وتهيئة السّاحات في مخطّط عمراني مضبوط بكلفة 100.000 دينار

7 ـ تهيئة القسط الثّاني في نطاق البرنامج الوطني لتهذيب الأحياء الشعبيّة عن طريق وكالة التّهذيب والتجديد العمراني. مثال ذلك: حيّ دار فضّال بتكلفة 1.500.000 دينار

معطيات بلديّة جديدة

بمقتضى الأمر الرّئاسي الصّادر في الرّائد الرّسمي بتاريخ 4 أفريل 2003 عدد 27 أدخل تحوير جذريّ على الهيكل العامّ لبلديّة أريانة وانبثقت عن هذا الأمر بلديّتان جديدتان هما بلديّة سكّرة وبلديّة روّاد. فأصبحت بلديّة أريانة تمسح 1846,476 هكتار، بنسبة سكّانيّة تقدّر بـ47,86 ساكن في الهكتار الواحد أي بـ4786 ساكن في الكلمتر المربّع. (انظر توزيع السّكّان حسب البلديّات والمساحة التّابعة لها في الجدول المصاحب).

ونقدّم أحدث أمثلة المخطّطات الاستثماريّة وما نتج عنها من تقويم للمشاريع المنجزة في بلديّة أريانة. وممّا يجلب انتباه المطّلع على هذه الجداول المعبّرة غزارة الإنجازات وكثرتها ثمّ إتمامها كاملة في التّواريخ المحدّدة. وهذا إن دلّ على شيء فانّما يدل على المتابعة المستمرّة والحرص على توفيتها حقّها في ضوابط زمنيّة دقيقة. وعند إعمال النّظر نتأكّد من أنّ السّير البلدي طويل النّفس، والعمل فيه لا ينقطع وهو بصفة تصاعديّة ولا يرى القائمون به حدود نهايته لأنّه بالفعل لا ينتهي ولن ينتهي. وكأنّما بلديّة أريانة ما تزال في طور النّشأة. والدّارس للوضع الاجتماعيّ العامّ في هذه البلديّة يتأكّد من أنّ النّموّ فيها مطّرد لا يقف والاتّساع العمرانيّ هو العامل الأساسيّ. وهذا ما يفسّر تعدّد المشاريع الرّئاسيّة في كلّ موضوع من العناوين البلديّة، ذلك لأنّ الميزانيّة الحاليّة وبمقتضى المداخيل التي تتوفّر من استخلاص الأداءات، لم تعد تفي بكلّ ما يغطّي كلفة المشاريع. وهذا لعمري نهضة عارمة تشهدها بلديّة أريانة كضاحية مركزيّة للعاصمة تونس ضمن النّهضة الشّاملة التي تشهدها البلاد. وهذه جميعا من مؤشّرات النّموّ وتطوّر نوعيّة الحياة في المسكن والرّياش والغذاء وطلب الوسائل الحديثة

للتّرفيه وهي تتطلّب الملاعب والمناطق الخضراء والمنتزهات وما يتبعها في إطار الكماليات والرّقيّ الاجتماعيّ والثّقافي بصفة عامّة. والنمّو في هذا النّسق هو دورة لا تنغلق وإنّما هو في حقيقته دوران لولبيّ لا ينتهي لفًا وصعودا.

توزيع السكان حسب البلديات و المساحة التابعة لها

البلديات	لسنة 1994	لسنة 2000	لسنة 2001	المساحة بالهكتار	نسبة السكان بالهكتار	نسبة السكان بالكلم2
أريانة	70.694	85.910	88.380	1.846,476	47,86 س/هك	4786 س/كلم2
رواد	27.845	39.400	42.459	7.458,977	5,69 س/هك	569 س/كلم2
سكرة	54.155	74.170	78.175	2.590,023	30,18 س/هك	3018 س/كلم2

المشاريع المنجزة خارج المخطط الإستثماري البلدي 1997-2001			
ع/ر	بيان المشروع	الكلفة	نسبة الإنجاز
01	طرقات و أرصفة	1200	%100
02	تهيئة ثلاثة ملاعب أحياء -1 بالمنازه -1 بأريانة العليا -1 بالغزالة	141	%100
03	المشاريع الإقتصادية -بناء سوق الجملة -بناء سوق بحي النصر -بناء سوق بالمنزه الثامن -إقتناء تجهيزات للمسلخ البلدي	 165 750 635 197	 %100 %100 %100 %100
04	تركيز مخفضات السرعة	175	%100
05	تجميل المدينة -تهيئة ساحة 7 نوفمبر -تجميل مدخل أريانة	 504 150	 %100 %100
06	إقتناء معدات -بزنامج 1997	1275	%100
	الجملة	5192	%100

تقييم المخطط الإستثماري البلدي 2001-1997				
ع/ر	بيان المشروع	الإعتمدات المزرجة بالمخطط	الإعتمدات المستغلة 1997-2001	نسبة الإنجاز
01	طرقات و أرصفة	6850	6850	%100
02	التنوير العمومي	750	750	%100
03	تجميل المدينة	500	500	%100
04	مشاريع إقتصادية -بناء سوق أسبوعية -بناء مسلخ بلدي	1200	1200 200 1000	%100 %100 %100
05	البناءات الإدارية -بناء مستودع بلدي -بناء دائرة بلدية بالمنازه -بناء دائرة أريانة المدينة	1400	1406 754 296 356	%100
06	بناء مكتبة عمومية بالغزالة	120	120	%100
07	إحداث ملعب حي برواد	30	45	%150

جدول تقييمي للمخطّط الاستثماري
البلدي العاشر إلى حد شهر ماي2004 (ألف.د)

القطاع	الكلفة الجملية	الاعتمادات التي تم استغلالها	نسبة الإنجاز	الاعتمادات المتبقية	النسبة %	الملاحظات
البنية الأساسية	**2136**	**1068**		**1068**		
-الطرقات و لأرصفة	1800	900	%50	900	%50	
-التنوير العمومي	200	100		100		
-تعهد وصيانة البنية الأساسية	136	68		68		
التهيئة و التهذيب	**464**	**216**	%47	**248**	%53	
-تجميل المدينة	464	216		248		
المشاريع الإقتصادية	**650**	**650**	%100	**0**	%0	
-السوق البلدي	650	650		0		
منشئات رياضية و شبابية وثقافية	**2245**	**0**		**2245**		
-مركب ثقافي	2000	0	0	2000	%100	بصدد تغيير صبغة العقار
-مكتبة عمومية	200	0	0	200	%100	تم تأجيله من طرف وزارة الثقافة
-ملعب حي	45	0	0	45	%100	تم العدول عليه من طرف وزارة الرياضة
إقتناء معدات	**766**	**729**	%95	**37**	%5	سيتم الاقتناء من طرف وزارة الداخلية في إطار الصفقة المجمعة
-اقتناء معدات نظافة	666	707				
-اقتناء معدات إعلامية	100	22				
البناءات الإدارية	**550**	**0**		**550**	%100	
-المستودع البلدي	150	0	0	150		
-دائرة بلدية	400	0	0	400		بصدد الدراسة
الدراسات	**240**	**183**	%76	**57**	%24	
الجملة	**7051**	**2846**	**%40**	**4205**	**%60**	

برنامج الاستثمار البلدي 2002-2006
ببلدية أريانة

المشروع	الكلفة أ.د	تمويل ذاتي أ.د	قرض أ.د	مساعدة أ.د	م. أخرى أ.د	2002	2003	2004	2005	2006
تعبيد الطرقات	1200	360	444	396			300	300	300	300
مد الأرصفة	600	180	222	198			150	150	150	150
التنوير العمودي	200	60	74	66			50	50	50	50
تعهد وصيانة البنية	136	40,800	50,320	44,880			34	34	34	34
تجميل المدينة	464	139,200	171,680	153,120		200	38	98	128	
السوق البلدي	650	260	390			350	300			
تجهيزات شبابية و ثقافية	2245	404,750	404,750		1435,500	45		2200		
-مركب ثقافي	2000	360	360		1280			2000		
-مكتبة عمومية	200	36	36		128			200		
-ملعب حي	45	8,750	8,750		27,500	45				
إقتناء معدات	766	214,480	551,520				186	150	150	280
-معدات إعلامية	100	28	72				30	20	20	30
-معدات نظافة	666	186,480	479,520				156	130	130	250
البناءات الإدارية	550	275	275				100	50	400	
-المستودع البلدي	150	75	75				100	50		
-دائرة بلدية	400	200	200						400	
الدراسات	240		240			120	60	60		
المجموع	7051	1934,230	2823,270	858	1435,500	715	1218	3092	1212	814

ع /ر	بيان المشروع	الاعتمادات المدرجة بالمخطط	الاعتمادات المستغلة 1997-2001	نسبة الإنجاز
080	اقتناء معدات	1000	1130	%113
9	تهذيب الأحياء الشعبية	1773	1804,6	%102
	حي البستان 2	226	226	
	حي دار فضال	1547		
	قسط (1)		916,600	
	قسط (2)		662,000	
	الجملة	13.623	13.805,6	%101,3



منظر مدخل منتزه النحلي - أريانة



مركز سكني رياض الأندلس









صورتان2و3
حديقة في تقاطع طرق بالمنزه السادس

صورتان:1و4
مفترق مستشفى محمود الماطري







مقام الولي المجاهد سيدي عمّار يصدد التهيئة بأمر رئا سي





شارع الحبيب بورقيبة وتظهر على الصورة بلدية أريانة المدينة



شارع الهادي نويرة بالنصر





شارع الهادي نويرة بالنصر

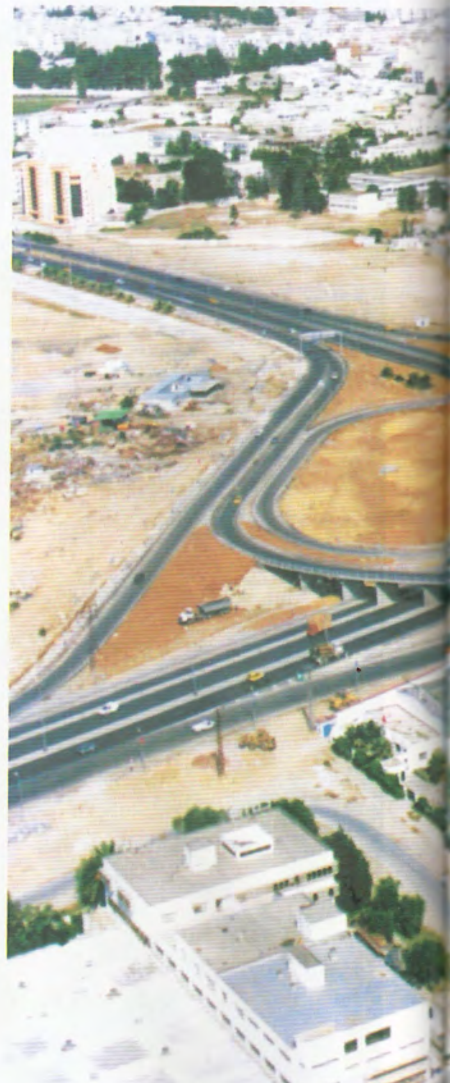


شارع علي بالهوان



المحولات بأريانة






تهيئة الطرقات بأريانة المنزه السابع



الطريق x 20



السوق المركزية بأريانة بعد إعادة تهيئته



ساحة 7 نوفمبر بالمنزه السادس

مدينة أريانة في المسار الحضاريّ:

تعدّ مدينة أريانة من أبرز المدن التّاريخيّة التّونسيّة نظرا لما تشتمل عليه من المعالم العتيقة. وإنّ ما تضمّنته من المواقع يدخل ضمن المكتسبات التّراثيّة التي تمثّل كنوز بلادنا الموروثة عبر السّنين في تريخها الطويل.

إنّ صيانة هذه المكاسب من كلّ ما يتهدّدها بالإتلاف والاندثار يدخل أوّلا ضمن عمل وطنيّ مقدّس، ثمّ إنّ القيام عليها وتعهّدها بالعناية في مرحلة ثانية، إن هو إلاّ عمل ثقافيّ يستدعي إرساء سلوك حضاريّ جماعيّ وتربية حسّ مدنيّ في الضّمير الفرديّ حتّى يصبح كلّ فرد متعلّقا بهذا الموطن معتزّا بالانتماء إلى ماضيه عاملا على تطوير حاضره وإرساء أسس صحيحة لمستقبله. فيصبح، في نهاية الأمر، كلّ جزء من مدينته هو جزء من ممتلكاته يذود عنه كما يذود عمّا في حوزته من أعلاق تليدة تربط حاضره بماضيه وتجعله في حوار مستمرّ بلا انقطاع مع أمجاده وجذوره، ذلك لأنّ هذه النّفائس من تراثه تمثّل جزءا من شخصيّته. فلا بدّ حينئذ من هذا الحوار الصّامت المتكلّم بلغة غير اللّغة المعهودة لأنّه يثري الشّخصيّة الفرديّة ويوقظ الضّمير الجماعي فيربط الماضي بالحاضر في داخل النّفوس ويبني جسور التّواصل قصد تبيّن ملامح المستقبل واستشرافه وتعديله بما يضمن الأصالة والتّجذّر مع التّفتّح واتّباع سنّة التّطوّر والحداثة.

وفي هذا السّياق الحضاري تأسّست جمعيّة المحافظة علي المدينة العتيقة بأريانة يوم 11 ماي 1984 وهي تهدف إلى المحافظة على التّراث والتّعريف به ثمّ القيام بالأنشطة الثّقافية التي تنمّي لدى المواطن واجب العناية بالمعالم الأثريّة في المدينة العتيقة والسّهر على المحافظة على طابعها التّونسيّ الأصيل تجنّبا للمسخ أو الانقراض.

وفي السّياق التّحسيسيّ، شاركت جمعيّة أريانة للمحافظة على المدينة العتيقة في عدّة ملتقيات نظّمتها جمعيّات المدن التّاريخيّة. فالأوّل كان بتونس سنة 1990 والثّاني بصفاقس والثّالث بجربة. وأمّا الملتقى الرّابع فانّه انتظم في يوم 29 ماي 1992 بأريانة بقصر البكّوش وكان موضوعه: «التّشريع التّونسيّ في مادّة صيانة المدن والمعالم». ويهدف هذا الملتقى بصفة خاصّة إلى خلق الوعي بقيمة التّراث وأهميته وإلى التّباحث في تنظيم المدوّنة القانونيّة لصيانة المدن التاريخيّة ثمّ إرساء الأرضيّة الثّقافيّة الملائمة للعمل الفنّيّ والتّقني، وخاصّة القانوني الذي يضمن الصّيانة والتّدخل وربط كلّ ذلك بالأسس القانونيّة العامة التي تنادي بتطبيقها على المستوى العالمي بصفة فعليّة وميدانيّة منظّمة اليونسكو.

وساعد على إنجاح هذا الملتقى كلّ من الولاية وبلديّة أريانة والمندوبيّة الجهويّة للثقافة والمعهد الوطني للتّراث وجمعيّة معالم ومواقع. والتّوصيّات التي صدرت عنه كانت النّواة الأولى لإصدار «مجلة التّراث» وفيها دعوة ملحّة لصيانة الآثار وكلّ ما يمتّ إلى التّراث بصلة. وهو في مجموعه دعوة إلى إرساء سلوك حضاريّ جديد يتمثّل في الوفاء للماضي وفي تأمين أسس المستقبل قصد تجنّب الانبتات والتّنكّر للجذور. وفي هذا الملتقى من دعم لقواعد التّواصل في مجالات الفكر والفنّ والمعمار ما يضمن إثبات مقوّمات الهويّة الوطنيّة لدى كلّ فرد من المجتمع. فمن أجل هذه الأهداف المرموقة تعدّ مثل هذه

النّدوات مسألة حضاريّة دقيقة ترمي إلى ترسيخ مفهوم الصّيانة للمكتسبات حتّى يتواصل نفسها وتتعايش أساليبها في المنشآت الجديدة بالتّوليد وتلوين الابتكار ولا يكون ذلك إلاّ بالإبراز والتّعريف والتّوظيف. وفي نطاق هذا المسار الحضاري الجديد لمدينة أريانة توجّه السّيّد رئيس بلديّة أريانة إلى **سيادة رئيس الجمهورية** يوم السّبت 3 نوفمبر 2002، عند إشرافه على الجلسة الممتازة للمجلس الجهوي لولاية أريانة بكلمة جاء فيها:

«سيادة الرّئيس، إنّ معين التّعبير لا ينضب، وإنّ عطف سيادتكم موصول لا ينقطع وفي إطار ما تلمسه دوما من سيادتكم من حرص على صيانة التّراث باعتباره جزءا من حضارة تونس، اسمحوا لي يا سيادة الرّئيس أن أرفع إليكم التماسا من كريم عنايتكم للمدينة العتيقة بأريانة التي تحتاج إلى مزيد من الصّيانة والتّعهّد راجين من سيادتكم التّفضّل بالإذن بمساعدة بلديّة أريانة على إنجاز برنامجها في هذا الصدد».

عيـــد الورد بأريانـــة:

اقترنت مدينة أريانة وربوعها بأزهار الورد في الذّاكرة الجماعيّة بكامل البلاد. ويعود ذلك إلى عهد بعيد قد يتجاوز ثلاثة قرون منذ بداية الهجرة الأندلسيّة. وتنسب العناية ببساتين أريانة إلى هذه الأفواج المهاجرة من العدوة ا الأندلسيّة التي قدمت إلى البلاد التّونسيّة قبل سقوط مدينة غرناطة سنة 1492 للميلاد، وتعاقبت عليها واستقرّت في العديد من القرى كأريانة وغيرها من المواطن التّونسيّة كقلعة الأندلس وتستور وسليمان وبلّي وغار الملح ومنزل جميل وبنزرت. واستطاب أفراد هذه الجاليات العيش في أماكن قد تشبه مواطنهم الأصليّة، واستبشروا بما وجدوه من حسن الاستقبال وقصدوا تونس هاربين بدينهم وعرضهم وأموالهم من طغيان المتسلّطين عليهم من سكّان المدن المسيحيّة بشمال شبه الجزيرة االإيبيريّة (إسبانيا) وقد عُرفوا بحذقهم في شتّى فنون المعمار وفي مختلف علوم الفلاحة والبستنة. واشتهروا بذوقهم الرّفيع في زراعة الأزهار واستخراج عطوراتها وخاصّة الورد بمختلف أنواعه. وركّزوا عنايتهم خاصّة على واحدة من هذه الورود هي التي عرفت بها أريانة ومنها يستخرجون عطرا مخصوصا استعملوه في شتّى أكلاتهم وفي حلوياتهم التي تعلّموا صناعتها وبرعوا في تصنيفها في أرضهم الأصليّة وتوارثوها جيلا بعد جيل. وكانوا يقيمون الحفلات عند جني هذه الوردة المخصوصة ويحتفون في دورهم الرّيفيّة وفي داخل البلدية أيضًا بتقطير هذه الزّهرة التي أصبحت عنوانا لفصل الرّبيع عندهم. وتفنّنوا في استخراج مائها ويعرف عندهم بروح الورد أو عطر الورد. وتكثر الزّغاريد والحفلات والأهازيج في البيوت بهده المناسبة. فهو عرس الورد.

لكنّ هذه التّظاهرة الفلاحيّة في كامل الجهة تتّخذ في بعض الفترات صفة المهرجان. ثمّ تقلّصت مع الأيّام إلى أن أصبحت محدودة لا نراها إلاّ في بعض الدّور وعند بعض العائلات حتى تحرّكت همم بعض المسؤولين فبعثوها من جديد وجعلوها طابعا مميّزا للجهة كما كان الأمر في سالف الأزمان. وبهذه الصّفة قرنوا ماضي أريانة بحاضرها في الاحتفاء «بورد أريانة الذّي يوقظ راقد الجبّانة» حسب المأثور من الأمثال في الحافظة الشّعبيّة. وأصبحت هذه التّظاهرة عيدا يحتفل به في كلّ موسم سنويّ وهو اليوم

عيد الورد بأريانة.

بدأت هذه التّظاهرة في ربيع سنة 1982 في كامل المدينة. وأخذت منذ بدايتها صبغة مهرجان سنويّ، لكنّه ـ ككلّ بداية ـ محدود الإشعاع والمدّة. ثمّ أخذت الظّروف الملائمة تتهيأ. ودخل هذا الاحتفال في مسيرة المدينة التّنمويّة، وأصبح لدى سكّان أريانة رافد اعتزاز بماضيهم وبذاكرة مدينتهم. وأخذ هذا العيد مكانه المرموق في الموروث الثّقافيّ، وانسجم مع مكوّنات المدينة في الحافظة الجماعيّة، واستعاد أهمّيّته في الوعي العامّ لدى المتساكنين قديمهم وحديثهم.

وتوفّرت لعيد الورد ما يستوجبه من الرّعاية لدى السّلط الجهويّة من ولاية وبلديّة وجمعيّات ومؤسسات وتدرّج إلى حدّ هذه السنّة (2004) بصفة منتظمة إلى دورته الثّامنة. ونذكر تواريخ الثّلاثية الأخيرة منها على سبيل المثال:

- الدّورة السّادسة من 28 أفريل إلى05 ماي 2002
- الدّورة السّابعة من 30 أفريل إلى05 ماى 2003
- الدّورة الثّامنة من08 ماي إلى 16 ماي 2004

إنّ دورات مهرجان الورد تسير على درب التّقدّم وعلى ما تستوجبه النّوعيّة قصد الأرقى والأحسن وهي تكتمل وتنضج من دورة إلى أخرى.

ويمكن القول اليوم إنّ عيد الورد بأريانة أصبح تظاهرة مميّزة للمدينة بلغت أصداؤها حدودا بعيدة من بلادنا وإنّ الاحتفال به بلغ بلدانا أخرى على حوض البحر المتوسّط عرفت هي الأخرى باهتمامها بالورود والزهور والرّياحين المتنوّعة. ولا أدلّ على ذلك من مشاركة وفد من مدينة قراس الفرنسيّة في كلّ عيد للورد وهي المدينة المتوأمة مع أريانة.

وحرص القائمون على عيد الورد اليوم، على بعث جمعيّة عيد الورد منذ سنة 2001 وقد نشر التّنصيص عليها بالرّائد الرّسمي عدد 64 بتاريخ 28 مارس 2002 في صفحة 1406 .

تأسيس جمعيّة ثقافيّة: اسم الجمعيّة: عيد الورد بأريانة

تصنيف الجمعيّة: جمعيّة ثقافيّة فنيّة

المقرّ الاجتماعي: منتزه بئر بلحسن بأريانة

وصل الإيداع: عدد 113 بتاريخ 17 مارس 2001

رئيس الجمعية: عيسى البكّوش: 2001.GO 842 APSB1

وفي نفس السّياق وإلى جانب جمعيّة عيد الورد بأريانة نذكر جمعيّة أحبّاء الورد التي بعثت سنة 1991 وهي التي لها أنشطة هامّة في ربط العلاقات مع الخارج.

وخلاصة القول إنّ عيد الورد بأريانة أضحى فعلا تقليدا راسخا في أذهان المتساكنين يربطهم بماضيهم العريق وفيه تلتقي مختلف الفنون. وهذا العيد يذكّي فعلا الحياة الثّقافيّة وينمّي الحركة الاقتصاديّة في المدينة.

وهو ككلّ تظاهرة جماعيّة تطمح إلى الارتقاء الحضاري لمدينة أريانة في سلوك أهلها وفي أفراحهم الدّائمة مع ربط صلتهم بماضيهم وتطوير حاضرهم وبناء جسور التّواصل لاستشراف مستقبلهم.





الخاتمـــة

إنّ هذه الصفحات التي كتبتها عن أريانة لا يمكن أن أصل بها إلى حدّ الاستقصاء والاستيعاب لكلّ ما يمكن أن يقال عن مدينة يتّسع أمد أخبارها وأرجاء الأحداث التي عاشتها في الذّاكرة التّاريخيّة طيلة أحقاب قد تجاوزت الألف سنة ضمّت في مطاويها كنوزا من المعارف والأسرار قد تكون منطلقات لأبحاث وأطروحات جديدة تنير السّبيل قصد فهم معمّق لتاريخ وطننا. ولا يمكن بأيّة حال أن نصل إلى الإحاطة بصفة كلّيّة بجميع مكوّناتها. فكلّما استزدت من البحث والتّوسّع في جمع الوثائق والنّظر المتبصّر في شتّى المصادر والمراجع انفتحت أبواب جديدة قد تضيق وقد تتّسع شأن كلّ عمل فكريّ يستدعي التّأنّي وحسن النّظر، فألجأ إلى الاكتفاء أحيانا برسم الخطوط العريضة والاكتفاء على حساب التّفاصيل والجزئيّات بخلاصة واضحة للمعاني العامّة التي يفرضها البحث ويشير إليها دون خلل أو تعسّف أو إهمال.

والحديث في شؤون مدينة أريانة جديد متجدّد في كلّ حين، ناهيك باسمها وتفسيره وإرجاعها إلى أصولها في مراحل النّشأة والتّكوين أو الانبعاث والازدهار. فالقول فيها ممتع وهنا تكمن لذّة البحث كمن يستكشف كنوزا مستعصية يتحكّم فيها طلسم يستدعي استكناه سرّه وفتح مغالقة. وحدّث ولا حرج عمّن عاش في أريانة من أعلام بلادنا أو عمّن نوّهوا بمحاسنها وأمجادها وجمالها في أبلغ الأشعار وأعذب الكلام.

إنّ مكوّنات سيرة هذه المدينة مغرية بقدر ما هي مستعصية، لأنّها بعيدة المنال، مبعثرة هنا وهناك دونما سلك يجمعها أو عقد يضمّها كأنّها الدّرر الثّمينة التي نثرتها يد الزّمان أو دسّتها من بين خباياه في ما ضمّ من كنوز عزيزة وأعلاق رفيعة.

فإذا قدّم هذا الكتاب صورة عن مدينة أريانة تتكامل في ذهن مطالعه بعد قراءة كلّ صفحة فذاك حسبي. ولكنّي أدعو ـ على كلّ حال ـ من عنده إليه زيادة أو إضافة مهما كان نوعها، ألاّ يبخل بتقديمها والإدلاء بها لتكتمل عندنا جميعا هذه الصّورة المتألّقة «لأريانة مع الزّمان» فتاريخ أيّ مدينة أوأيّ معلم لا يكتمل استحضاره على حقيقته ـ خاصّة إذا طال عهده ـ إلاّ بتظافر الجهود والعناية المتواصلة لتهذيب وإزالة ماران عليه من الغبار والقدم حتّى يظهر جليّا برّاقا وفي نهاية الأمر جميلا وجذّابا. ولهذا السّبب اخترت تسمية الكتاب «أريانة مع الزّمان»، فقد واكبت الأحداث بل لنقل خطوب الزّمان وأفراحه، ـ هذا في ماضيها، وهي مع الزّمان في حاضرها ومستقبلها تتطوّر وتنمو وترتقي. إنّها مدينة تتّقد حياة وحيويّة. إنّها تواكب التّرقّي الحضاريّ وتساير الحداثة في شتّى مظاهرها العمرانيّة والاجتماعيّة وكذلك الثّقافيّة بمهرجاناتها وأعيادها ومواسمها في كلّ سنة متجدّدة.

إنّ هذا الكتاب واكب «أريانة مع الزّمان». وهو خلاصة في مراحله لحياة مدينة بدأت صغيرة وهي الآن في أتمّ نموّها تتوثّب لغد أفضل وإلى ارتقاء مطّرد في جميع الميادين. ورقيّها موكول لمتساكنيها ولكلّ من

تعلّق بها وأراد لها الخير والازدهار. والصّورة التي قدّمتها عنها هي أقلّ ما يقدّم من جهد في هذا الشأن.

وإنّي أتقدّم بالشّكر إلى **الدّكتور صلاح البلطي رئيس بلديّة** أريانة وقد-حرص شديد الحرص على إصدار هذا التّأليف- وعلى تشجيعه المتواصل للثّقافة وعلى عنايته بالمدينة العتيقة وبمكتسباتها التّراثيّة وبالأعياد المحلّيّة كعيد الورد كلّ ذلك قصد إخراج مدينة أريانة من النّسيان والتّعريف بتراثها وعراقة تاريخها وإحلالها ما تستحقّ من المنزلة الرّفيعة في الذّاكرة الجماعيّة وفي المسار المجيد لتاريخ تونس قديما وحديثا.

وأتقدّم بالشّكر كذلك إلى **الجمعيّة الثّقافيّة لبلديّة أريانة** على تولّيها إصدار هذا الكتاب وإحلاله المكانة الّتي يستحقّها في برنامجها الثّقافي.



بئر بلحسن مقر الجمعيّة الثّقافيّة لبلديّة أريانة

المصادر باللّغة العربيّة

- ابن خلدون (عبد الرحمان): كتاب العبر، طبعة بيروت 1985 .
- ابن أبي دينار: المؤنس ـ طبعة تونس 1286 هـ
- الشّمّاخي (أبو العباس احمد): كتاب السّير-القاهرة 1301 هـ .
- ابن أبي الضّياف (أحمد): إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، طبعة تونس 1963ـ1966
- العبدري الحيحي (محمّد): الرّحلة المغربيّة، تحقيق محمّد الفاسي-الرّباط 1965
- الحميري (محمّد عبد المنعم): الرّوض المعطار في خبر الأقطار ـ القاهرة 1956
- عبد الوهّاب (حسن حسني): 1-مجمل تاريخ الأدب التّونسي-تونس 1968
  2-خلاصة تاريخ تونس- تونس2001
- القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك تحقيق محمّد الطّالبي -تونس 1967
- كرّو (أبو القاسم محمّد): الأميرة نازلي فاضل: رائدة النّهضة في مصر وتونس دار الغرب العربي (سلسلة روّاد منسيّون عــــدد 3)، أفريل 2003 .

المصادر باللّغات الأخرى

♦ Allali (Jean Pierre): Juifs de Tunisie (Edition- Soline, Espagne 2003)

♦ D'Anthouard (Jean): Le village et les palais de l'Ariana (Bulletin économique et social de la Tunisie 1951,2ème tr)

♦ Bachrouche (Taoufik): Le Saint et le Prince ou les élites Tunisiennes du pouvoir et de dévotion (Université de Tunis 1989)

♦ Bercher (Léon): La Risàla, ou épître sur les éléments du dogme et de la loi de l'Islam selon le rite malékite (3è Edition, Alger 1968)

♦ Brunschvig (Robert): La berbérie Orientale sous les hafsides, des orignes à la fin de 15é siècle (Adrien - Maisonneuve.Paris 1940-1947).

♦ Dapper o.: Description de l'Afrique-Amsterdam 1686 .

♦ Dessort (Charles Roger): Histoire de la ville de Tunis (Alger 1924).

♦ Emerit (Marcel): La pénétration Industrielle en Tunisie (Revue Africaine 1952).

♦ Ibn Fadhl -Allah al-Umari: Masàlik al-Absàr fi mamàlik al-Amsàr (Traduction Gaudefroy-Demombynes, Paris 1927).

♦ Frank (L): Tunis, description de cette Régence (Paris1850)

♦ Ganiage (jean): Les origines du Protectorat français en Tunisie (Paris 1959)

♦ Gomez (Emilio Garcia): obervaciones sobre la qacida maqsura d'Abu -al Hasan Hàzim al qartayanni (al-Andalus, volume1,1933. fasc.1 Madrid).

♦ Grenville (T.Temple): Excursions in the mediterranean Algiers and Tunis (Saunders et Osley, Londres 1835).

♦ Houdoy (J.): Tapisserie représentant la conquête du royaume de Thunés par l'Empereur Charles Quint(Lille 1873).

♦ Idris (Hédi Roger): La Berbérie Orientale sous les zirides du 10è au 12è siècles.

♦ Manâqib d'abu-Ishàq al-Gabanyàni par Abu -al - qàsim al-Labidi et Manàqib de Muhriz ibn Halaf par abu-al Tàhir al-Fàrisi.(Edition et traduction, Alger1959).

♦ Jean Léon L'Africain: Description de l'Afrique (Edition Latine, Elzevir Leyde 1632 - J.Temporal, Paris 1830).

♦ Khaled (Ahmed): Epître détaillée sur les situations des élèves, leurs règles de conduite et celles des maîtres d'Abu -al-Hasan al-Qàbisi (324-403 H.), pédagogue Tunisien du 10 è siècle (Edition S.T.D, 1986).

♦ Latham (J.D.L.): Towards a study of andalusian immigration and its place in Tunisian history (Cahiers de Tunisie, 1957).

♦ Manchicourt (Charles): La région de Tunis (Annales de géographie, 1904).
♦ Marçais (Georges): L'architecture musulmane d'occident arts et métiers graphiques, (Paris 1954).
♦ Pellegrin (Arthur): - Histoire illustrée de Tunis et de sa banlieue (Saliba - Tunis 1955).
. Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie (S.A.P.I, Tunis, 1949).
♦ Pellissier (E.): Description de la Régence de Tunis et ses environs (Paris 1893).
♦ Penet (P.): L'hydraulique agricole dans la Tunisie méridionale (Tunis 1913).
♦ Perpetua (G.): géographia della Reggenza di Tunisi (Paravia, Torino 1882).
♦ Revault (Jacques): 1/ Palais, demeures et maisons de Tunis et environs (du 16è au 19è siècles). (La calade, Edisud, 1984).
2/ Palais et résidences d'été de la région de Tunis (15è - 19è siécles) (Paris CNRS 1974).
3/ Aspect de l'élément Andalou dans les palais et demeures de Tunis. (Madrid 1973).
4/ Sidi Ammar, Patron de village d'Ariana-Cahiers des arts et techniques d'afrique de Nord .1960
♦ Sebag (Paul): Les juifs de Tunisie au 19è siècle d'aprés J.J.Benjamin II (cahiers de Tunisie 1959).
♦ Saladin H.: Manuel d'art musulman (Paris 1907).
♦ Solignac (J.Marcel): Travaux Hydrauliques hafsides de Tunis (Revue Africaine ,1936 II).
♦ Taïeb (Jacques): Notes sur le village et l'habitation traditionnelle d'El-Ariana (dans: cahiers des arts et techniques d'Afrique du Nord n°6 / 1961).
. Une banlieue de Tunis: l'Ariana (cahiers de Tunisie n°32, 4è trimestre 1960).
.Les juifs livournais sous le règne de l'Islam (réalité et perspective) (les nouveaux cahiers n°42, .1975).

علي حمريت



من مواليد القيروان في 06 ماي 1940

الشهائد

شهادة ختم الدروس الثانويّة

شهادة ختم الدروس بدار المعلّمين

شهادة الكفاءة المهنيّة في التّربية

شهادة الباكالورية البّونسيّة بجزئيها (شعبة فلسفة)

شهادة الباكالورية الفرنسيّة بجزئيها (شعبة فلسفة)

الإجازة في اللّغة والاداب العربيّة

الإجازة في اللّغة والاداب الفرنسيّة

شهادة الكفاءة في البحث

شهادة التبريز في اللّغة والاداب العربيّة

شهادة ختم الدروس الإنجليزيّة في معهد اللّغات الحيّة بتونس

شهادة ختم الدروس الألمانيّة في معهد قوتة بتونس ومونيخ بألمانيا

الوظائف

معلّم بالتعليم الابتدائي

أستاذ بترشيح المعلّمات

أستاذ بالمعهد العلوي

متفقّد أوّل للتعليم الثّانوي

التّعليم العالي

أستاذ بالمدرسة التحضيريّة للدراسات العلميّة والتقنيّة

أستاذ بالمدرسة الوطنيّة للإدارة

الفهرس

الموضوع

نص : علي حمريت

تصميم، تصوير فوتوغرافي للمعالم، معالجة خرائط:

أسعد خالد

نشر شركة بوبليغراف منشورات زخارف - تونس

Edité par : Sté *Publigraph* (Editions Zakhâref)
Adresse : Bloc C. Espace TUNIS. App. C 2-1
Montplaisir - TUNIS - Tél./Fax : (216) 71 950 165

سحب من هذا الكتاب في طبعة أولى ثلاثة آلاف نسخة
برعاية بلديّة أريانة ولجنتها الثّقافيّة
تونس - سبتمبر 2004

Imprimé par : Imprimerie Champs - Elysées
Rue de l'Electricité - Zone Industruelle Ben-Arous
Tél: 71 388 555

ISBN : 9973-112-02-4 : ردمك

منشورات زخارف



بلديّة أريانة

منشورات زخارف

20 د.